دكتور عصام الدين عبد الرؤف
جامعة أسيوط

الحواضر الإسلامية الكبرى



ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

دكتور عصام الدين عبد الرؤوف
كلية الآداب بالمنيا — جامعة أسيوط

الحواضر الإسلامية الكبرى

دراسة تشمل معالم الحضارة في أمهات المدن الإسلامية في عصور ازدهارها

الطبعة الأولى ١٩٧٦

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد أفضل المرسلين ، وبعد فهذا كتاب موضوعه « الحواضر الإسلامية الكبرى » دعانى إلى تأليفه اهتمامى بدراسة الحضارة الإسلامية فى أمهات المدن منذ سنوات ، فرأيت أن أعد بحثاً عن هذا الموضوع يتناول جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية فى حواضر الإسلام الكبرى ، وهى دمشق ؛ حاضرة بنى أميه ، وبغداد حاضرة الدولة العباسية فى عصرها الأول ، والقاهرة حاضرة الخلافة الفاطمية ، وقرطبه ؛ حاضرة الأمويين فى الأندلس .

وقسمت هذا الكتاب إلى جزأين ، يتضمن الجزء الأول ، دمشق وبغداد ، والجزء الثانى القاهرة وقرطبه .

وقسمت الجزء الأول من هذا الكتاب إلى قسمين ، القسم الأول يتضمن مدينة دمشق — حاضرة بنى أميه — ويشمل الفتح العربى لمدينة دمشق ، وخطط دمشق وتطورها فى العهد الأموى ، والحالة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية فى دمشق الأمويين . أما الحياة الثقافية فلم أفرد لها بابا فى هذا القسم ، لأن الثقافة الإسلامية كانت لا تزال فى دور التكوين . واقتصرت على الحديث عن الحياة الثقافية فى بغداد مشيراً إلى الجهود التى بذلها المسلمون فى العهد الأموى فى عالم الفكر ، على اعتبار أن نهضة بغداد العلمية كانت استمراراً لها .

ويتضمن القسم الثانى من الجزء الأول خطط بغداد وتطورها فى العصر العباسى الأول ، ثم الحالة الاقتصادية والمظاهر الاجتماعية والحياة الثقافية

فى هذه المدينة الكبرى خلال فترة الازدهار التى مرت بها ، والتى تعد بحق أجمل أيامها ، وأزهى لياليها .

والواقع أن لدراسة مظاهر الحضارة فى المدن الإسلامية أهمية كبيرة للباحثين والمهتمين بالدراسات التاريخية ، لأن هذه المدن كانت مراكز للاشعاع الحضارى فى الأرض قاطبة خلال فترات ازدهارها . والباحث فى هذا الموضوع يواجه قضايا معقدة لأنه يحصر دراسته فى نطاق مدينة بعينها ، وفترة محددة ، ومثل هذا العمل الشاق يحتاج إلى مثابرة وقراءات كثيرة فى جميع المراجع التى تتناول هذا الموضوع من قريب أو بعيد ، أو حتى إشارات عنه، وكلنا نعلم أن المؤرخين العرب لا يكتبون عن الحضارة، إنما ركزوا كل جهودهم فى الحديث عن التاريخ السياسى ، وعلى الباحث أن يتلمس خلال هذه الكتب ما قد يفيد فى موضوع البحث ، والكتب الأدبية فيها جوانب عن الحياة الاجتماعية، إلا أنه يجب الحذر من المبالغات التى تتضمنه هذه الكتب،والروايات غير الدقيقة بل وغير الصحيحة أحياناً.

وعلى الرغم من كل هذه الصعوبات ، فقد كنت مصراً على إخراج هذا البحث ، وقضيت فى إعداده الليالى الطوال حتى انتهيت به إلى الصورة التى أرجو أن يجد فيها القارىء ما يفيده فى هذا الموضوع .

والله أسأل أن يوفقنى إلى مواصلة البحث فى تاريخ الإسلام وحضارته ؟

دكتور
عصام الدين عبد الرءوف
مصر الجديدة ١٩٧٥/٩/١٤

القسم الأول

مدينة دمشق حاضرة بنى أمية

الباب الأول : دمشق وخططها فى العهد الأموى .

الباب الثانى : الحالة الاقتصادية فى دمشق .

الباب الثالث : المظاهر الاجتماعية فى دمشق .

الباب الأول

دمشق وخططها فى العهد الأموى

تمهيد : دمشق قبل الفتح العربى

أخذ الطابع العربى يسود دمشق منذ حكمها الأنباط ، فتوالت عليها هجرات عدد كبير من القبائل العربية التى استقرت فى المنطقة المحيطة بها ، وظلت على هذه الحال حتى قضى الإمبراطور الرومانى تراجان سنة ١٠٥ م على أمارة الأنباط ، واستولى عليها[١] طمعاً فى السيطرة على الطريق التجارى الذى يمر بها[٢] . ولم يتخذ الرومان هذه المدينة حاضرة بسبب تعرضها لغارات القبائل العربية الضاربة فى نواحيها [٣] .

وقد عمد الرومان فيما بعد إلى إضعاف الأمارات العربية بالشام والقضاء على نفوذها ، إذ غدا استقلالها خطراً يهدد سلامة امبراطوريتهم ، وتجلت هذه السياسة مع إمارة تدمر التى حالفت روما ، ونفذت سياستها ضد الفرس ، إذ نجح أذينه حاكم تدمر فى طرد شابور الأول الفارسى من الشام سنة ٢٦٥ م . ومنحه الإمبراطور الرومانى أورليان لقب « حاكم الشرق » (Dux Orientis) اعترافاً بجهوده وخدماته ، غير أن هذه الأمارة لم تستمر طويلا ، فقد قضى عليها الرومان سنة ٢٧٣ [٤] .

وبينما كان الرومان يعملون على القضاء على نفوذ الأمارات العربية فى

---

(١) Hitti : History of Syria, P. 382

(٢) Kremer : Orient Under the Caliphs, P. 133—134

(٣) Encyc. : of Islam, Art Da us.

(٤) Hitti : History of Syria P. 393—396

بلاد الشام الواحدة بعد الأخرى ، كانت قبيلة أخرى[1] تدعم نفسها على أنقاض إمارتى الأنباط وتدمر ، وتقيم دولة في الجنوب الشرقي من دمشق[2] .

كانت بادية الشام أرضاً عربية من أقدم الأزمنه ، فوفد إليها بعض القبائل من البادية ، كما هاجر إليها الضجاعمة[3] ، ونزلوا بالبلقاء وظلوا بها ، إلى أن قدم عليهم الغساسنة ، فطالبهم الضجاعمة بالأتاوة ، وظل الغساسنة يؤدون الاتاوة للضجاعمة حتى تغلبوا عليهم ، وأنشأوا لأنفسهم دولة عرفت بدولة الغساسنة ، واتخذ الغساسنة أكثر من عاصمة لأن حياتهم كانت غير مستقرة ، ومن عواصمهم بُصرى[4] وجلق (جنوبى حوران) والجابية[5] .

زاد الاهتمام بمدينة دمشق فى عهد الدولة البيزنطية ، لأن الفرس كانوا يتطلعون إلى الاستيلاء عليها ، فأتخذ البيزنطيون من الغساسنة — الذين كانوا يقيمون فى منطقة دمشق والصحراء القريبة منها — حلفاء لهم لحماية حدود دولتهم من خطر الفرس وغارات البدو . وقد أدت هذه السياسة إلى تقوية الطابع العربى لدمشق ، فغدت محط أنظار العرب فى الجاهلية يفدون إليها للتجارة[6] .

---

(١) لما هاجرت الأزد من اليمن على أثر انكسار سد مأرب استقرت إحدى قبائلها بجوار ماء يقال له غسان بالشام ، فسموا « أزد غسان » (زيدان : العرب قبل الإسلام ص١٨٤) .

(٢) Hitti : History of the Arabs, P. 78

(٣) الضجاعمة من ولد سليح بن عمرو بن حلوان من قضاعة . وقد هاجرت قبيلة قضاعة إلى الشام حوالى سنة ٢٣٠ م أى نهاية تدمر .

(Dusseud : Les Arabes en Syrie avant l'Islam, P. 9)

(O'Leary: Arabia Before Muhammad, P 161—162)

(٤) نلدكه : أمراء غسان ص٥٢ — ٥٤

الجابية قرية من أعمال دمشق (ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٩١) .

(٥) Hitti ; History of the Arabs, P 78

(٦) Hitti ; History of the Arabs. P. 78

حالف الروم الغساسنة على أن يمدهم الروم بأربعين ألفاً إذا هاجمهم العرب ، وأن يمدوا الروم بعشرين ألفاً إذا حاربهم الفرس . واعتنق الغساسنة — تحت تأثير ما بينهم وبين البيزنطيين من علاقات المسيحية ، غير أنهم لم يتبعوا المذهب الملكانى — مذهب الدولة البيزنطية — بل اعتنقوا المسيحية على المذهب المنوفستى السائد فى سورية .

كان الحارث الثانى بن جبله (٥٢٩ — ٥٦٩ م) من أعظم أمراء الغساسنة شأنا ، وقد رفع الأمبراطور جستنيان الحارث إلى مرتبة الملوك ، وبسط سلطانه على كافة القبائل العربية فى بلاد الشام .

قامت بين الحارث والمنذر بن ماء السماء — أمير الحيرة — حرب لادعائه ملكية الطريق الممتد من دمشق إلى ما بعد تدمر ، وأوعز كسرى سراً لأمير الحيرة أن يتوغل فى غزو سورية ، فأجابه إلى طلبه ، وقامت الحرب بسبب ذلك بين الحيرة ودولة الغساسنة ، ثم تقدم كسرى وحليفه المنذر فى أراضى السورية وآسيا الصغرى ، وأوشكا على فتح القسطنطينية ، فاستنجد الأمبراطور البيزنطى بالحارث بن جبله ، وطلب منه أن ينضم إلى قائده بليزاريوس فى صد الفرس والمناذره وفى سنة ٥٤١ م حارب الحارث فى العراق بجانب الروم تحت قيادة بليزاريوس ، ولم يحصل من حملته هذه على نتائج تذكر .

لم يمض على هذه الغزوة زمن طويل حتى عاد الأميران العربيان إلى القتال سنة ٥٤٤م ، واستمر القتال بينهما إلى أن أحرز الحارث بن جبله انتصاراً حاسما فى واقعة عين أباغ ، أدى إلى دخول قنسرين فى حوزة الحارث بن جبلة [1] .

---

(١) نلدكه ، أمراء غسان ص ١٩ .

سافر الحارث بن جبلة فى أواخر عهده سنة ٥٦٣ م إلى القسطنطينية لمفاوضة الامبراطور جستنيان فيمن يخلفه من أولاده على سورية ، وما يتخذ من تدابير لمقاومة أمير الحيرة ، وكان لما شاهده فى العاصمة البيزنطية من مظاهر العظمة والأبهة وقع عظيم فى نفسه (١) .

استطاع الحارث بن جبلة أثناء إقامته فى القسطنطينية أن يظفر بتعيين يعقوب البردعى أسقفا على الكنيسة السورية ، وكان يعقوب هذا متحمساً فى نشر مذهبه حتى أن الكنيسة المنوفستية السورية عرفت بعده باسم اليعقوبية (٢) .

لما توفى الحارث سنة ٥٧٠ م خلفه ابنه المنذر ، ولم يكد يتسلم زمام الحكم حتى اشتبك فى حرب مع عرب الحيرة ، وكانوا قد أغاروا على سوريه بعد وفاة أبيه ، فقاتلهم وانتصر على ملكهم قابوس بن المنذر ، ثم وقعت جفوة بين المنذر وبيزنطة بسبب مناصرته المذهب المنوفستى ـ وكانت تؤيد المذهب الملكانى ـ فأنتهز عرب الحيرة هذه الفرصة وأغاروا على سوريه ، فاضطر الروم إلى استرضاء الأمير الغسانى ودعاه الامبراطور البيزنطى تيبريوس (Tiberius) لزيارة القسطنطينية سنة ٥٨٠ م ، فرحب المنذر بهذه الدعوة ، وأحسن الامبراطور استقباله ، وأنعم عليه بالتاج ، ولذلك سماه بعض مؤرخى العرب « المنذر ملك العرب » (٣) .

على أن الأمبرطور البيزنطى لم يلبث أن ارتاب فى ولائه ونفاه سنة ٥٨٠ م إلى صقلية حيث توفى بعد سنتين . وقطعت الحكومة البيزنطية الاتاوة السنوية التى كانت تعطيها للغساسنة ، فسخط أبناء المنذر الأربعة على

---

(١) الذكة : أمراء غسان ص ١١

(٢) Hitti : History of the Arabs, P. 69

(٣) Hitti . History of the Arabs, P. 79—80

الأمبراطور البيزنطى ، وشقوا عصا الطاعة على الدولة الرومانية، ثم توغلوا بزعامة أخيهم الأكبر النعمان بن المنذر الغسانى فى الصحراء ، وأخذوا يشنون الغارات على أراضى هذه الدولة ، لكن الحكومة البيزنطية تمكنت من أسر النعمان سنة ٥٨٣ م(١) .

تفرقت كلمة العرب فى سورية بعد أن سبق النعمان إلى القسطنطينية وتفككت عرى وحدتهم ، فاختارت كل قبيلة منهم أميرا لها(٢) .

كما ترتب على انهيار سلطان الغساسنة هجرة بعض القبائل العربية إلى الشام ، ومن أشهرها قبيلة كلب التى امتلكت غوطة دمشق ومنطقة جنوب جبل حوران وواحة دومة الجندل وتبوك ، وهيأت لهم هذه البقاع السيطرة على الطرق التجارية التى تخترقها فضلا عن الينابيع المائية الكثيرة بها ، وورثت هذه القبيلة ما كان للغساسنة من زعامة على عرب الشام فى عهد معاويه وابنه يزيد(٣) .

كما كان لضعف الغساسنة بالشام آثار سيئة على مدينة دمشق إذ غزا الفرس بلاد الشام واستولوا على بيت المقدس ودمشق سنة ٦١٣-٦١٤م(٤) ، غير أن الفرس لم يستمروا طويلا فى الشام إذ تمكن الأمبراطور هرقل من إجلائهم عن تلك البلاد سنة ٦٢٨م وظهر من الغساسنة إذ ذاك جبلة ابن الايهم، ويعد آخر أمراء البيت الغسانى ، وقد اشترك مع الروم فى واقعة اليرموك(٥) التى انتصر فيها العرب المسلمون .

تعرضت دمشق فى العهد البيزنطى لأحداث هامة كان لها تأثير بالغ فى

(١) Hitti : History of the Arabs P. 80

(٢) نلدكه : امراء غسان ص ٣٤

(٣) Lammens ; Etudes sur le régne du calife Moawia, P. 286—289

(٤) نلدكه : امراء غسان ص ٤٦

(٥) Hitti : History of the Arabs. P. 80

سكانها من العرب حملهم على التطلع إلى إخوانهم فى شبه جزيرة العرب ، فقد كان أهل دمشق يتبعون المذهب اليعقوبى ، بينما كانت الدولة البيزنطية تتبع المذهب الملكانى ، فحاول هرقل إنهاء النزاع بين اتباع المذهبين ، ففرض على سكان الامبراطورية مذهبا يقول بأن للمسيح مشيئة واحدة(١) ، لكن أهل دمشق تمسكوا بمذهبهم اليعقوبى(٢) . وقد آذنت هذه السياسة بزوال عهد السيادة البيزنطية على دمشق ، إذ سرعان ماتحققت الوحدة الدينية والسياسية فى جزيرة العرب ، وزحفت الجيوش العربية إلى دمشق، ورحب أهل هذه المدينة بالعرب ، ورأوا فيهم رمزاً للخلاص من نير الروم واستبداد الكنيسة البيزنطية (٣) .

(١) كان اليعاقبة يقولون بأن للمسيح طبيعة واحدة لها كل الصفات البشرية والإلهية ، بينما يرى اتباع المذهب الملكانى بأن للمسيح طبيعتين بشرية وآلهية لا اختلاط بينهما ، وكل طبيعة تحتفظ بخصائصها . ويرى هرقل أن المسيح يمثل الجانب الإنسانى والجانب الالهى بقوة الهية إنسانية واحدة (أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٥٧)

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج ١ ص ٢١٥

(٣) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص ٢٣

١ ـ الفتح العربى لمدينة دمشق

شرع المسلمون فى غزو الأطراف الجنوبية لبلاد الشام فى حياة النبى صلى الله عليه وسلم ، ولما ولى أبو بكر الخلافة بدأ عمله بانفاذ حملة أسامه ابن زيد التى جهزها الرسول قبل وفاته ، وزودها بخيرة المسلمين من المهاجرين والأنصار(١) .

كان أبو بكر يرى من وراء الاسراع بارسال هذه الحملة إشعار الخارجين على الحكومة الاسلامية فى المدينة ، بقوتها وثبات مركزها ، هذا فضلا عن رغبته فى شغل الأنصار الذين كانوا غير راضين عن فوز المهاجرين بالخلافة فى بيعة السقيفة(٢) .

ويذكر ابن الأثير(٣) أنه كان لانفاذ جيش أسامه أهمية كبيرة للمسلمين، « فإن العرب قالوا : لو لم يكن بهم قوة لما أرسلوا هذا الجيش ، فكفوا عن كثير مما كانوا يريدون أن يفعلوا » .

لكن بعض الصحابة اعترض على إرسال هذه الحملة ، وقالوا للخليفة : « انتقضت عليك العرب فلا ينبغى أن تفرق جماعة المسلمين عنك ، فأجابهم أبو بكر بقوله : « لا أرد قضاء اقضى به رسول الله صلى الله عليه وسلم ولو ظننت أن السباع تخطفنى لانفذت جيش أسامه كما أمر النبى(٤) » .

ولما تحرك الجيش خرج أبو بكر لتوديعه ، وأوصى أفراد هذه الحملة بقوله « لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص١٥٥

(٢) Muir : The Caliphate, P. 16

(٣) الكامل فى التاريخ ج٢ ص٢٥٢

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٢ ص ٢٥٢

ولا شيخا كبيراً ولا إمرأة ، ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ، ولا تقطعوا شجرة مثمرة ، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا ، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع ، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له . وسوف تقدمون على قوم بآنية فيها ألوان الطعام ، فإذا أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليه ، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رؤسهم وتركوا حولها مثل العصائب ، فاخفقوهم بالسيف خفقاً . اندفعوا باسم الله[١] » .

سار أسامه على رأس جيشه قاصداً البلقاء ، فلما بلغ أبنى(٢) غزا قوماً من قضاعة وأوقع بهم ، وتغلب على كل من تعرض له ، وغنم وعاد منتصراً إلى المدينة بعد أن قضى فى غزوته ما يقرب من شهرين(٣) . وبذلك أخذ أسامه الثأر لأبيه ولمن استشهد معه من المسلمين فى مؤته .

وكانت هذه الحملة أولى السلسلة الرائعة من الحملات التى اجتاح العرب فيها سورية وفارس وشمال افريقية (٤) .

وجه أبو بكر اهتمامه بعد أن فرغ من أهل الردة إلى توجيه الجيوش إلى الشام ليحقق بذلك سياسة التوسع للدولة العربية الإسلامية التى وضع أساسها الرسول قبل وفاته(٥) فجمع الصحابة فى المسجد وقال لهم : « اعلموا أن الله فضلكم بالاسلام وجعلكم من أمة محمد عليه السلام وزادكم إيمانا ويقينا ، واعلموا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان عول أن يصرف همته إلى الشام ... ألا وأنى عازم أن أوجه أبطال المسلمين إلى الشام بأهليهم ومالهم

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٢ ص٢٥٤

(٢) ابنى : موضع بالشام جهة البلقاء ويقال أنها قرية بمؤته (ياقوت : معجم البلدان ج١ ص١٠٧

(٣) المقريزى : امتاع الاسماع ج١ ص٥٤٠

(٤) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٤٦

(٥) سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ص٤٠٢

فإن الرسول أنبأنى بذلك قبل موته . فاستجاب الصحابة لنداء الخليفة وقالوا له : مرنا بأمرك ووجهنا حيث شئت (١) » .

كتب أبو بكر إلى أهل مكة والطائف واليمن وجميع العرب بنجد والحجاز، يدعوهم للجهاد ويرغبهم فيه وفى غنائم الروم . وقد استجاب المسلمون فى جميع أنحاء الجزيرة العربية لنداء الخليفة « فسارع الناس اليه من بين محتسب وطامع »(٢) ،فاقبلوا ومعهم الذرارى والأموال والنساء والأطفال. وخرج المسلمون لاستقبالهم «وأظهروا زينتهم وعددهم ونشروا الأعلام الاسلامية ورفعوا الألوية المحمدية ،فما كان إلا قليل حتى أشرفت الكتائب والمواكب يتلو بعضها بعضا قوم فى أثر قوم وقبيلة فى أثر قبيلة، فأنزلهم أبو بكر حول المدينة وجعل كل قبيلة تقيم فى ناحية معينة »(٣) .

عقد أبو بكر أربعة ألوية لأربعة من قواد المسلمين ، وهم يزيد بن أبى سفيان ووجهته دمشق، وشرحبيل بن حسنه ووجهته وادى الأردن، وعمرو ابن العاص ووجهته فلسطين ، وعهد إلى ابى عبيده عامر بن الجراح بالمسير إلى حمص ، وطلب اليهم فى حالة اضطرارهم إلى الانضمام لبعض أن تكون القيادة لأمير المنطقة التى فيها التجمع (٤) .

أوصى أبو بكر الصديق يزيد بن أبى سفيان بقولة : « إذا سرت فلا تضيق على نفسك وعلى أصحابك فى مسيرك وشاور أصحابك فى الأمر» واستعمل العدل ، وباعد عنك الظلم ، فأنه لا أفلح قوم ظلموا ولا نصروا على عدوهم ، وإذا نصرتم على عدوكم فلا تقتلوا ولدا ولا إمرأة ولا طفلا،

---

(١) الواقدى : فتوح الشام ج١ ص٢
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص١١٤
(٣) الواقدى : فتوح الشام ج ١ ص ٣
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص١١٤ — ١١٥
ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٢ ص١٥٥

ولا تغدروا إذا عاهدتم ولا تنقضوا إذا صالحتم ، ولا تهدموا صوامع الرهبان ، وحاربوا عبدة الصلبان حتى يرجعوا إلى الاسلام أو يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون »(١) .

لما بلغ يزيد بن أبى سفيان تبوك — وهو فى طريقه إلى الشام — أنفذ هرقل أمبراطور الروم جيشاً ليحول دون دخول العرب بلاد الشام، ودارت بين العرب والروم موقعة انتصر فيها العرب(٢) .

وعندما سار عمرو بن العاص إلى فلسطين أسرع أميرها سرجيوس لصد غارات العرب ، لكنه هُزم فى موضع يقال له العربة (Araba) ثم فر وقُتل أثناء فراره ، وفى هذه الأثناء كان هرقل امبراطور الروم فى شمال الشام قد حشد جيشاً كبيراً لصد القوات العربية(٣) ، فكتب عمرو بن العاص إلى أبى بكر يستنجده ويخبره بكثرة عدد العدو وعدتهم(٤)، وكان أبو بكر إذ ذاك يرى أن فتح الشام أكثر أهمية من فتح العراق(٥) ، ومن ثم كتب إلى خالد بن الوليد — الذى كان وقتذاك يواصل زحفه فى بلاد العراق — يأمره بالتوجه إلى الشام(٦) ، وأسند إليه قيادة الجيوش العربية فى تلك البلاد(٧) .

لما أتى خالد بن الوليد كتاب أبى بكر وهو بالحيرة أسند قيادة الجيوش العربية فى العراق إلى المثنى بن حارثة الشيبانى، وسار فى ربيع الأول سنة ١٣ هـ

---

(١) الواقدى : فتوح الشام ج١ ص ٤ — ٥

(٢) الواقدى : فتوح الشام ج١ ص٦

(٣) Muir, The Caliphate, P. 66

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص١١٦

(٥) Muir, The Caliphate, P. 69

(٦) تاريخ الطبرى : ج ٢ ص١١٧

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص١١٦ — ١١٧

إلى بلاد الشام على رأس نصف الجيش الذى كان يقوده فى العراق [١] ،

ولما وصل إلى بلدة بصرى — وكان فتحها قد استعصى على شرحبيل ابن حسنة — استطاع أن يستولى عليها بمعاونة واليها رومانوس الذى أعتنق الإسلام ، ويسر للعرب أمر دخولها ، وصالح خالد أهل بصرى وأعطاهم أماناً على دمائهم وأولادهم على أن يؤدوا الجزية .[٢]

وكان عمرو بن العاص إذ ذاك قد أغار على جنوبى فلسطين حتى بلغ غزة ، فقطع المواصلات بين مدينة بيت المقدس وبين الساحل ، أما هرقل قيصر الروم فقد أعد جيشاً فى ناحية تقع جنوبى دمشق ، وأسند قيادته إلى أخيه تيودور الذى سار جنوباً للدفاع عن بيت المقدس وغزة ، فخشى خالد ابن الوليد هزيمة القوات العربية فى الجنوب ، وأسرع جنوباً عبر شرق الأردن ، وحشد قواته فى وادى عربة ، ثم زحف إلى فلسطين لمحاربة تيودور ، وفى جمادى الأول سنة ١٣ هـ نشبت معركة بين العرب والروم فى أجنادين دارت الدائرة فيها على الروم ، وولى تيودور هارباً حيث ألتقى بأخيه هرقل الذى غادر حمص وتراجع إلى أنطاكية [٣] .

وبانتصار العرب فى أجنادين أصبحت فلسطين كلها فى يدهم وقد نوه عن ذلك سفرنيوس رئيس أساقفة بيت المقدس فى خطاب ألقاه فى الاحتفال بعيد الميلاد سنة ١٣ هـ (٦٣٤ م) إذ قال : أن المسيحيين أصبحوا لا يستطيعون الحج إلى بيت لحم لأن بلاد فلسطين أصبحت فى قبضة العرب [٤] .

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص١١٧ — ١١٨

(٢) الواقدى : فتوح الشام جـ١ ص٢١

(٣) Muir, The Caliphate, P. 70—71

(٤) Muir, The Caliphate, P. 71

لما علم أهل الحجاز واليمن ونجد بالانتصارات التى أحرزها المسلمون والغنائم كثيرة التى غنموها . تسابقوا فى الخروج إلى الشام لمشاركة إخوانهم فى الجهاد ، فأقبل إلى المدينة عدد غفير منهم ، وطلبوا من أبى بكر أن يأذن لهم بالخروج إلى الشام ، فأذن الخليفة لهم ، وكتب إلى خالد ابن الوليد كتاباً جاء فيه : « قد فرحت بما أفاء الله على المسلمين من النصر وهلاك الكافرين ، وأخبرك أن تنزل إلى دمشق حتى يأذن الله بفتحها على يدك ، فإذا تم ذلك ، فسر إلى حمص وأنطاكية والسلام »(١) .

تركزت المعارك فى بداية عهد عمر بن الخطاب فى الأردن حيث انتصر العرب على الروم فى بيسان وفحل ، ذلك أن هرقل أمبراطور الروم لما توجه إلى أنطاكية أعد جيشا كبيرا التقى بالقوات العربية فى فحل التى كانت تحمى الطريق إلى دمشق - وهدم الروم سدود المياه ليعرقلوا تحركات العرب،(٢) لكنهم رغم ذلك انتصروا على اعدائهم ، وتحصن أهل فحل فى مدينتهم ، فشدد العرب عليهم الحصار حتى طلبوا الأمان على أن يؤدوا الجزية والخراج فاستجاب العرب لطلبهم ، وأمنوا على أنفسهم وأموالهم،ودخلوا فحل سنة ١٣ هـ (٣) (٦٣٤ م).

مهدت الانتصارات التى أحرزها العرب فى الأردن الطريق إلى دمشق ، فتوجه العرب فى المحرم سنة ١٤ هـ إلى دمشق - وكان الروم قد أعادوا تنظيم صفوفهم بعد أن أمدهم هرقل ببعض قواته - ، والتقى العرب بالروم فى مرج الصفر وأوقعوا بهم الهزيمة (٤)وبذلك أصبح الطريق مفتوحا أمام العرب للزحف إلى دمشق (٥) فاستولوا على الغوطة وكنائسها عنوة(٦)

(١) الواقدى : فتوح الشام جـ١ ص٥٢

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٣ ص٤٣٤

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٢٢

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٢٤

(٥) تاريخ اليعقوبى : ج٢ ص١١٣

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٢٧

وتحصنت الحاميات البيزنطية فى المدينة ، وأغلقوا أبوابها ، ومن ثم بدأ التعاون والتنسيق بين سائر قواد العرب ، فوزعوا قواتهم على أبواب المدينة الرئيسية لتشديد الحصار عليها ، وحملها على التسليم ، فاختص خالد بن الوليد بالباب الشرقى ، واتخذ من دير صليبا — الذى عرف فيما بعد بدير خالد — مقرا لقيادته ، ونزل عمرو بن العاص بباب توما ، وشرحبيل بن حسنه بباب الفراديس ، وأبو عبيدة عامر بن الجراح بباب الجابية . (١) .

وبينما كان أبو عبيدة عامر بن الجراح يشترك مع قواد العرب فى محاصرة دمشق وصله كتاب من الخليفة عمر بن الخطاب يتضمن اسناد قيادة الجيوش العربية فى الشام إليه بدلا من خالد بن الوليد . ومما جاء فى هذا الكتاب « قد بلغنا حصاركم لأهل دمشق وقد وليتك جماعة المسلمين ، فبث سراياك فى نواحى أهل حمص ودمشق وما سواها من أرض الشام ، وانظر فى ذلك برأيك ، ومن حضرك من المسلمين ومن استغنيت عنة فسيره ، ومن احتجت إليه فى حصارك فاحتبسه وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه »(٢) .

كتم أبو عبيدة عن خالد بن الوليد توليته قيادة الجيوش العربية حتى تم فتح دمشق ، وحينئذ أظهرها له قائلا : كرهت أن أكسرك وأوهن أمرك وأنت بإزاء عدو(٣) . ولما قرأ خالد بن الوليد كتاب الخليفة قال : (ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين) ، وحارب تحت أمرة أبى عبيدة(٤) .

ظل العرب يحاصرون مدينه دمشق ستة أشهر متوالية(٥) ولم تجد أهالى هذه المدينة منعة حصونهم نفعاً ، كما أنه فى أثناء الحصار كانت بعض القوات

---

(١) ابن بطريق : التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج٢ ص١٥

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج٣ ص٤٣٥

ابن عساكر : التاريخ الكبير ج١ ص١٥١

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٢١

(٤) ابن حجر : الأصابة فى تمييز الصحابة ج٢ ص٩٨

(٥) Muir, The Caliphate, P 93

العربية بين دمشق وحمص تحول دون وصول أية امدادات قد تصل إليهم، فضعفت مقاومتهم، ووهنت عزيمتهم(١) .

لما اشتد الحصار على أهل دمشق بعثوا إلى هرقل وهو بانطاكية رسلا يقولون له : « أن العرب قد حاصرونا وليس لنا بهم طاقة ، وقد قاتلناهم مراراً ، فإن كان لك فينا وفى السلطان علينا حاجة ، فامددنا وأعنا وإلا فإنا فى ضيق وجهد فاعذرنا وقد أعطانا القوم الأمان ، ورضوا منا بالجزية اليسيرة(٢) .

لما رأى أسقف دمشق أن أبا عبيدة بن الجراح على وشك دخول مدينة دمشق من باب الجابية توجه إلى خالد بن الوليد وطلب منه أن يعقد معه صلحا بقوله : « يا أبا سليمان أن أمركم مقبل ولى عليك عدة ، فصالحنى عن هذه المدينة » ، فأجاب خالد طلبه ، وكتب إليه كتاب صلح لأهل دمشق جاء فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق إذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم ولا يسكن شىء من دورهم لهم بذلك عهدالله وذمة رسوله صلى الله عليه وسلم والخلفاء والمؤمنون لا يعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية » (٣) .

فتح أسقف دمشق على أثر ذلك الباب الشرقى لخالد بن الوليد، فدخل خالد المدينة فى ربيع الثانى سنة ١٥ هـ (٦٣٦م) وبصحبته الأسقف ناشرا كتاب الصلح الذى كتبه خالد بن الوليد له . والتقى خالد بقواد العرب فى دمشق على مقربة من كنيسة المقسلاط(٤) ، وأخبرهم بالصلح الذى كتبه لأهل دمشق، فامروا قواتهم بالكف عن القتال(٥) وكتب أبو عبيدة

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٣ ص٣٢٩
(٢) ابن عساكر : التاريخ الكبير جـ١ ص١٥٢
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص [illegible]
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص [illegible]
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٧ ص [illegible]

إلى عمر بن الخطاب بهذا الصلح فوافق عليها[١] .

هناك روايات كثيرة تدور حول الفتح العربي لمدينة دمشق يناقض بعضها بعضاً ، ومن أبرز هذه الروايات رواية ابن عساكر[٢] التي ذكر فيها أن خالد بن الوليد دخل المدينة من الباب الشرقي عنوة ، في حين دخل أبو عبيدة من باب الجابية صلحاً ، وعلى ذلك كان صلح أهل دمشق على أنصاف منازلهم وكنائسهم . وهذه الرواية متأخرة وتناقض كل الروايات الموثوق بها والسابقة عليها في الزمن،ورواية البلاذرى أقرب هذه الروايات إلى الصحة[٣] .

ذكر البلاذرى[٤] أن محمد بن سعد[٥] روى عن الواقدى قوله: « قرأت كتاب خالد بن الوليد إلى أهل دمشق فلم أر فيه أنصاف المنازل والكنائس، ولكن دمشق لما فتحت لحق كثير من أهلها بهرقل وهو بأنطاكية ، فكثر فضول منازلها ، فنزلها المسلمون » . وكان أبو عبيدة قد أعطاهم أماناً لمدة ثلاثة أيام يغادرون خلالها المدينة[٦] .

قضى العرب شتاء سنة (٦٣٦ م) في دمشق واضطروا إلى الرحيل عنها وعن بعض المدن التي فتحوها لملاقاة الروم في اليرموك ، بل أعادوا لأهل حمص ما أخذوه من الخراج وقالوا لهم : قد شغلنا عن نصرتكم والدفاع عنكم فأنتم على أمركم[٧] . ذلك أن هرقل عول على مهاجمة العرب بعد أن

---

(١) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٢٨

(٢) ابن عساكر : التاريخ الكبير ج١ ص١٥٥

(٣) Encyc. of Islam, Art Damascus

(٤) فتوح البلدان : ص١٢٩

(٥) محمد بن سعد : كان كاتبا للواقدى وكان راوية .

(فتوح البلدان للبلاذرى : تحقيق صلاح الدين المنجد ج١ ص١٥٨) .

(٦) الواقدى : فتوح الشام ج١ ص٦٤

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٤

بلغه فتحهم دمشق،فجمع جيشاً كبيراً من الروم وعرب الشام وأهل الجزيرة وأرمينية ، وأسند قيادة هذا الجيش إلى تيودور[١] .

اجتمعت القوات العربية فى المنطقة المعروفة بحوض نهر اليرموك . أما قوات الروم فسارت إلى الواقوصـــه ، وهاجمت خيالتهم العرب[٢] ، واشتد القتال بين الفريقين ، ولكن حدث أن استهوت عرب الشام بالجيش البيزنطى العصبية العربية،وانضموا للقوات العربية أثناء القتال وقالوا لهم : « أنتم اخوتنا وبنو أبينا » . كما أن اليأس تسرب إلى جند الروم بعد أن فشلوا مراراً فى وقف تيار الزحف العربى ، وانتهت موقعة اليرموك بهزيمة الروم فى رجب سنة ١٥ هـ[٤] (٦٣٦ م) .

عاد العرب إلى دمشق بعد انتصارهم الرائع فى اليرموك فى خريف هذه السنة ، وفتحوها للمرة الثانية ، وجدد خالد بن الوليد لأهل دمشق كتاب الصلح الذى كان قد كتبه لهم ، وأثبت فى هذا الكتاب شهادة أبى عبيدة ابن الجراح ويزيد بن أبى سفيان وشرحبيل بن حسنة وغيرهم من قواد العرب[٤] .

ولما بلغ هرقل ايقاع المسلمين بجنده قال فى حسرة وألم : « عليك السلام يا سورية لقد كنت سلمت عليك تسليم المسافر ، فأما اليوم فعليك السلام يا سورية تسليم المفارق ، ولا يعود إليك رومى أبداً إلا خائفاً »[٥].

عاد العرب عقب اليرموك إلى المناطق التى كانت تعسكر فيها قواتهم ، فسافر عمرو بن العاص إلى فلسطين ليتم فتحها، واتجه شرحبيل بن حسنة إلى

---

(١) Muir , The Caliphate, p. 129-130

(٢) Muir , The Caliphate, p. 129-130

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٤٢

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٢٩

(٥) طبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٣ ص٦٥

الأردن، وفتح عكا وصور وأخذ يزيد بن أبى سفيان مدن الشام الغربية، فاستولى على صيدا وجبيل وبيروت ، أما أبو عبيدة فإنه تقدم شمالا واسترد المدن التى استولى عليها العرب من قبل ، وامتدت فتوحه إلى حمص وقنسرين وحلب وأنطاكية ، وكان خالد بن الوليد قد سار فى صحبته ، غير أنه ما لبث أن تركه وتوجه الى المدينة تنفيذاً لأوامر الخليفة ، وظل أبو عبيدة واليا على سوريا كلها[1] .

كانت دمشق من بين المدن التى استردها العرب بعد انتصارهم فى اليرموك . وكان خالد قد فتحها فى أول الأمر صلحاً ، ثم اضطر العرب الى الرحيل عنها ، فاستعاد الروم سلطانهم عليها ، غير أنهم لم يبقوا بها طويلا ، فقد عادت الى قبضة العرب سنة ١٥ هـ[2]، ومن ثم أصبح لهم حق التصرف فى أرضها[3] .

صالح أبو عبيدة أهل دمشق على أداء الجزية والخراج وتقديم قدر من الطعام لمؤونة المسلمين ، كما التزموا بإضافة من يمر بهم من المسلمين ثلاثة أيام من أواسط ما يأكلون ولا يحدثوا فى دمشق ولا فيما حولها كنيسة أو ديرا ولا يجددوا ما خرب من كنائسهم مما كان فى خطط المسلمين ولا يأوون فى منازلهم جاسوسا ولا يكتموا على من غش المسلمين[4]

كان أبو عبيدة بن الجراح قد قرر على كل ذمى فى دمشق جزية قدرها دينارا واحدا تؤدى فى كل سنة يضاف إلى ذلك جريب حنطة وقدر من الخل والزيت لمؤونة المسلمين تؤدى فى كل شهر ، ثم كتب عمر بن الخطاب اليه يأمره بأن يجعل الجزية على قدر الطاقة، فتؤدى الطبقة العليا أربعة دنانير

---

(١) Muir : The Caliphate, P. 130

(٢) Muir : The Caliphate, P. 136

(٣) محمد جمال الدين سرور الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ص٤٦

(٤) ابن عساكر التاريخ الكبير جـ ١ ص

والطبقة الوسطى دينارين والطبقة الدنيا دينارا واحدا، يضاف إلى ذلك(١) جريب حنطة وثلاثة أقساط زيت وقدر من العسل والخل يؤديها شهريا كل من يؤدى الجزية (٢).

وترك أبو عبيدة أرض دمشق وقراها الزراعية بأيدى أهلها يزرعونها ويؤدون خراجا عنها. ولما قدم عمر بن الخطاب على الجابية سنة ١٨ هـ رفض تقسيم هـــذه الأرض بين الفاتحين وأبقاها بأيدى أهلها على أن يؤدوا خراجها (٣).

واختط أبو عبيدة بن الجراح فى دمشق مسجدا صغيرا عقب فتحها (٤) وترك لأهل الذمة خمس عشرة كنيسة يؤدون فيها شعائرهم الدينية. (٥).

عين عمر بن الخطاب يزيد بن أبى سفيان أميرا على دمشق بعد وفاة أبى عبيدة بن الجراح، ولما توفى سنة ١٨ هـ ضم عمر بن الخطاب إلى معاوية بن أبى سفيان - الذى كان يلى الأردن - ولاية دمشق، وأقر عثمان بن عفان ولايته عليها، ثم ضم اليه فلسطين وحمص وقنسرين وجمع له الأجناد كلها، وبذلك أصبح واليا على جميع بلاد الشام لسنتين من خلافة عثمان (٦) ومما لاشك فيه أن عثمان بن عفان باطلاقه يد معاوية فى هذه الولاية مهد لسبيل نقل الخلافة إلى أسرة أبى سفيان وتثبيتها فى البيت الأموى (٧).

كان معاوية يرى نقل حاضرة الخلافة إلى دمشق حين وفد إلى عثمان سنة ٣٤ هـ، وايقن أن هناك خطرا يواجه الخليفة، فقال له: «ياأمير المؤمنين

---

(١) المد: ربع الصاع، والصاع مكيال لأهل المدينة (الكرملى: النقود العربية ص ٣٩).

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٣٠ — ١٣١

(٣) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٥٨

(٤) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسى جـ١ ص ٢٥٠

(٥) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٣٠

(٦) ابن الأثير: الكامل فى التاريخ جـ٣ ص ٤٤ — ٤٥

(٧) محمد جمال الدين سرور: الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ص ٥٩

انطلق معى إلى الشام قبل أن يهجم عليك من لاقبل لك به ، فأن أهل الشام على الأمر لم يزالوا » ، لكن عثمان أبى الا أن يظل فى المدينة (١) .

ولما ولى على بن أبى طالب الخلافة، امتنع معاوية عن مبايعته (٢) ، وظل والياً على الشام ، واستطاع معاوية أن يصمد فى نزاعه مع على ، بفضل أخلاص أهل الشام ، فقد أثار التحكيم بعد واقعة صفين الفرقة بين صفوف جيش علىّ ، على حين جنى معاوية بعد هذه الواقعة ثمار جهوده فى إقليم الشام ، وبقاء أهله على الطاعة والولاء له ، إذ لم تلبث الأحداث أن هيأت الجو لمعاويه تماماً حين انتهت حياة علىّ بن أبى طالب ونزل الحسن ابن على سنة ٤١ هـ عن الخلافة لمعاوية (٣) .

وهكذا تحققت أطماع معاوية ، فاستقرت له الخلافة وأصبح صاحب السلطان المطلق فى كافة أنحاء الدولة العربية الإسلامية واتخذ دمشق حاضرة لخلافته بعد أن كانت حاضرة ولاية الشام وحدها ، فانتقلت إليها سياسة الملك (٤) . وحرص معاوية منذ توليته الخلافة على ألا تعيش القبائل العربية فى الشام فى معزل عن أهلها الأصليين ، وبذلك استطاع أن يكون آمناً فى حاضرة دولته ، ونقل بيت مال الدولة من الكوفه إلى دمشق ، وزاد فى عطاء أهل الشام ، فأطاعوه وظلت دمشق محتفظة بمكانتها كحاضرة للمسلمين طوال العهد الأموى (٥) .

أدرك العرب منذ أن فتحوا دمشق أن تأمين الناس على أنفسهم وأموالهم أول ما يجب أن يكفل للمحكومين ، وقد جاء ذلك فى كتاب خالد بن الوليد إلى أهل دمشق ، فعاشوا فى كنف ولاة المسلمين فى أمن وطمأنينة ، وقام

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٤ ص٣٤٥
(٢) الدينورى : الأخبار الطوال ص٢٢٠
(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص٢٢٠
(٤) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص١٢٦
(٥) محمد جمال الدين سرور : الحياة السياسية فى الدولة العربية الإسلامية ص٩٤

العرب بحماية الأهالى فى مقابل دفع مبلغ معين يؤديه كل فرد قادر على القتال يسمى الجزية وكانوا يعفون من أدائها إذا اعتنقوا الإسلام، كما ترك العرب لأهل دمشق الأرض يزرعونها على أن يؤدوا خراجا عنها (١).

كان لانتصار الجيوش العربية على الروم فى بلاد الشام وما تبع ذلك من فتح دمشق أكبر الأثر فى أحياء الصلات القديمة التى كانت تربط بين العرب المقيمين فى دمشق وبين العرب الفاتحين، وساعدت وحدة الجنس ووحدة اللغة على أندماج الفريقين، كما أدى الاتصال الاجتماعى بينهما إلى تكوين مجتمع جديد فى دمشق.

كان طبيعياً الا يتخذ هذا المجتمع الجديد شكله النهائى فى بضع سنوات، ذلك لأن العرب غادروا أرضهم إلى أرض جديدة وواجهوا فى دمشق أقواما يختلفون عنهم فى اللغة والدين والتقاليد، وكان لابد لهذا المجتمع الجديد فى دمشق وهو فى دور التكوين أن يتخذ صورا وأشكالا متعددة قبل أن يتخذ صورته النهائية نتيجة لاختلاط عناصر ذات لغات وأديان وتقاليد مختلفة (٢).

كانت اللغة العربية منتشرة فى دمشق قبل الفتح العربى فقد نشرها العرب الذين كانوا يدينون بالوثنية، ثم العرب الذين دخلوا فى المسيحية بعدهم. ولما فتح العرب المسلمون دمشق، وهاجرت بعض القبائل العربية اليها زادت العربية انتشارا ورسوخا فى هذه المدينة، واضطر أهلها من غير العرب إلى تعلم العربية لأنها لغة الحاكمين. (٣).

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية فى دمشق أنها لغة الدين الجديد كما

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص٢٣
(٢) فيصل شكرى: المجتمعات الإسلامية فى القرن الأول الهجرى ص٩٧
(٣) فيصل شكرى: المجتمعات الإسلامية ص٤٧ — ٤٩
(٤) كرد على: الإسلام والحضارة العربية ج١ ص١٢٢

أن العرب سعوا إلى جعل اللغة العربية لغة دين وأدب وثقافة . ولم يحارب العرب اللغة اليونانية — لغة السواد الأعظم من سكان دمشق ـ بل ساروا في نشر لغتهم سيرا حثيثا (١) .

يعلل أبن خلدون (٢) انتشار اللغة العربية في البلاد التي فتحها المسلمون بقوله: «لما هجر الدين اللغات الأعجمية وكان لسان الفاتحين بالدولة الإسلامية عربيا هجرت كلها في جميع ممالكها لأن الناس تبع السلطان وعلى دينه ، فصار استعمال اللسان العربي من شعائر الإسلام وطاعة العرب ، وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لغة في جميع أمصارهم ومدنهم ، وصارت الألسنة الأعجمية دخيله فيها وغريبة » .

كان من عوامل انتشار اللغة العربية في دمشق تعريب الدواوين الذي بدأ في عهد عبـــد الملك بن مروان فقد ظلت الدواوين في دمشق تكتب باليونانية ـ لغة أهلها ـ حتى شرع عبد الملك في صبغ الدولة بصبغة عربية بعد أن أستقرت الأمور فيها ، ، وأتسمت خبرة العرب الذين « انتقلوا من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة، ومن سذاجة الأمية إلى حزق الكتابة (٣) . وجاء ذلك تأكيدا لسيادة الدولة العربية التي سار عليها بنو أمية .

يذكر الجهشياري (٤) أنه من الأسباب التي حملت الخليفة عبد الملك على تعريب الدواوين أن سرجون بن منصور الرومي - الذي كان يتقلد ديوان دمشق في عهد عبد الملك ـ أمره الخليفة يوما بشيء فتثاقل فيه وتوانى عنه ، فعاد لطلبه مرة أخرى ، فرأى تفريطا وتقصيرا ، فقال عبد الملك لأبي ثابت سليمان بن سعد الخشني ـ وكان يتقلد ديوان الرسائل — أما ترى إذلال سرجون علينا ، وأحسبه قد رأى أن ضرورتنا اليه وإلى صناعته ، أفما عندك

(١) كرد علي : الإسلام والحضارة العربية جا ص١٧٢
(٢) العبر وديوان المبتدأ والخبر : ج١ ص٣٦ (ط . التقدم القاهرة ٣٢٢ هـ) .
(٣) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جا ص٢٠٣
(٤) كتاب الوزراء والكتاب : ص٤٠

حيلة ؟ قال : لو شئت لحولته إلى العربية ، قال له : فافعل ، وقلده عبد الملك جميع داووين الشام .

بينما يذكر البلاذري (١) سببا آخر لتعريب الدواوين فيقول : ظلت دواوين دمشق تكتب باليونانية حتى ولى عبد الملك بن مروان الخلافة ، فلما كانت سنة ٨١ هـ أمر بنقل الدواوين إلى العربية ، ذلك أن رجلا من كتاب الروم احتاج مداداً ليكتب به ، فلم يجد ، فسلك مسلكا مشينا أغضب عبد الملك فأمر عبد الملك سليمان بن سعد بنقل الدواوين إلى العربية ، وكافأه فى مقابل ذلك بخراج الأردن سنة .

كان نقل الدواوين إلى العربية بطيئاً ، وقد شرع فيه فى أيام عبد الملك ، واستمر حتى عهد الوليد(٢) ، ومن المرجح أن يكون هذا هو السبب الذى حدا ببعض المؤرخين أن ينسبوا نقل الدواوين إلى عبد الملك(٣) ، بينما ينسبه آخرون إلى الوليد(٤) .

ساعد تعريب الدواوين على ذيوع اللغة العربية وانتشارها ، فقد أقبل الكتاب من غير العرب على تعلم اللغة العربية حتى يستمروا فى عملهم بالدواوين . فأصبحت اللغة العربية لغة التدوين والإدارة والسياسة فضلا عن كونها لغة الدين والأدب ، والثقافة(٥) .

انتشر الاسلام بين عرب الشام الذين يقطنون فى دمشق ونواحيها بعد أن توطدت العلاقات بينهم وبين العرب القادمين من الجزيرة العربية ، وحين وفد عمر بن الخطاب إلى الجابية سنة ١٨ هـ ، كانت لخم وجذام قد دخلت

---

(١) كتاب فتوح البلدان : ص ٢١٠ .

(٢) Hitti : History of the Arabs, P. 117

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٤

(٤) تاريخ ابن الوردى : جـ١ ص ١٩٥

(٥) كرد على : الإسلام والحضارة العربية جـ١ ص ١٢٢

فى الاسلام(١) ومن القبائل التى اعتنقت الاسلام بعد الفتح العربى لمدينة دمشق قبيله غسان وقبيلة بنى كلب(٢) . وكان انتشار الاسلام بين القبائل المسيحيةالتى تقيم فى منطقةدمشق أكثرمن إنتشاره بين سكان هذه المدينة(٣) .

ومن العوامل التى ساعدت على إنتشار الاسلام فى دمشق وفود نفر قليل من الصحابة والتابعين إلى هذه المدينة وإقامتهم بها وحماستهم لهداية الناس إلى الدين الحنيف(٤) .

كما كان للإنتصارات الرائعة التى أحرزها العرب فى بلاد الشام أثر كبير فى جعل المسيحيين يعتقدون أن هذه الانتصارات إنما تمت بعون من الله وأن نجاح المسلمين دليل على صدق دينهم(٥) .

كما أدى تدهور حال الكنيسة الشرقية من الناحيتين الخلقية والروحية إلى دخول كثير من أهل دمشق دين الإسلام(٦)، إذ كانت الأحزاب الدينية تناوىء وتضطهد بعضها بعضاً ، مما كان له تأثير كبير فى زعزعة أسس العقيدة الدينية عند المسيحيين ،فلم تعد المسيحية الشرقية — التى مزقتها الإنقسامات الداخلية وزعزعت أسسها ودخل اليأس فى نفوس أهلها بسبب هذه الشكوك — قادرة على مقاومة هذا الدين الجديد الذى قدم مزايا مادية جليلة فضلا عن مبادئه الواضحة البسيطة التى لا تقبل الجدل .

وكانت المسيحية فى الشام قد تأثرت بالثقافة اليونانية فتحولت إلى عقيدة محفوفه بمذاهب معقدة مليئة بالشكوك ، وكانت الطبقات العليا يشيع فيها الفساد ، والوسطى مثقلة بالضرائب ، ولم يكن للأرقاء أمل فى حاضرهم

---

(١) ابن عساكر : التاريخ الكبير ج١ ص٢٧٢
(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٤٧ — ٤٨
(٣) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص١٢٧
(٤) الدورى : مقدمة فى صدر الإسلام ص٧٩
(٥) أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص٦٩ — ٧٠
(٦) أرنولد : الدعوة إلى الاسلام ص٦٩ — ٧٠

أو مستقبلهم ، فأزال الإسلام هذه المفاسد والخرافات ، ودعا الناس إلى فعل الخير ونبذ الرذائل وأحل الشجاعة محل الرهبنة ، وآخى بين المؤمنين، ووهب الناس إدراكاً للحقائق الأساسية التى تقــــوم عليها الطبيعة البشرية(١) .

وعلى الرغم من أن تعصب العرب لبنى جنسهم قد أدى فى بادىء الأمر إلى عدم تمتع المسلمين الجدد بالمزايا التى كان يتمتع بها العرب ، فإنهم قد حصلوا على مكانة مرموقة فى المجتمع وهم على ولائهم للقبائل العربية التى كانوا قد تعودوا فى بادىء الأمر الانضواء تحت لوائها . وفى نهاية القرن الأول الهجرى كان المسلمون من غير العرب يتمتعون بنفس المزايا التى كان يتمتع بها العرب(٢) .

عين الخليفة عمر بن الخطاب فى مدينة دمشق رجالا عهد إليهم تعليم الذين دخلوا فى الإسلام حديثاً القرآن وتفقيههم فى الدين ، حتى يستطيع المسلمون الجدد أداء شعائرهم الدينية أداءاً سليماً والالمام بقواعد الدين الجديد(٣) .

وكان دخول أهل دمشق فى الاسلام عن إختيار وإرادة حرة(٤) . ويدل كتاب الأمان الذى أعطاه خالد بن الوليد لهم سنة ١٥ هـ على أن العرب لم يحاولوا نشر الأسلام فى دمشق بحد السيف ، كذلك كفل العرب لأهل الذمة الحرية الدينية ، وسمحوا لهم بأن يؤدوا شعائرهم وفق مذهبهم اليعقوبى أو النسطورى (٥) .

---

(١) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٦٩
(٢) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٦٩
(٣) نفس المصدر: ص٥٠ــ٥١
(٤) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص١٢٧
(٥) أرنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٥٤

٢ ـ خطط دمشق وتطورها

فى عهد الراشدين والأمويين

تتمتع دمشق بمركز جغرافى فريد فى نوعه ، إذ تقع فى مركز متوسط بين الشرق والغرب كما أنها نقطة يلتقى بها الطريق الذى يخترق سورية من الشمال إلى الجنوب بنهر بردى الذى يجرى من الشرق إلى الغرب(١) . وقد أدرك الإمبراطور البيزنطى يوليان (Julian) (٣٦١ — ٣٦٣ م) أهمية موقعها فكان يسميها « عين الامبراطورية فى سائر أقليم الشرق »(٢) . وقد وصفها الخليفة عمر بن الخطاب فى كتاب بعث به إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح بأنها « حصن الشام وبيت مملكتهم »(٣) .

أفاض الرحالة العرب فى وصف مدينة دمشق ، فذكر اليعقوبى (٤) أنها « مدينة الشام فى الجاهلية والإسلام وليس لها نظير فى جميع مدن الشام » ، كما ذكر ابن جبير (٥) أنها « جنة الشرق ... وهى خاتمة بلاد الإسلام التى استقر يناها وعروس المدن التى اجتليناها ... قد أحدقت البساتين بها إحداق الهالة للقمر ، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهر ، وامتدت بشرقيها غوطتها الخضراء على امتداد للبصر » . وذكر ياقوت أنها(٦) جنة الأرض لحسن عمارة ونضارة بقعة وكثرة فاكهة ونزاهة رقعة » .

شيد الرومان إبان حكمهم لمدينة دمشق (١٠٥ — ٣٩٥ م) سوراً لها جرياً على سياستهم فى تحصين المدن . وكان هذا السور مستطيلا يبلغ ارتفاعه عشرين قدماً تقريباً ، وسمكه خمسة عشر قدماً ، وتوازى جوانبه شوارع

---

(١) Charlesworth : Trade Routes of the Roman Empire, P. 38.

(٢) Kremer : Orient under the Caliphs, P. 139

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك جـ٣ ص٤٣٧

(٤) كتاب البلدان : ص٣٢

(٥) رحلة ابن جبير : ص٢٤٨ — ٢٤٩

(٦) معجم البلدان : جـ٢ ص١٦٤

المدينة المستقيمة عدا جانبه الشمالى الذى كان يحاذى نهر بردى(١).

كان يعلو أسوار دمشق أبراج بارزة مربعة الشكل يبعد كل برج عن الآخر مسافة قدرها خمسين قدماً تقريباً ، وتيسر هذه الأبراج للمدافعين وبخاصة الرماة سبل الدفاع عن المدينة . وكان يوجد فى عدة مواضع من السور بعض الأبنية الصغيرة وبيوت للسكنى يقيم بها أفراد الحامية التى يعهد إليها بحراسة المدينة وأسوارها(٢) .

كانت أسوار دمشق مبنية بالحجارة الضخمة التى لا يزعزها شىء ، وكان يصعب اقتحامها وهدمها للدخول منها على الرغم مما تعرضت له فيما سلف من هجمات الفرس أو البيزنطيين . ولم يستطع العرب أثناء محاولتهم فتح دمشق اجتيازها إلا بعد لأى وعناء(٣) .

وظلت هذه الأسوار تحمى المدينة طوال عهد الراشدين والأمويين الذين حافظوا عليها . وذكر البلاذرى(٤) أن أسوار دمشق استمرت قائمة حتى هدمها عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس بعد زوال العهد الأموى . بينما يذكر ابن كثير الدمشقى(٥) أنها هدمت سنة ١٢٧ هـ حين أرسل مروان بن محمد جيشاً إلى دمشق لإخماد ثورة أهلها .

كان لمدينة دمشق قبل الفتح العربى سبعة أبواب رئيسية صفحت بالحديد لصد غارات الأعداء . ولما كان الجانب الشمالى من المدينة أكثر جهاتها تحصيناً لوجود النهر حوله لذلك أنشىء به ثلاثة أبواب فقط(٦) . وأبواب دمشق هى :

---

(١) Kremer ; Orient under the Caliphs, P. 141

(٢) Kremer : Orient under the Caliphs, P. 141

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٢٧

(٤) فتوح البلدان : ص ١٣٢

(٥) البداية والنهاية : جـ ١٠ ص ٢٣ — ٢٤

(٦) Kremer : Orient under the Caliphs, P. 141

١ — الباب الشرقى : وسمى بذلك لوقوعه شرق المدينة ، وقد شيد هذا الباب إبان الحكم الرومانى فى مستهل القرن الثالث الميلادى ، وكان يتألف من ثلاثة أبواب الأوسط منها كبيرة أحجاره مصقولة ، وكان يوجد على جانبيه بابان صغيران ، وكان الجند وقوافل الجمال ودواب الحمل تمر من الباب الأوسط ، أما البابان الآخران فكانا يستعملان لمرور الناس، أحدهما للدخول والآخر للخروج(١) . وقد نزل خالد بن الوليد بهذا الباب أثناء حصار العرب لمدينة دمشق(٢).

٢ — باب توما : وينسب إلى توما حاكم دمشق قبيل الفتح العربى .وكان هذا الباب يقع شمال دمشق(٣) ، ونزل به عمرو بن العاص أثناء حصار العرب لمدينة دمشق(٤) .

٣ — باب السلامة : ويقع فى شمال دمشق وسمى بذلك تفاؤلا ، لأنه ليس من السهولة الهجوم على المدينة من ناحيته لما دونه من الأنهار والأشجار (٥) .

٤ — باب الفراديس : يقع فى شمال دمشق وهو عبارة عن باب ضخم مستطيل ، وينسب إلى قرية تسمى الفراديس(٦) .

٥ — الباب الصغير : وسمى بذلك لأنه أصغر أبواب دمشق ويقع جنوبها(٧) ، وقد دخل يزيد بن أبى سفيان دمشق من هذا الباب(٨) .

---

(١) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص٢٦٢
(٢) ابن بطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جـ٢ ص١٥
(٣) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص٢٦٢
(٤) ابن كثير الدمشقى ، البداية والنهاية جـ٧ ص٢٠
(٥) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص٢٦٢
(٦) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص٢٦٢
(٧) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص٢٦٢
(٨) ابن كثير ، البداية والنهاية جـ٧ ص٢٠

٦) باب كيسان : ويقع جنوب الباب الصغير وينسب إلى كيسان مولى معاوية بن أبي سفيان ، وكان يسمى باب يونس قبل الفتح العربي(١) .

٧) باب الجابية : ويقع غرب دمشق وسمي بذلك نسبة إلى قرية الجابية. وكان يتألف من ثلاثة أبواب ، الأوسط منها كبير وعن جانبيه بابان صغيران ، وبناؤه بالحجارة الضخمة ، وكان يخرج من الأبواب الثلاثة ، ثلاثة طرق إلى الباب الشرقي - الأوسط وكان يستعمل لمرور الناس ، والآخران لمرور الركبان(٢) ، وقد نزل على هذا الباب أبو عبيدة عامر بن الجراح أثناء حصار العرب لدمشق(٣) .

لم تتغير المعالم الرئيسية لمدينة دمشق بعد الفتح العربي عما كانت عليه في العصر الروماني ، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى وقوعها عند نقطة يلتقي بها الطريق الذي يخترق قلب سورية من الشمال إلى الجنوب ويعبر نهر بردى الذي يجري من الشرق إلى الغرب ، ومن ثم انتظمت على هذا النحو طرقات المدينة(٤) .

كانت دمشق عبارة عن مدينة مستطيلة الشكل(٥) ، تمتد على ضفة نهر بردى اليمنى جنوباً ، وكان يوجد في الركن الشمالي الغربي من المدينة قلعة حصينة زالت ، وظل مكانها شاغراً ، وقد توالت هجرات القبائل العربية إلى مدينة دمشق عقب الفتح العربي سنة ١٥ هـ (٦٣٦ م) أقام بعضها في المنطقة المجاورة لدمشق ، مما أدى إلى اتساع مساحة هذه المدينة وكثرة

---

(١) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص٢٦٣

(٢) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص٢٦٢ - ٢٦٣

(٣) ابن البطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق جـ٢ ص١٥

(٤) Ency: of Islam : Art Damascus.

كان الشارع الرئيسي في دمشق يسمى « المستقيم » وكان طوله ١٦٠٠ متر ويمتد من شرق المدينة إلى غربها ويضم على جانبيه ممران أحدهما للمشاة والآخر للركبان .

Muir : The Caliphate, P. 99

(٥) رحلة ابن جبير ، ص٢٧١

أحيائها ، واتخذت القبائل التي لم تستقر في دمشق منازل لها في ظاهرها حتى أصبحت هذه المنازل أشبه بقرى متصلة بعضها ببعض ، وترتب على ذلك اتصال العمران من مدينة دمشق حتى القرى المحيطة بها(١). كذلك أدت كثرة المهاجرين من العرب إلى هذه المدينة إلى زيادة عدد دورها ، وكان لذلك تأثير كبير على شوارعها المنسقة المتوازية، ففقدت كثيراً من طابعها(٢)

استقر العرب عقب فتحهم دمشق في بادىء الأمر في الطرف الشمالي من المدينة ، وأقاموا في الدور التي هجرها الروم وبعض سكان دمشق عقب الفتح بالقرب من نهر بردى(٣). وأقام بعض الصحابة في دور على مقربة من باب توما(٤) شمال دمشق . ثم أنشأ العرب خططهم فيما بعد في الجهة الغربية من دمشق . واتخذ معاوية قصره (الخضراء) مجاوراً لخطط أصهاره بني كلب ، واتخذ بنو أمية دوراً مجاورة لقصر الخضراء(٥). أما المسيحيون واليهود فاستقر مقامهم في الجهة الشرقية من دمشق(٦) .

لما نزل العرب دمشق احتفظوا بعاداتهم القبلية ، وتجمعوا في المدينة حسب تقسيمهم القبلي ، فكان لكل قبيلة خطة أو درب أو حي خاص بها يضم منازلها وأسواقها ومساجدها ومنازلها ، وكان أهل دمشق يسمون هذه الأحياء أو الخطط دروبا — وكان يفصل كل درب عن الآخر سور ضمن

---

(١) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص٢٤٣ — ٢٤٤

(٢) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص٢٤٣ — ٢٤٤

يذكر البلاذري أن الناس لما اجتمعوا لتشييع جنازة عبد الملك بن مروان وجد الوليد ابن عبد الملك أنهم لا يستطيعون السير في الجنازة بسبب بيت يعترض الطريق ، فأمر بهدمه . (أنساب الأشراف جـ١١ ص٣١٥) .

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق جـ١ ص٥٩٧

(٤) العيني ، عقد الجمان القسم الثالث جـ١٠ ورقة ٣٨٣

(٥) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص٢٤٣

فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ص١٢٧

(٦) نعمان القساطلي : الروضة الغناء في دمشق الفيحاء ص٧٣

الأسوار القائمة حول المدينة ، ومن ثم تحولت هذه الدروب إلى مدن صغيرة مسورة داخل دمشق ، وكانت أبواب هذه الدروب تغلق عند نشوب الفتن والاضطرابات الداخلية ، فتنقطع بإغلاقها المواصلات بين دروب المدينة(١) .

لم يتوسع معاوية بن أبى سفيان فى تجميل مدينة دمشق بالعمائر ، وإنما قصر اهتمامه على بناء قصره الذى عرف بالخضراء ، كما أن يزيد بن معاوية لم يبذل جهداً فى تحسين المدينة وتجميلها(٢) .

ولما انتقلت الخلافة إلى الفرع المروانى من بنى أمية تجلت الرغبة فى العناية بدمشق على اعتبار أنها عاصمة الأمويين ، ومن ثم كثرت بها العمائر كما أنشأ الخلفاء بها الحصون المنيعة والقلاع ذات القباب البيضاء والقصور والجوامع الفخمة ، وظهرت دمشق فى عهد الوليد بن عبد الملك فى أجمل مظهر ، بما شيده فيها من منشآت وعمائر بديعة(٣) ، فقد كان الوليد مولعاً بالعمائر ، حتى أن الناس كانوا يلتقون فى أيامه ، فيسأل بعضهم بعضا عن الأبنية والعمارات(٤) .

لم يبذل الخلفاء المتأخرون من بنى أمية جهوداً كبيرة لتجميل مدينة دمشق بل إن بعضهم لم يتخذ دمشق مقراً له ، فأقام سليمان بن عبد الملك فى مدينة الرملة (٥) ، على حين أقام هشام بن عبد الملك فى الرصافة (٦) ، وكان بعض الخلفاء الأمويين يقضى شطراً كبيراً من السنة فى قصورهم

---

(١) سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ص١٦٥

(٢) Ency. of Islam : Art Damascus

(٣) سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ص٢٦٧

(٤) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص٩٢

(٥) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص١٢٩

(٦) تاريخ اليعقوبى ، جـ٣ ص٣٧

بالبادية[١] . ومما لا شك فيه أن ترك الأمويين دمشق إلى الصحراء أدى إلى زوال مكانة هذه المدينة[٢] .

كان أهم شيء يميز المدينة الإسلامية — المسجد الجامع — فإنشاؤه يظهر طابعها الإسلامي ، وقد أمر عمر بن الخطاب حين قدم إلى الشام سنة ١٨ هـ ألا يتخذ في المدينة سوى مسجد جامع واحد ، وأراد عمر بذلك المسجد الذي تقام فيه الجمعة ، ولم ينه عن اتخاذ المساجد التي لا تقام فيها الجمعة[٣] .

اكتفى العرب بعد فتح دمشق بمسجد متواضع كان يوجد إلى جوار كنيسة القديس يحنا ، وتركوا الكنيسة كلها للنصارى يؤدون فيها شعائرهم الدينية ، أما القول بأن[٤] العرب استولوا عقب الفتح مباشرة على نصف الكنيسة لاقامة شعائرهم الدينية ، وتركوا النصف الآخر للنصارى مكافأة لهم على استسلامهم ، وأن المسلمين والنصارى كانوا يدخلون من باب واحد هو باب الكنيسة القبلي ، فيأخذ المسلمون يمينهم إلى القسم المخصص لهم ، على حين ينصرف النصارى إلى جهة الغرب لأداء شعائرهم الدينية فهذه كلها روايات متأخرة وغير صحيحة[٥] .

كان المسجد القديم بدمشق يجاور قصر الخضراء[٦] وكنيسة القديس يحنا، يؤيد ذلك ما كتبه الأسقف الغالي أركولف (Arculf) الذي زار

---

(١) Hitti : History of the Arabs, P. 277

(٢) Ency, of Islam. Art Damascus.

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق جـ١ ص٢٢٠

(٤) ابن كثير ، البداية والنهاية جـ٩ ص١٤٤ — ١٤٥

(٥) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية جـ١ ص١٧٠

(٦) ذكر المسعودي أن معاوية كان ينفذ من قصره مباشرة إلى المسجد في كل صلاة (مروج الذهب جـ٢ ص٥٠ — ٥٣) .

ومما يدل على أن المسجد القديم كان مجاورا الخضراء أن هشام بن إسماعيل المخزومي قدم دمشق ، وجلس بعد الصبح في مسجدها ، فسمع عبد الملك بن مروان يقرأ القرآن في الخضراء . (ابن كثير الدمشقي البداية والنهاية جـ٩ ص١٠٩) .

الشام فى خلافة معاوية إذ قال : كان فى دمشق كنيسة عظيمة بنيت لتمجيد القديس يحنا المعمدان وهناك أيضاً بيت يؤدى العرب فيه شعائرهم الدينية[١] .

وتوضح الروايات العربية التى تصف الحوادث التى وقعت بعد ذلك أن المسجد القديم كان منفصلا تمام الانفصال عن الكنيسة ، وأن قصر الخضراء كان مجاوراً لهما .

كان يوجد فى دمشق سقيفة مستطيلة ذات عمد تسمى جيرون[٢]، يرجع تاريخها إلى العصر الرومانى، وكان الباب الشرقى للمسجد الجديد الذى شيده الوليد بن عبد الملك ينسب إليها ، واستعملت قطع من تلك السقيفة فى بناء المسجد الجديد[٣] .

ومن المرجح أن جيرون هو المسجد القديم[٤] ، وليس أدل على ذلك مما أورده الطبرى[٥]، فقد ذكر أن اليوم الذى اجتمع فيه المسلمون لاختيار خليفة جديد عقب وفاة معاوية الثانى سنة ٦٤ هـ عرف باسم يوم جيرون نسبة للمسجد الذى اختير فيه الخليفة .

حاول معاوية بن أبى سفيان بعد أن ازداد عدد المسلمين فى دمشق توسيع بناء المسجد الذى ضاق بالمصلين ، فطلب من نصارى دمشق النزول عن كنيسة القديس يحنا ، فرفضوا إجابة طلبه[٦] ، وظل المسجد على حاله حتى آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ هـ. فعاد يطلب من نصارى

---

(١) Sayed Ameer Ali : A Short History of the Saracens, P. 159

(٢) ابن كثير ، البداية والنهاية جـ٩ ص١٤٣

(٣) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية جـ١ ص١٧٢

(٤) Ency. of Islam ; Art Damascus

(٥) تاريخ الأمم والملوك جـ٥ ص٥٣٤

(٦) البلاذرى ، فتوح البلدان ص١٣١

دمشق النزول عن هذه الكنيسة ، فأتوا إليه بكتاب خالد بن الوليد الذى تضمن أن كنائسهم لا تهدم ولا تسكن ، فعرض عليهم عبد الملك مالا كثيراً ليبنوا كنيسة مثلها فى أى موضع يختارونه بدمشق ، فأبوا أن يسلموها إليه (١) .

ولما ولى الوليد بن عبد الملك الخلافة سنة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) وجد أن المسلمين فى دمشق فى أشد الحاجة إلى مسجد كبير بعد أن أصبح المسجد الأموى بدمشق لا يتسع للمصلين ، فجمع زعماء النصارى فى هذه المدينة وعرض عليهم رغبته فى إدماج كنيسة يحنا فى المسجد،وأبدى لهم استعداده فى أن يعوضهم عنها بكنيسة أخرى فى أى موضع شاءوا بدمشق أو يدفع لهم تعويضاً مالياً عنها ، وبذل لهم أربعين ألف دينار فأبوا ، فقال لهم الوليد: لئن لم تفعلوا لأهدمنها ، فقال بعضهم : يا أمير المؤمنين إن من هدم كنيستنا جن وأصابته عاهة ، فخرج الوليد ، ومعه معول ، فقال : أنا أول من يجن فى الله ، وبدأ الهدم بمعوله ، وتبعه العمال ، وأكملوا هدمها (٢) .

شرع الوليد بن عبد الملك فى إعادة بناء مسجد دمشق سنة ٨٧ هـ (٣) ، واستمر بناؤه تسع سنين ، لكنه توفى دون أن يتم بناءه فأتمه سليمان ابن عبد الملك سنة ٩٦ هـ (٤) ، ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة طلب منه نصارى دمشق أن يعيد كنيستهم إليهم وقالوا له : يا أمير المؤمنين قد علمت حال كنيستنا ، ورفعوا إليه العهد الذى تضمن أن كنائسهم لا تهدم ولا تسكن . فأمر عمر بن العزيز برد كنيستهم إليهم،فأعظم المسلمون ذلك،

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ص١٣١

(٢) البلاذرى ، فتوح البلدان ص١٣٢

(٣) Creswell, Early Muslim Architecture, Part I, P. 131

(٤) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ج١ ص١٩٩

وقالوا : أترد إليهم مسجدنا وقد أدينا فيه الصلاة وجمعنا فيه ثم يهدم ويعاد كنيسة ؟[١] .

عرض الفقهاء من أهل دمشق على النصارى أن يعطوا جميع كنائس الغوطة التي أخذت عنوة وصارت في أيدي المسلمين — على أن ينزلوا عن كنيسة القديس يحنا ويمتنعوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك[٢] ، وكتب لهم عمر بن عبد العزيز سجلا بأنهم آمنون على كنائسهم بدمشق ، والكنائس والديارات خارجها في الغوطة لا تخرب ، وليس لأحد من المسلمين عليها سلطان وأشهد لهم شهوداً على ذلك[٣] .

كان للمسجد الأموي بدمشق ثلاث مقصورات الأولى مقصورة معاوية ، وتعرف بالمقصورة الصحابية ، بناها وقاية لنفسه من المتآمرين[٤] ، وإلى جانب هذه المقصورة خزانة محلاة بالرسوم فيها المصحف الذي وجهه عثمان بن عفان إلى الشام والمقصورة الثانية فيها منبر الخطبة ومحراب الصلاة ، وفي الجانب الغربي من المسجد توجد مقصورة صغيرة[٥] .

زينت جدران المسجد بالفسيفساء المذهب والملون وغطيت أرضه بالمرمر . أما عمده فكانت من الرخام المختلف الألوان ، ورصع محرابه بالجواهر الثمينة ، ونقش على جدرانه آيات قرآنية[٦] ، وينسب إلى الوليد المئذنة الشمالية المعروفة بمئذنة العروس[٧] ، وكان المسجد يضاء بكثير من القناديل المصنوعة من الذهب والفضة[٨] ، وكتب على حائط المسجد بالذهب : ربنا الله لا نعبد إلا الله ، أمر ببناء هذا المسجد وهدم الكنيسة التي كانت

(١) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ج١ ص٢٠٩

(٢) البلاذري : فتوح البلدان ص١٢٣

(٣) ابن بطريق ، التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ج٢ ص٤٤

(٤) رحلة ابن جبير ، ص٢٥٣

(٥) رحلة ابن جبير ، ص٢٥٣

(٦) رحلة ابن جبير ، ص٢٤٩

(٧) Creswell, Farly Muslim Arthitecture, Part I, P. 120

(٨) ياقوت : معجم البلدان ج٢ ص٤٦٦

فيه ، عبد الله الوليد أمير المؤمنين فى ذى الحجة سنة ٨٧ هـ»[١] .

كان لمسجد دمشق ستة أبواب منها أربعة أبواب رئيسية ، وهى باب الزيادة فى الناحية القبلية من المسجد . وكان قصر معاوية « الخضراء » إلى يسار الخارج منه[٢] . وباب الساعات فى الناحية الشرقية من المسجد . وفى الناحية الغربية باب البريد . وفى الناحية الشمالية باب الناطفيين[٣] .

أكسب المسجد الأموى مدينة دمشق شهرة كبيرة ، وقد أنفق الوليد فى بنائه أموالا كثيرة ، وبلغ من استياء بعض أهالى دمشق من إنفاق هذه الأموال أن قال بعضهم : أينفق فيؤنا فى نقش الخشب وتزويق الحيطان ، ثم كأنه قد حرمنا أعطياتنا ، واعتل علينا بقلة المال ؟ فلما بلغ الوليد ذلك جمع أهل دمشق ، وقال لهم : قد بلغنى مقالتكم وليس الأمر على ما ظننتم ، ألا وأنى أمرت بإحصاء ما فى بيوت أموالكم ، فأصبت فيه عطاءكم ست عشرة سنة مستقبلة من يومى هذا [٤] .

وفى الحق يعد مسجد دمشق آية من آيات الفن العربى والبيزنطى ، وأن فى هذا الوصف الذى ذكره ياقوت[٥] لمثلا حيا وبرهانا ناطقا على ما بلغه هذا المسجد من إتقان وبهاء هو جامع المحاسن ، كامل الغرائب ، معدود إحدى العجائب ، قد زود بعض فرشه بالرخام ، وألف على أحسن تركيب ونظام ... يكاد يقطر ذهبا ويشتعل لهبا .

اتخذ معاوية بن أبى سفيان قصر الخضراء مقراً له ، ومركزاً لإدارة شئون الحكم ، وكان هذا القصر من المبانى التى شيدت من عصر الرومان

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب جـ٢ ص١٢٠
(٢) رحلة ابن جبير ص٢٥٧
(٣) العمرى ، مسالك الأبصار ص١٨٨
(٤) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص٢٠٥ — ٢٠٦
(٥) معجم البلدان ، جـ٢ ص٤٦٦

لجده معاوية إبان ولايته على الشام فى عهد الخليفة عثمان بن عفان ، وبناه معاوية بالطوب أولا ثم أعاد معاوية بناء الخضراء بالحجارة ، وزينه بالذهب والمرمر والفسيفساء وأحاطه بالحدائق الغناء[١] .

ظل قصر الخضراء مركزاً لإدارة الدولة ، ومقراً للخليفة فى عهد يزيد بن معاوية[٢] وخليفته معاوية الثانى، ولما ولى مروان بن الحكم الخلافة سنة ٦٤ ﻫ تزوج من فاختته بنت أبى هاشم بن عقبه ـ وكانت زوجة ليزيد ابن معاوية ـ فاتخذ الخضراء مقرا له[٣] .

ولما آلت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان سنة ٦٥ ﻫ كانت الخضراء ملكا لخالد بن يزيد بن معاوية ، فاشتراها منه الخليفة بأربعين ألف دينار ، واتخذها داراً للخلافة[٤] .وظلت على هذه الحال فى عهد الوليد بن عبد الملك. فلما ولى سليمان بن عبد الملك الخلافة سنة ٩٦ ﻫ رأى أن يتخذ مقراً آخر له بدلا من الخضراء التى تداعى بناؤها ، فشيد قصراً بدرب محرز فى موضع سقاية جيرون وجعل له قبة صفراء كالقبة الخضراء التى كانت بدار الخلافة، واتخذ سليمان من هذا القصر ـ الذى عرف بالصفراء ـ مقراً له[٥] . وصار هذا القصر داراً للخلافة[٦] . حتى اتخذ هشام بن عبد الملك الرصافة مقراً له بدلا من دمشق[٧] .

اضطربت الأمور فى دمشق بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ ﻫ

---

(١) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ج١ ص٢٤٣

(٢) الذهبى ، تاريخ الإسلام ج٢ ص٣٦٧

(٣) المسعودى ، مروج الذهب ج٢ ص٧٨

(٤) ابن عساكر ، التاريخ الكبير ج١ ص٢٤٨

(٥) الذهبى ، تاريخ الإسلام ج٤ ص٨

الديار بكرى ، تاريخ الخميس ج٢ ص٣١٤

(٦) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ج٥ ص١٩

(٧) المسعودى ، مروج الذهب ج٢ ص١٢٩

وتولية الوليد بن يزيد الخلافة الذى قضى معظم أيام خلافته فى البادية ، وبقى فى الخلافة سنة وشهرين ، ثم قتل لسوء سيرته سنة ١٢٦ هـ[١] وخلفه يزيد بن الوليد الذى توفى بعد خمسة أشهر ، وبويع أخوه إبراهيم، وفى عهده تجلى الاضطراب فى البيت الأموى ، فلم يكن هناك إجماع على توليته، فكان ناس يسلمون عليه بالخلافة وناس بالإمارة وناس لا يسلمون عليه بواحدة منهما[٢] ، وانتهى الأمر بعزله وقتله على يد مروان بن محمد[٣] .

ولما آلت الخلافة إلى مروان بن محمد تعصب للقيسية وطالب اليمنية بدم الوليد بن يزيد ، فثار عليه يزيد بن خالد القسرى بدمشق ، وانضمت إليه اليمنية ، فأرسل مروان إلى دمشق جيشاً أخمد الثورة ، وخلصت له دمشق ، كما قضى على ثورات أخرى قام بها اليمنية فى بلاد الشام[٤] .

ولم يكد يستقر الأمر لمروان بن محمد فى بلاد الشام حتى خرج عليه سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ودعا أهلها إلى خلعه وانضمت إليه اليمنية ، فسار إليه مروان ، وأوقع به الهزيمة[٥] .

ولما كانت أكثر عرب الشام من العنصر اليمنى ، فقد آثر مروان بن محمد أن يتخذ حران حاضرة لدولته بدلا من دمشق حيث كانت تقيم القيسية عماد دولته[٦] . وضعف منذ ذلك الوقت شأن دمشق كحاضرة للخلافة الأموية .

---

(١) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ص١٦٦

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٢٣

(٣) الدينورى : الأخبار الطوال ص٣٣٤

(٤) ابن الأثير الكامل فى التاريخ جـ٥ ص١٥٦

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ص١٥٧

(٦) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ١ ص٣٤١

الباب الثانى

الحالة الاقتصادية فى دمشق

١ — الثروة الزراعية
٢ — مظاهر تقدم الصناعة
٣ — النشاط التجارى
٤ — الإدارة المالية

الباب الثانى

الحالة الاقتصادية فى دمشق

١ — الثروة الزراعية :

اهتم الخلفاء الأمويون بإصلاح وسائل الرى، ويتجلى ذلك مما فعله يزيد بن معاوية فى غوطة دمشق، إذ شق نهراً عرف باسمه، وكان هذا النهر حتى توليته الخلافة مجرى صغيرا قليل المياه يروى ضيعتين فى الغوطة لبعض الناس فى خلافة معاوية بن أبى سفيان، ولما توفوا دون أن يكون لهم وارث استولى معاوية على ضياعهم وأموالهم(١) .

ولما ولى يزيد بن معاوية الخلافة سنة ٦٠ هـ (٦٨٠ م) وجد أرضا واسعة تحيط بهاتين الضيعتين لا تصل إليها المياه، فعول على تسهيل سبل ريها حتى يتيسر استثمارها، فأمر بتوسيع هذا المجرى الصغير وتعميقه، غير أن أهالى دمشق اعترضوا على ذلك خشية أن يتعرض إنتاج أرضهم لبعض الضرر، فضمن لهم يزيد خراج سنتهم من ماله(٢) .

استطاع يزيد بتوسيعه هذا النهر الذى عرف باسمه أن ينظم توزيع مياه دمشق حتى صار ينتفع بها على أحسن وجه(٣) .

وليس أدل على اهتمام الخلفاء الأمويين بتيسير رى أراضى دمشق الزراعية من أن رجلا من غوطة هذه المدينة طلب من سليمان بن عبد الملك أن يمد له قناة من نهر يزيد تجرى إلى أرضه، فوافق سليمان على طلبه(٤) .

---

(١) ابن عساكر : التاريخ الكبير جـ١ ص٢٤٥
(٢) نفس المصدر : جـ١ ص٢٤٥
(٣) نفس المصدر : جـ١ ص٢٤٦
(٤) ابن عساكر : التاريخ الكبير جـ١ ص٢٤٦

وكان لخالد بن عبد الله القسري ضيعة في غوطة دمشق يتعذر ريها ، فسأل هشام بن عبد الملك أن يمد له قناة تجري إليها، فوافق الخليفة على طلبه[١] .

بذل الخلفاء الأمويون جهوداً كبيرة في تنظيم توزيع مياه نهر بردى بما يسر للناس ري أرضهم ، فلما قلت مياه هذا النهر في خلافة سليمان ابن عبد الملك ، حتى أصبح من المتعذر على الناس ري أراضيهم ، أمر الخليفة مولاه عبيده بن أسلم بالبحث عن جهات بها عيون ماء يستعان بها في تحسين مستوى مياه نهر بردى ، لكن هذا المشروع لم يتحقق في حياة سليمان إذ توفي سنة ٩٩ هـ [٢] .

ولما ولي هشام بن عبد الملك الخلافة سنة ١٠٥ هـ شكا الناس إليه قلة مياه نهر بردى ومدى تأثير ذلك على الإنتاج الزراعي ، فعهد إلى القاسم ابن زياد بمواصلة البحث عن عيون مائية جديدة تزود نهر بردى ، وبعد أن تيسر له العثور عليها أمر هشام بتطهيرها وحفر قنوات تجري منها إلى الأراضي الزراعية التي شكا أصحابها من قلة الماء[٣] . « وغدت هذه الأنهار بما ينتفع بها الداني والقاصي وينقسم منها الماء إلى الأرضين في الجداول ، ويدخل من بعدها إلى البلد في الفنى ، فينتفع به الناس الانتفاع العام على الوجه الهنى ، ويتفرق إلى البرك والحامات ، ويجرى في الشوارع والسقايات ، وذلك من المرافق الهنية والمواهب الجزيلة

---

(١) نفس المصدر : جا ص ٢٤٥

(٢) نفس المصدر : جا ص ٢٤٦

(٣) ابن عساكر : التاريخ الكبير جا ص ٢٤٦

زود هشام بن عبد الملك أهل نهر يزيد بست عشرة قناة ، وأهل الثور الكبير بعشر قنوات ، والثور الصغير بخمس قنوات ، ونهر قلية احدى عشره قناة ونهر داعية ثلاثة عشر قناة ، ونهر الولف ثلاث عشرة قناة ونهر التومسة العليا خمس قنوات ، ونهر القومة السفلى أربع قنوات ، وسجل بذلك سجلا سنة ١١٥ هـ . (ابن عساكر : التاريخ الكبير جا ص ٢٤٦) .

السنية والفضيلة العطية(١) » .

كذلك اهتم الخلفاء الأمويون بتشجيع الزراع على تعمير الأرض فقد روى الطبرى(٢) ، أن هشام بن عبد الملك أمر بعض مواليه بزراعة أرض كانت مجدبة فزرعوها ، فأنتجت إنتاجاً حسناً ، ثم أمرهم بزراعتها ثانية ، فلما زرعوها تضاعف إنتاجها ، فكافأهم هشام على ذلك .

ومن أشهر الحاصلات الزراعية فى دمشق الحنطة والشعير والذرة(٣) كما اشتهرت غوطة دمشق بجودة ما يزرع بها من الفواكه ، نخص بالذكر منها التين والليمون والبطيخ والبرقوق والكمثرى والتوت والخوخ والكروم(٤) ، كما كان يزرع بها أجود أنواع التفاح(٥) .

وكانت الكروم على اختلاف أنواعها تزرع شرق قرية عربيل (إحدى قرى دمشق)(٦) كما كان يزرع فى شمال دمشق شجر السفرجل،(٧)، واشتهرت قرية الغور — وهى من قرى دمشق — بزراعة الموز وقصب السكر(٨) ، وكان النارنج يزرع بكثرة على سفح جبل قاسيون(٩) .

كذلك اشتهرت بعض قرى دمشق بزراعة شجر الزيتون ، وكان هشام ابن عبد الملك يأمر المشرفين على بساتينه بالإكثار من زراعته(١٠) ، ويحذر

---

(١) ابن عساكر : التاريخ الكبير ج١ ص٢٤٦ — ٢٤٧

(٢) تاريخ الأمم والملوك ج١٠ ص٧٣٥

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى ج٤ ص٨٦

نعمان القساطلى : الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء ص١١٦

(٤) البدرى الدمشقى : نزهة الأنام فى محاسن الشام ص٢٠١ وما يليها .

(٥) الثعالبى : لطائف المعارف ص١٥٦

(٦) البدرى الدمشقى : نزهة الانام ص٢٢٣

(٧) نفس المصدر ص٢٧٤

(٨) نفس المصدر ص٣٥١ — ٣٥٢

(٩) نفس المصدر ص٣٤٧

(١٠) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص١٢١

زراع الزيتون من جنى ثماره بطريقة تخل بسلامته ، ومما يجدر ذكره أنه رأى ذات يوم الزراع يفرطون الزيتون فقال لهم : « ألقطوه لقطا ولا تنقضوه نقضاً فتفقأ عيونه وتكسر غصونه »(١)

وكان يزرع فى منطقة دمشق أنواع كثيرة من الخضروات والبقول والتوابل(٢) ، كما كان يغرس بدمشق كثير من النباتات ذات الروائح العطرية وبخاصة فى قريتى المزة والسهم(٣) . وكانت مزارع الزعفران تنتشر فى غوطة دمشق(٤) ويزرع القرنفل والبنفسج على سفح جبل قاسيون(٥) .

عنى أهالى دمشق فى عهد الراشدين والأمويين بتربية البقر والجاموس والإبل ، التى كانت تجلب بكثرة من خراسان فى عهد عبد الملك بن مروان(٦) ، كما جلب الجاموس إلى دمشق فى عهد الوليد بن عبد الملك ، وكان محمد بن القاسم الثقفى — عامل الحجاج على السند — قد بعث بكثير منه إلى الحجاج ، وانتشر استخدامه منذ ذلك الوقت فى دمشق(٧) .

٢ — مظاهر تقدم الصناعة

اهتم الخلفاء الأمويين بالعمل على تقدم الصناعة فى مدينة دمشق على اعتبار أنها مورد هام من موارد الثروة ، وكانت هذه المدينة مركزاً لعدد من الصناعات الهامة قبل الفتح العربى وبخاصة صناعة الزجاج والخزف والحرير(٨) .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٩ ص٣٥١

(٢) Hitti : Hist. of Syria' p' 294 — 295

(٣) البدرى الدمشقى : نزهة الأنام ص٣١٧

(٤) الأصفهانى : الأغانى جـ٨ ص٤٤

(٥) البدرى الدمشقى : نزهة الأنام ص٣٤٦

(٦) الشابشتى : كتاب الديارات ص٢٢٧

(٧) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٧٥

(٨) قسطاكى الحمصى : الروضة الغناء ص١٢١ — ١٢٢

وقد تقدمت صناعة الزجاج فى دمشق فى العهد الأموى،ومما ساعد على ذلك وجود الخامات الضرورية لهذه الصناعة على مقربة منها(١) ،حتى أصبح يضرب المثل بالزجاج السورى لرقته وصفائه(٢)، واتخذ صناعها طرازاً خاصاً بهم فى زخرفة الزجاج ، وكانت دمشق فى مستهل القرن الثانى الهجرى تصدر الزجاج المطلى بالميناء إلى الأقطار المجاورة لها(٣) .

كذلك حافظت دمشق على شهرتها فى صناعة الخزف فى العهد الأموى ، وقلد صناعها الخزف اليونانى الأسود ذا البرق المعدنى ، ثم حل مكانه نوع من الخزف الأحمر ذى بريق معدنى أيضا(٤)كما ازدهرت فى هذه المدينة صناعة الزهريات ، وبلغ من انتشار صناعتها أنها أصبحت من مستلزمات منازل أهلها(٥) .

وكانت دمشق فى العهد الأموى من المراكز الهامة لصناعة المنسوجات على اختلاف أنواعها وبخاصة المنسوجات الحريرية التى عرفت بالدمقس(٦). وقد استخدم صناع المنسوجات فى دمشق فى هذا العهد نفس الأساليب الفنية التى كانت معروفة من قبل ، لكنهم نوعوا النماذج الفنية(٧) .

ومما شجع على تقدم صناعة المنسوجات فى دمشق زيادة الطلب عليها ، فضلا عن حرص الخلفاء الأمويين على ارتداء الثياب الفاخرة(٨) .

اتخذ الخلفاء الأمويون الطراز على أثوابهم ، فكانت تنقش أسماؤهم

---

(١) Hitti : Hist. of Syria, p, 276

(٢) الثعالبى : لطائف المعارف ص١٥٧

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج١ ص٢٦٩ — ٢٧٠

(٤) Hitti : Historyofsyria, d279

(٥) Hitti : Histeryofsyria, d,276

(٦) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج٢ ص٢٦٩

(٧) زكى حسن : فنون الإسلام ص٢٤٥

(٨) نفس المصدر : ص٢٤٥

أو علامة مميزة تختص بهم على الأثواب التى يرتدونها ، كما اتخذوا الطراز على ستور منازلهم . وكان الطراز فى بادىء الأمر ينقش باللغة اليونانية وظل الحال على ذلك حتى ولى عبد الملك بن مروان الخلافة ، فأمر بنقل الطراز إلى العربية[١] ، وأنشأ هو وخلفاؤه فى دمشق دور الطراز لنسج أثوابهم وملابس أجنادهم هم ورجال دولتهم وعليها شارة الخليفة وتتضمن اسم الخليفة أو لقبه وإحدى الشهادتين . وكان القائم بالنظر فيها يسمى صاحب الطراز[٢] ، وهو ينظر فى أمور الصياغ والحاكة ، ويشرف على أعمالهم ويجرى عليهم أرزاقهم . وكان لهذه الدور شأن كبير فى دمشق فى العهد الأموى[٣] .

كذلك ازدهرت فى دمشق بعض المصنوعات الحديدية كالسيوف ، ويرجع تاريخ هذه الصناعة إلى القرن الثالث الميلادى[٤]، وظلت صناعة السيوف فى دمشق تحتفظ بشهرتها وتقدمها فى عهد الراشدين والأمويين[٥]، ينقش عليها آيات قرآنية وأشعار بماء الذهب[٦] .

وكانت دمشق تعتمد على الأشجار التى تغرس فى البلاد المحيطة بها فيما تحتاجه من أخشاب ، وكان أهلها يستخدمون هذه الأخشاب .

٣ — النشاط التجارى

لم يكن اهتمام الخلفاء الأمويين مقصوراً على الزراعة والصناعة بل عنوا أيضاً بتيسير سبل التجارة ، فنشروا الأمن والطمأنينة فى أنحاء دولتهم

---

(١) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ أو الخبر ج ١ ص ٤١٠

(٢) الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ج١ ص ٧٩

(٣) Hitti : History of the Arab, p. 346

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدى والخبر ج١ ص٢١١

(٥) ابن سيده : المخصص ج١ ص٢٦

(٦) Hitti : Historyof the Arabs. p. 346.

وأقاموا المحطات والآبار فى طرق القوافل ، وكان لعملهم هذا أثر كبير فى انتعاش حركة التجارة الخارجية .

كانت التجارة داخل دمشق مركزها الأسواق ، فتقيم كل طائفة من التجار فى سوق معين ، ويمكثون إلى مابعد الظهر ، ولا يعودون إلى منازلهم إلا فى المساء ، وكانت الحوانيت فى دمشق تمتد على طول الشارع من الجانبين ، وكان للتجار القادمين إليها فنادق أشبه بالأسواق الكبيرة فيضعون بضائعهم فى أسفلها وينامون فى أعلاها (١) ، وكان يطلق على هذه الأسواق أو المخازن اسم « الفنادق » (٢) .

كانت الأسواق تقام فى دمشق فى أوقات معينة ، ولكل نوع من المتاجر شارع خاص بها . ومن أهم هذه الأسواق المنفردة سوق القمح (٣)، وسوق الزيت (٤) ، وسوق الدواب (٥) ، وسوق الجبن ، وسوق البقل ، وسوق العدس ، وسوق الشعير (٦) .

وكان بالأسواق عمال يشرفون على تنظيمها ، ويعملون على عدم بروز الحوانيت حتى لايعوق ذلك نظام المرور ، كما كانوا يتولون استيفاء الديون واختبار الموازين والمكاييل ومعاقبة الذين يرفعون أثمان بضائعهم ، ومنع الغش والتدليس فى المقاييس والمكاييل والموازين (٧) .

وكثيراً ما كان الخلفاء يتدخلون فى تخفيض الأسعار ، يؤيد ذلك ماذكره

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية جـ٢ ص ٢٧١

(٢) كلمة فندق مشتقة من الكلمة اليونانية Pandokeiom (المصدر السابق) .

(٣) الأصفهانى : الأغانى ، جـ٧ ص٢٦

(٤) ابن عساكر : التاريخ الكبير ص١٤٨

(٥) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ص١٣٤

(٦) ابن عساكر : تاريخ دمشق جـ١ ص٢١٥ — ٢١٨

(٧) ابن خلدون . العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ١ ص١٩٦

أبو يوسف (١) ، من أن رجلا قال للخليفة عمر بن عبد العزيز : « مابال الأسعار عالية فى زمانك وكانت فى زمان من كان قبلك رخيصة ، قال : إن الذين كانوا قبلى كانوا يكلفون أهل الذمة فوق طاقتهم . فلم يكونوا يجدوا بدأ من أن يبيعوا ويكسد ما فى أيديهم ، وأنا لا أ كاف أحداً إلا طاقته ، فباع الرجل كيف شاء . فقال : لو أنك سعرت لنا . قال : ليس إلينا من ذلك شيء إنما السعر لله . وكان الوليد بن عبد الملك يمر بأسواق دمشق ويراقب حركة البيع والشراء فيها ، وكان يسأل التاجر عن أسعار سلعه ، فإذا وجد أن التاجر يبيعها بسعر لايأتى له إلا بربح ضئيل يقول له : زد فيها فإنك تربح (٢) » .

وتعد دمشق من المراكز الهامة للقوافل الآتية من ناحية الفرات إلى جزيرة العرب ومصر ، كما كانت مراكز لتجمع كثير من الحجاج حيث يسيرون منها فى جماعات كبيرة إلى مكة المكرمة ومنها يتفرقون بعد أداء فريضة الحج ، وقد ساعدت هذه الحركة المستمرة على وفرة السلع فى أسواق دمشق (٣) ، وكانت المدن الساحلية مثل طرابلس وصور وعكا تحصل على ماتحتاجه من السلع من سوق دمشق الكبير (٤) .

كانت دمشق تصدر السيوف والزجاج والأدوات المطلية بالميناء وتستورد الديباج والأكسية الرومية من بلاد الدولة البيزنطية والبسط من فارس وأرمينية (٥) .

---

(١) كتاب الخراج ص٧٦

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٦ ص١٦٤

(٣) Heyo : Histoire pu Lommer de Levoutau moyan Age p 42.

(٤) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ٢ ص٢٥٠

(٥) ميتز · الحضارة الإسلامية جـ٢ ص٢٦٣

وصف الوليد بن يزيد بأنه كان جالساً فى بيت منجد بالأرمنى أرضه وحيطانه . (الأصفهانى : الأغانى جـ٦ ص٩٢)

ظل الطريق التجارى الذى يمر بمدينة دمشق قائماً دون تغيير فى عهد الراشدين والأمويين ، فقد كانت من سياسة الأمويين العمل على تسهيل سبل نقل التجارة لما فى ذلك من أهمية فى إنعاش الحركة التجارية فى بلاد الشام (١) .

وكان يصل هذا الطريق بين بلاد الشرق الأقصى الغنية بالمتاجر وبين أسواق ومراكز استهلاكها فى البلاد المطلة على الجانب الشرقى للبحر المتوسط . ويتفرع إلى فرعين ، الأول يسير من مياه الخليج الفارسى ثم الفرات ومنه إلى دمشق وأخيراً إلى البحر المتوسط ، والثانى يسير عبر مياه الخليج الفارسى إلى البحر الأحمر حيث يبدأ عند اليمن طريق قوافل آخر يجتاز بلاد العرب إلى مدينة بصرى مفتاح الطريق إلى دمشق (٢) .

ويتجه هذا الطريق بفرعيه صوب مدينة دمشق لأنها تقع عند نقطة اتصال رئيسية بين منطقتين متباينتين لهما أهميتهما التجارية ، فالى الشرق من دمشق توجد بادية الشام التى تخترقها الطرق التجارية الآتية من شمال بلاد العرب ومن العراق ، وإلى الغرب منها سهل البقاع الخصيب الذى كان له أهمية تجارية كبيرة ، إذ يقع بين سلسلتى جبال لبنان . وكان يسهل اجتيازها منه ، والوصول إلى شاطىء البحر المتوسط (٣) .

وكان لسورية علاقات تجارية مع الدولة البيزنطية استمرت قائمة بعد الفتح العربى غير أن هذه العلاقات لم تستمر على ما كانت عليه من قبل ، فقد استعاضت سورية عن أسواق تلك الدولة بأسواق فى بلاد الفرس وآسيا الوسطى (٤) ومع ذلك فإن بعض الصناعات البيزنطية كانت ترد إلى بلاد

---

(١) العدوى : الامبراطورية البيزنطية ص ١٧١

(٢) Kremer : Oriontuvper The Calphs P - 184

(٣) Kremer: Oriontuvdr The Calbphs p - 133

(٤) Hitti : History of syria P. 489

الشام فى العهد الأموى مثل الفسيفساء الذى بعث الخليفة الوليد بن عبد الملك فى طلبه لتزيين مسجد المدينة والمسجد الأموى فى دمشق(١). كما أن الدينار البيزنطى ظل متداولا بعد الفتح العربى حتى أيام عبد الملك بن مروان حيث أمر بسك عملة عربية جديدة فى دمشق سنة ٧٧ هـ، وظلت الموازين البيزنطية مستعملة فى دمشق كالأوقية (Ouggia.) والرطل وهو تحريف للوزن البيزنطى (Litra.)(٢).

المعاملات التجارية والمالية :

أقر أبو بكر وخليفته عمر بن الخطاب الدنانير الهرقلية أو الرومية التى كانت مستعملة فى دمشق قبل الفتح العربى. وكان الدينار قطعة من الذهب يزن مثقالا، والمثقال من الذهب كان وزنه ٤٫٢٣ جراماً، ولم تكن قيمة الدنانير ثابتة بل كانت تختلف من عشرة دراهم إلى ثلاثة عشر إلى خمسة عشر درهماً، وقد تزيد على ذلك(٣).

ظلت الدنانير الرومية بعد الفتح العربى على شكلها الرومى بكتابتها ونقوشها، فكان ينقش عليها اسم الإمبراطور أو الملك الذى ضربه، ولما ضرب خالد بن الوليد نقوداً فى طبرية جعلها على رسم الدينار تماما(٤).

ضرب معاوية بن أبى سفيان فى دمشق دنانير عليها تمثال متقلد سيفاً ولم يقبل المسيحيون هذه الدنانير لأنه لم يكن عليها الصليب(٥)، ورفض المسلمون التعامل بها لأنها كانت ناقصة الوزن، ووقع دينار منها فى يد أحد الجنود، فجاء به إلى معاوية وقال: يا معاوية أن وجدنا ضربك أشد ضرب.

---

(١) الدينورى : الأخبار الطوال ص٣١٣

القلقشندى : صبح الأعشى جـ٤ ١ ص٣٦٨

(٢) العدوى : الامبراطورية البيزنطية ص١٢٣

(٣) الكرملى : النقود العربية وعلم النميات ص٨٩ — ٩٠

(٤) الكرملى : النقود العربية ص٩١

(٥) Kremer : Orient under the Califrs, p. 194

فقال له معاوية : « لأحرمنك عطاءك ولأكسونك القطيفة »(١) .

تأثرت العلاقات التجارية بين الدولة الأموية والدولة البيزنطية بسبب المنازعات السياسية بينهما ، وقل تبعاً لذلك النقد المتداول بينهما ، فرأى عبد الملك بن مروان ، أن يسك عملة جديدة ليحقق الاستقلال الاقتصادى لدولته(٢) وكانت النقود فى ذلك الوقت مختلفة الأوزان . كما لم يكن لها مقياس ثابت فى جميع أرجاء الدولة ، مما جعل الدولة تواجه صعوبة كبيرة عند قيامها باستيفاء حقوقها من الضرائب ، إذ كان الناس يؤدونها بالعملة الأقل وزناً ويحتفظون بالعملة الجديدة(٣) وكان لزاماً على الدولة فى ذلك الوقت أن تعنى بجباية الخراج بعد أن أثقلت الحروب الأهلية كاهلها بالنفقات .

يذكر البلاذرى(٤) أن من بين الأسباب التى حملت الخليفة عبد الملك ابن مروان على سك عملة جديدة ، أن القراطيس كانت تدخل بلاد الروم من مصر ، ويأتى الدولة العربية من قبل الروم الدنانير ، وكانت القراطيس يكتب عليها عبارات مسيحية ، فأمر عبد الملك باستبدالها بعبارات إسلامية تتضمن (قل هو الله أحد) وغيرها من ذكر الله ، فكتب إليه إمبراطور الروم: « أنكم أحدثتم فى قراطيسكم كتاباً نكرهه، فإن تركتموه وإلا أتاكم فى الدنانير من ذكر نبيكم ما تكرهونه » ، فكبر ذلك فى صدر عبد الملك، وكره أن يدع سنة حسنة منها ، فأمر بسك عملة جديدة .

أنشأ عبد الملك بن مروان فى دمشق ، داراً لضرب الدنانير الذهبية التى عرفت بالدمشقية،وكان نقش هذه الدنانير الآية الكريمة (قل هو الله أحد

---

(١) المقريزى : اغاثة الأمة ص٥٢
القطيفة : جل البعير .
(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص٢ [illegible]
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص٤٧٠
(٤) فتوح البلدان ص٢٤٩

الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد)،وفى وسط أحد الوجهين وحوليهما « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون » وعلى الآخر فى الوسط « لا إله إلا الله وحده لا شريك له » ، وحول ذلك اسم الله ، وضرب هذا الدينار فى دمشق سنة كذا(١) .

روعى فى سك العملة أن يكون الذهب خالصاً ، وكان وزن الدينار الدمشقى الذى ضربه عبد الملك ٤٫٢٥ جراماً (٦٦ حبة) ، أما وزن الدينار البيزنطى فكان ٤٫٢٣ جراماً أى أن الدينار الدمشقى يزيد بنسبة ٢ ٪ ذهباً عن الدينار البيزنطى ، مما جعل الروم يميلون إلى التعامل به(٢) . والأمر الجدير بالاعتبار فى هذه الدنانير هو وزنها لا قيمتها الإسمية(٣) .

نجحت محاولة عبد الملك فى ضرب دنانير عربية جديدة فى دمشق نجاحاً كبيراً ، وبلغت الوحدة فى الوزن والحجم والجمال الفنى درجة فاقت كل ما كان ينتظر لها من الدقة . وكانت النسبة بين الدينار والدرهم فى الوزن ١٠ — ١ (٤) .

أشرف الخلفاء الأمويون إشرافا دقيقاً على ضرب العملة ، وحرصوا على منع الناس من التلاعب والتزييف فيها (٥) ، فقـــد علم عبد الملك بن مروان أن رجلا يضرب على غير سكة المسلمين ، فأراد أن يعاقبه بقطع يده ثم خفف عنه العقوبه ، كما أن عمر بن عبد العزيز لما علم أن رجلا يضرب على غير سكة المسلمين أمر بزجه فى السجن (٦) .

---

(١) الكرملى : النقود العربية ص ٩٧

(٢) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٥٤

(٣) Emcy. pfialcw, Artlenorius

(٤) المقريزى : إغاثة الأمة ص ٥٣

(٥) Kremor : OriZutmder the Califs , p. 99 - 206.

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٧٥

لما كانت العملة الذهبية لاتساعد على تبسيط الكثير من العمليات التجارية الصغيرة التى لاغنى عنها للناس فى حياتهم اليومية ، لذلك اتخذ أهل دمشق المقايضة فى معاملاتهم التجارية (١) .

كانت الصكوك تستعمل كوسائل لدفع المال (٢) ، ويقول اليعقوبى(٣) : إن عمر بن الخطاب كان أول من صك وختم أسفل الصكاك . واستخدم الوليد بن يزيد بن عبد الملك الصكاك لدفع رواتب الجند (٤) .

٤ — الإدارة المالية

أنشأت الدولة العربية الإسلامية منذ قيامها بيتاً للمال يقوم على صيانته وحفظه والتصرف فيه لصالح الجماعة الإسلامية . ومن أهم الموارد الثابتة لبيت المال ، الزكاة والجزية والخراج .

١ — الزكاة : يعرف الماوردى (٥) الزكاة بقوله : الزكاة صدقة والصدقة زكاة ، يفترق الإسم ، ويتفق المسمى ، ولا يجب على المسلم فى ماله حق سواها وسميت بذلك لأن إخراج شىء من مال الإنسان والتصدق به يؤدى إلى تنمية هذا المال وإزال البركة فيه ، ولأن إخراج شىء من المال يزكى صاحبه ويطهره ، قال تعالى (خذمن أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها)(٦) وكان للزكاة ديوان خاص فى دمشق — حاضرة الدولة العربية الإسلامية — وله فروع فى سائر الولايات (٧) .

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية ج٢ ص٢٨٤

(٢) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص١٥٩

(٣) تاريخ اليعقوبى : ج٢ ص١٣٢ — ١٣٣

(٤) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص٣٤٨

(٥) الأحكام السلطانية ص١٠٨

(٦) سورة التوبة : ٩ ; ١٠٣

(٧) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج١ ص٤٦٩

كانت أموال الزكاة والصدقات تقسم على الأشخاص المذكورين فى قوله تعالى: (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) [1] . فكانت توزع الصدقات على الفقراء وهم الذين لا يستطيعون سد حاجتهم ، والمساكين وهم الذين لا يملكون شيئاً . كذلك كان يعطى جزء من الصدقات للمعروفين فى هذه الآية بالعاملين عليها وهم القائمون بجبايتها وتوزيعها . وكان للمؤلفة قلوبهم - وهم الذين أظهروا إسلامهم فى بداية العهد الإسلامى - نصيب من الصدقات وكانت تنفق الصدقات أيضاً فى شراء العبيد وإعتاقهم . كما أن الغارمين وهم الذين يعجزون عن تسديد ديونهم، كانوا يأخذون ما يقضون به ديونهم . وقوله تعالى (وفى سبيل الله) المراد بهم الغزاة وأهل الجهاد ، فيأخذون نفقات غزوهم سواء كانوا فقراء أو أغنياء . و (ابن السبيل) المراد به الذى لا يجد نفقة سفره إلى بلده ومستقره، فيعطى من الصدقة وإن كان غنياً فى بلده [2] .

كان على المسلمين أن يؤدوا الزكاة بمقدار ربع العشر عما يمتلكونه من مال ، وهذه هى زكاة النقد ، أما زكاة الزروع والثمار فيجب فيها العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالمطر أو السيح [3] ، ونصف العشر إذا كانت خارجة من أرض تسقى بالدلاء ونحوها وأن يكون الخارج منها مما يقصد بزراعته استغلال الأرض ونماؤها [4] .

كان من بين أرض دمشق أرض عشر أقطعها الخلفاء الراشدون والأمويون لبعض العرب فى دمشق [5] ، ومنها الأرض الموات التى أحياها المسلمون

---

(١) سورة التوبة : ٩ : ٦٠

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١١٧ — ١١٨

(٣) يحيى بن آدم : الخراج ص ٧٠

(٤) ابن عساكر : التاريخ الكبير ج ٢ ص ٥٩٥ — ٥٩٧

(٥) أبو يوسف : الخراج ص ٣١ — ابن عساكر : تاريخ دمشق ج ٢ ص ٥٩٧

فأصبحت أرضاً عشرية(١) . ويقول يحيى بن آدم(٢) . وأما الزكاة فى الأرض والزروع والثمار ، فما كان من أرض من هذه الأرضين التى لم يوضع عليها الخراج فهى أرض عشر . والعشر هو الصدقة وهو الزكاة المفروضة على المسلمين فى زروعهم وثمارهم .

أما زكاة السوائم وهى الإبل والغنم ، فكانت تؤخذ بمقدار واحدة من اربعين فما فوق إلى مائة ، ثم يبتدى من ١٠١ إلى مائتين بمقدار واحدة فى كل مائة ، والإبل عن كل خمس شاة إلى أربع وعشرين ، فإن كانت خمساً وعشرين فعليها ناقة صغيرة لا يتجاوز عمرها سنة والجاموس والبقر كل ثلاثين عليها واحدة بنت سنة ، فإذا بلغ العدد ستين كانت بمقدار واحدة لا يزيد عمرها على سنتين . والخيل إذا اعتبرت من آلات الحرب فلا زكاة عليها . كل ذلك إذا كانت الحيوانات تأكل من الكلأ المباح ، فإن علفها صاحبها فلا زكاة عليها ، وإذا دخلت فى التجارة تقوم ويدفع عنها زكاة التجارة . أما زكاة عروض التجارة فهى ربع العشر بشرط أن تبلغ قيمتها نصابا من الذهب أو الفضة وان يحول عليها الحول(٣) .

كان للزكاة عمال فى دمشق يعهد إليهم بجبايتها ، وكان لا يجوز لعامل الخراج ، أن يتولى جمعها ، لأنه لا يجوز اختلاط أموال الخراج بأموال الزكاة ، ولأن لكل منهما مصرف خاص(٤) ، ويشترط فى عامل الصدقات أن يكون حراً مسلماً عادلا عالماً بأحكام الزكاة(٥) وعليه أن يتولى الأموال الظاهرة كالزروع والثمار والماشية ، أما الأموال الباطنة التى يمكن إخفاؤها فعلى عامل الصدقات أن يرغب أهلها فى أدائها طوعا تمييزاً لهم عن أهل الذمة.

---

(١) كتاب الخراج ص٧٢

(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج١ ص٥٩٧ كتاب الخراج ص٧٠

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص١٠٨ — ١١٧

(٤) أبو يوسف : الخراج ص٤٥ — ٤٦

(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص١٠٩

فى الجزية (١) . وإذا كتم الرجل زكاة ماله وأخفاها عن العامل ، أخذها العامل منه إذا ظهر عليها ، وعاقبه على إخفائها (٢) .

التزم الخلفاء الراشدون بقواعد صرف الزكاة . أما الخلفاء الأمويون فلم يتبعوها تماماً ، بل امتدت أيديهم إلى أموال الصدقات فكثيراً ما كانوا يمنحون الشعراء جوائز مالية من أموال الزكاة (٣) على الرغم من أن هذه الجوائز كان يجب من الناحية النظرية أن تؤدى من مال الخليفة الخاص لأن هؤلاء الشعراء مدحوا الخليفة ، وكانوا أيضاً كثيراً ما يؤدون أعطيات المسلمين من مال الزكاة ، فحج عبد الملك بن مروان فى إحدى السنين ، وأمر بتوزيع العطاء على الناس ، ولما أدرك أهل المدينة أن هذه الأموال من زكاة أهل الشام رفضوا قبولها ، وقالوا : أن عطاءنا من الفىء (٤) . وكان عمر ابن عبد العزيز أكثر الخلفاء الأمويين اهتماماً بصرف أموال الزكاة فى وجوهها (٥) .

٢ — الجزية : مبلغ معين من المال يؤديه أهل الذمة كما يدفع المسلمون الزكاة حتى يتكافأ الفريقان فى تحمل المسئولية ، وهما رعية لدولة واحدة ، كما تكافأ فى التمتع بالحقوق وتساويا فى الانتفاع بالمرافق العامة للدولة . يقول الماوردى (٦) : « فيجب على أولى الأمر أن يضعوا الجزية على رقاب من دخل الذمة من أهل الكتاب ليقروا بها فى دار السلام ، ويلزم لهم ببذلها حقان أحدهما الكف عنهم والثانى الحماية لهم ليكونوا بالكف آمنين وبالحماية محروسين » .

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص١٨
(٢) نفس المصدر ص١١٦
(٣) الاصفهانى : الأغانى جـ٨ ص١٩٨
(٤) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٩٢
(٥) ابن عبد الحكم : سيرة عمر بن عبد العزيز ص١٧١
(٦) الأحكام السلطانية ص١٣٧

والجزية تشبه الخراج فى أن كل منهما يجبى فى أوقات معينة فى كل سنة، ويختلفان فى أن الجزية موضوعة على الرءوس، وتسقط بالإسلام، وفى أنها ثبتت بنص القرآن فى هذه الآية (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) (١). أما الخراج فهو على الأرض ولا يسقط بإسلام صاحب الأرض، كما أنه ثبت بالاجتهاد لا بنص القرآن (٢).

وتجب الجزية على الرجال الأحرار العقلاء الأصحاء القادرين على أدائها، ولا تؤخذ من فقير معدم، ولا من لا قدرة له على الدفع ولا من الأعمى أو المقعد أو المجنون أو غيرهم من ذوى العاهات ولا من أحد من المترهبين فى الأديرة إلا إذا كانوا أغنياء (٣).

بدأ المسلمون يجبون الجزية من أهل الذمة فى دمشق عقب الفتح مباشرة، وكان مقدارها ديناراً واحداً، ثم كتب عمر بن الخطاب إلى أبى عبيدة عامر بن الجراح بأن يجعل الجزية فى بلاد الشام حسب الطاقة، ولذلك قسم أهل الذمة ثلاث طبقات تدفع الطبقة العليا منهم أربعة دنانير والطبقة الوسطى دينارين والطبقة الدنيا ديناراً (٤).

ظلت الجزية فى دمشق على قدر طاقة الشخص حتى ولى عبد الملك ابن مروان الخلافة، فأرسل الضحاك بن عبد الرحمن الأشعرى إلى الجزيرة، وأمر بزيادة الجزية، فأحصى أهل الذمة وجعلهم جميعاً عمالا بأيديهم وحسب ما يكسب العامل سنته كلها، ثم طرح من ذلك نفقته فى طعامه وأدمه

---

(١) سورة التوبة : ٩ : ٢٩

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص١٣٦

(٣) نفس المصدر ص١٣٧

(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٣١

وكسوته ، وطرح أيام الأعياد فى السنة ، فوجد الذى يفضل من ذلك لكل شخص أربعة دنانير ، فألزمهم بأدائها ، ويقول أبو يوسف(١) : « وحملت الشام على مثل ذلك » ، وهذا يدل على أن عبد الملك جعل الجزية فى دمشق أربعة دنانير على كل ذمى ، وأنه ساوى بينهم جميعاً فى أدائها .

راعى الحكام المسلمون الرفق والإنصاف فى جباية الجزية من أهل الذمة . وتقضى القاعدة الفقهية فيما يتعلق بطريقة أخذ الجزية من دافعيها أنه « لا يضرب أحد من أهل الذمة لحملهم على أدائها ... ولكن يرفق بهم ويحبسون حتى يؤدوا ما عليهم »(٢) . وقد كتب عمر بن الخطاب إلى عماله يطلب منهم الرفق بأهل الذمة فقال : « ومن لم يطق الجزية خففوا عنه ومن عجز فأعينوه » (٣) . ويذكر أبو يوسف (٤) أن عمر بن الخطاب رأى فى بلاد الشام جباة الجزية يعذبون نفراً من أهل الذمة ، فقال لهم : ما بال هؤلاء ، فقالوا له : عليهم الجزية لم يؤدوها ، فهم يعذبون حتى يؤدوها ، فسألهم عمر عما يعتذرون به ، فقالوا له : لا نجد . قال فدعوهم لا تكلفوهم مالا يطيقون ، فإنى سمعت رسول الله يقول : « إن الذين يعذبون الناس فى الدنيا يعذبهم الله يوم القيامة » وأمر بإخلاء سبيلهم .

التزم أهل الذمة فى دمشق عقب الفتح بأن يؤدى كل رجل منهم قادراً على أداء الجزية جريب (٥) حنطة وقدراً من الخل والزيت لقوت المسلمين فى كل شهر كما التزم أهل الذمة بأن يضيفوا من مر بهم من المسلمين ثلاثة أيام من أوسط ما يأكلون (٦) .

---

(١) كتاب الخراج ص٢٤

(٢) أبو يوسف : الخراج ص١٢٢

(٣) ابن عساكر : التاريخ الكبير ج١ ص١٧٩

(٤) كتاب الخراج ص٧١

(٥) الجريب : عشر قصبات فى عشر قصبات أو ستون ذراعاً فى ستين ذراعاً (الماوردى : الأحكام السلطانية ص١٤٦) .

(٦) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٣١

٣ ـ الخراج : هو مقدار معين من المال أو الحاصلات يفرض على الأراضى التى فتحها المسلمون عنوة إذ عدل الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ووقفها على مصالح المسلمين ، كما يؤخذ أيضاً من الأراضى التى فتحها المسلمون صلحاً وتركوها فى يد أهلها على أن يؤدوا خراجها (١) ، كما فعل عمر ابن الخطاب فى دمشق (٢) .

كان الخراج يقدر على حسب مساحة الأرض ومبلغ جودتها ونوع المحصول ، وفى ذلك يقول الماوردى (٣) : « إن الأرض تختلف من ثلاثة أوجه يؤثر كل واحد منها فى زيادة الخراج ونقصانه ، أحدها يختص بالأرض من جودة يزكو بها زرعها أو رداءة يقل بها ريعها . والثانى يختص بالزرع من اختلاف أنواعه ، من الحبوب والثمار ، فنها ما يكثر ثمنه ، ومنها ما يقل ثمنه ، فيكون الخراج بحسبه ، والثالث يختص بالسقى والشرب ... ومن الناس من اعتبر شرطاً رابعاً وهو قربها من البلدان والأسواق وبعدها لزيادة أثمانها ونقصانها » .

أمر عمر بن الخطاب ألا يكلف أهل الخراج فوق طاقتهم ، فإن احتملت الأرض أكثر من ذلك لا يزاد عليهم، وإن عجزوا عن ذلك خفف عنهم(٤)، كما أمر عمر بن عبد العزيز جباة الخراج بأن يسلكوا مع الأهلين مسلكا ينطوى على العدل والإنصاف(٥). وقد اهتم الخلفاء الأمويون بالخراج أكثر من اهتمامهم بالجزيه، لأن الخراج أكثر ثباتا ودخلا، أما الجزية فإنها تسقط بالإسلام(٦) .

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٠ — ١٤١
(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٥٨
(٣) الأحكام السلطانية ص ١٤٢ — ١٤٣
(٤) يحيى بن آدم : الخراج ص ٩
(٥) يحيى بن آدم : الخراج ص ٣٤
(٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٦

يستفاد مما ذكره أبو يوسف(١) أن الخراج في بلاد الشام قد حدد في عهد عبد الملك بن مروان، على أن يكون على كل مائة جريب مما قرب — من القرية أو المدينة التي يقيم بها أهل الخراج — ديناراً، وعلى كل مائة جريب مما بعد ديناراً. وعلى كل ألف شجرة كرم مما قرب ديناراً، وعلى كل ألف شجرة مما بعد ديناراً، وعلى كل مائة شجرة زيتون مما قرب ديناراً، وعلى كل مائتي شجرة مما بعد ديناراً، وكانت غاية البعد مسيرة اليوم أو اليومين.

كان الخراج في دمشق يجبى في أول كل سنة هجرية، على الرغم من أن جني المحصول كان يتم على حسب فصول السنة الشمسية، ولما كانت الشهور العربية تنتقل من فصل إلى فصل، صار استحقاق الخراج في العهد الأموي — بعد أن كان في عهد الراشدين في أول السنة الهجرية في آخر السنة الهجرية، ثم صار في السنة التالية، فيصير الخراج منسوباً للسنة السابقة، واستحقاقه في السنة اللاحقة، وأصبحت الحاجة تدعو إلى تحويل السنة الخراجية السابقة إلى السنة التي بعدها (٢).

وكان الروم يكبسون السنين، فيزيدون يوماً في كل أربع سنين، فأبطل الإسلام ذلك، ونشأ عن عدم كبس السنين أن حل ميعاد جباية الخراج قبل نضج الزرع، وأدرك هشام بن عبد الملك ما حاق بالزراع من ضرر نتيجة لذلك، غير أنه خشي أن يعمل ما كان يعمله الروم، وقال (٣): أخاف أن يكون ذلك من قوله تعالى (إنما النسيء زيادة في الكفر).

كان ديوان الخراج في دمشق في العهد الأموي يشرف على تنظيم جباية الخراج، وعليه أن يراعي الرفق في الاستيفاء، والصبر على الزراع حتى

(١) كتاب الخراج ص٢٤
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى ج١٣ ص٥٤
(٣) نفس المصدر ج١٣ ص٥٦

يتيسر لهم أداء ما عليهم وإعفاء من يستحق الإعفاء . وكان الخلفاء الأمويون يختارون لهذا العمل شخصاً يكون له دراية تامة بالحساب والمساحة (١) ، ومعروفاً بالأمانة والعدالة ، ولا يخاف من جور في حكم إذا حكم (٢) .

كان لكل ولاية من ولايات الدولة العربية ديوان للخراج يتبع ديوان الخراج الرئيسي بدمشق ، وينقسم كل منها قسمين يشرف أحدهما على النفقات ، ويشرف الثاني على الموارد ، وكان الخلفاء الأمويون يعينون عمالا مستقلين عن الولاة لجباية الخراج ...

لم يكن ما يرد إلى دمشق من خراج الولايات الإسلامية إيراداً ثابتاً إذ كانت ضريبة الأرض تقل وتكثر حسب الاهتمام بالتعمير وإصلاح الجسور والخلجان وتحسين وسائل الري ، كما أن الجزية كانت تتناقص بالتوالي لدخول أهل الولايات الإسلامية في الإسلام ، (٣) وكانت إيرادات بعض الولايات تقل بسبب عدم استقرار الأمور فيها ، وفي أيام عبد الملك ابن مروان قل المال الذي كان يرسل من أمصار العراق إلى دمشق عما كان عليه في أيام معاوية ، فبعد أن كان ١٢٠ (مليون) درهم ، صار ٢٥ مليون درهم (٤) ، ويرجع السبب في ذلك إلى كثرة الاضطرابات الداخلية التي حدثت في العراق بعد وفاة معاوية .

أما في بلاد الشام فمن المرجح أن مقدار ما كان يجبى منها ظل ثابتاً طوال العهد الأموي لأن تلك البلاد كانت مقر الدولة ، وكان يسودها الاستقرار ،

---

(١) الحسين بن عبد الله : آثار الأول في ترتيب الدول ص ٧١

(٢) أبو يوسف : الخراج ص ٧٠

بلغ خراج دمشق في عهد معاوية بن أبي سفيان أربعمائة وخمسين ألف دينار سنويا . (تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ٢٠٢) واستقر خراج دمشق بعد سنة ٨٠ ه على أربعمائة ألف دينار في كل سنة (البلاذري : فتوح البلدان ص ٢٠١) .

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج ١ ص ٤١٤

(٤) تاريخ اليعقوبي : ج ٢ ص ١٩٩

ولم تحدث فيها تغييرات سياسية أو اقتصادية عنيفة كالتي حدثت في مصر أو العراق ، ولذلك كانت الأموال التي تصل إلى بيت المال بدمشق من تلك البلاد تشكل موردا ثابتا إلى حد كبير .

وفي مصر كان عمرو بن العاص - والي مصر من قبل معاوية - لا يرسل إلى بيت المال بدمشق إلا النذر اليسير ، ولما توفي عمرو بن العاص كان عامل الخراج في مصر يرسل إلى دمشق ألف ألف دينار في كل سنة [١] ، ثم قل تدريجيا ما كان يرسل من مصر بسبب دخول كثير من المصريين في الإسلام ورفع الجزية عنهم . ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة كان حيان بن شريح - عامل خراجه بها - لا يبقى لديه من الضرائب التي يجبيها من مصر ما يرسله إلى دمشق ، بل كان ما يجبيه منها لا يكفي لأداء أعطيات الجند ، فكتب إلى عمر بن عبد العزيز « أما بعد فإن الإسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار يتمها عطاء أهل الديوان ، فإن رأى أمير المؤمنين بقضائها فعل » ، فكتب إليه « أما بعد فضع الجزية عمن أسلم فإن الله أنما بعث محمداً هادياً ولم يبعثه جابياً »[٢] . وفي عهد هشام بن عبد الملك كان عامل الخراج بمصر يرسل إلى دمشق ٢/٧٢٣/٨٣٧ دينار في كل سنة، فقد أمره الخليفة بأن يمسح الأرض فسح العامر مما يسقيه ماء النيل ، وجبى خراج مصر ، فكان أربعة ملايين دينار [٢] .

ويذكر المقري[٣] ، أنه كان يرد إلى دمشق من الأندلس في العهد الأموي

---

(١) المقريزي : المواعظ والاعتبار ج١ ص٣٨

(٢) نفس المصدر ج١ ص٩٩

(٣) كتاب نفح الطيب ج١ ص١٤٠

ثلاثمائة ألف دينار فى كل سنة[١]، أما الولايات الأخرى فليس فى المراجع معلومات وافية عن مقدار مايجبى منها من أموال الخراج ، وما يصل إلى بيت مال دمشق من تلك الأموال [٢] .

٤ — ومن موارد بيت المال الغنائم [٣] ، وكان مايصل إلى دمشق منها يشكل موردا هاما لبيت المال ، ومن أمثلة ذلك الغنائم التى جاء بها موسى ابن نصير إلى دمشق من الأندلس سنة ٩٥ هـ ، فقد أفاض المؤرخون فى وصفها فيقول ابن الأثير[٤] : أنه مما قدم به إلى دمشق « الدر والياقوت أكيالا ، ومن نفيس الجوهر مالا يحصى » .

كذلك روى البلاذرى [٥] أن الجراح بن عبد الله لما فتح جرجان

---

(١) كان الخلفاء الأمويون إذا جاءتهم جبايات الامصار أتيهم مع كل جباية أربعون رجلا من خيرة الناس ، فلا يدخل بيت المال دينار ولا درهم حتى يقسموا بالله الذى لا اله إلا هو ، أنه أخذ بحقه ، وأنه فضل من أعطيات الجند والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه (السيوطى: تاريخ الخلفاء ص١٦٤) .

(٢) كان يرد كذلك إلى بيت المال بدمشق الجزية السنوية التى فرضها الأمويون على بعض الولايات التى فتحوها مثل قبرص ، فقد فتحها معاوية سنة ٣٢ — ٣٣ هـ ، وصالح أهلها على سبعة آلاف دينار يؤدونها سنويا ، وظل أهل قبرص يؤدون هذه الجزية السنوية حتى ولى عبد الملك بن مروان الخلافة فزاد عليهم ألف دينار ، وظل الحال على ذلك حتى استخلف عمر ابن عبد العزيز ، فأعاد جزية قبرص إلى ما كانت عليه فى عهد معاويه ، ولما آلت الخلافة إلى هشام بن عبد الملك أعاد الزيادة التى كان قد فرضها عبد الملك .

(البلاذرى : فتوح البلدان ص١٥٩ — ١٦١) .

(٣) الغنيمة هى كل ما أصابه المسلمون من عساكر أهل الشرك بالقتال ، وتشتمل على أربعة أقسام هى : الأسرى والسبى والأرضون والأموال ، وقد أوضح القرآن الكريم تقسيم الغنائم فى هذه الآية (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) . (سورة الأنفال : ٨ : ٤١) فكان للخليفة مع من ذكر فى الآية الخمس ، وصارت الأربعة أخماس حقا للغانمين .

(الماوردى : الأحكام السلطانية ص١٢٥ — ١٢٧) .

(٤) الكامل فى التاريخ جـ٤ ص٢١٦

(٥) أنساب الأشراف جـ٧ ورقة ٩٩ب

ودغستان أرسل إلى سليمان بن عبد الملك ملايين من الدراهم التى غنمها بعد أن أعطى كل ذى حق حقه .

٥ — ومن الموارد المالية فى دمشق فى عهد الراشدين والأمويين الضرائب التى كانت تفرض على تجار أهل الذمة وتسمى « المكوس »[1]، وقد حددها عمر بن الخطاب بمقدار $\frac{١}{٢٠}$ من قيمة بضائع التجار أن كانوا يقيمون فى الدولة العربية الإسلامية ، وتجبى مرة فى السنة ، بشرط أن تزيد قيمة التجارة عن عشرين ديناراً أو مائتى درهم . وعشر قيمة بضائع التجار القادمين من خارج البلاد الإسلامية ، أن زادت القيمة على عشرين ديناراً أو مائتى درهم[2] ، وكان جباة هذه الضريبة يتخذون أمكنتهم فى طرق التجارة البرية والنهرية ، ويمنح التاجر إيصالا بتأديته الضريبة لمدة سنة[3].

كذلك فرضت ضرائب على الدور والحوانيت والأسوق ، وكان يطلق على هذا النوع من الضرائب مستغلات : وقد أنشأ لها الوليد بن عبد الملك ديوانا فى دمشق[4] .

استصفى معاوية لنفسه كل ما كان لكسرى وآل كسرى من الضياع ، وكان والى العراق يحمل إليه من مال صوافيه فى تلك النواحى مائة ألف ألف درهم ، فنها كانت صلاته وجوائزه ، وفعل معاوية بالشام والجزيرة واليمن مثل ما فعل العراق ومن استصفاء ما كان للملوك من الضياع واتخاذها لنفسه، وكان لمعاوية عامل يسمى عامل صوافى معاويه[5] . ومما لاشك فيه

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص١٦٢
(٢) أبو يوسف : الخراج ـ٧٦ — ٧٧
(٣) نفس المصدر ص٧٩
(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢٩
(٥) تاريخ اليعقوبى ج٢ ص٢٠٧ — ٢٠٨

استن الخلفاء الأمويون بعمر بن الخطاب فى مصادرة أموال عمالهم التى يجمعونها بطرق غير

أن ماقام به معاوية من جعل أموال الصوافى خالصة له قد أضر ببيت المال العام ضرراً جسيما .

كانت الأموال التى ترد من الموارد السابق ذكرها تنفق على مصالح الدولة فى الوجوه الآتيـة :

١ ــ أرزاق القضاء والولاة والعمال وصاحب بيت المال وغيرهم من الموظفين ولا يصرف للولاة ولا للقضاة شىء من أموال الصدقات خلاف والى الصدقات فإن رزقه يصرف منهـا[١] ، وكانت زيادة أرزاق القضاة والولاة أو نقصها من حق الخليفة[٢] .

٢ ــ أعطيات الجند ويقصد بها رواتبهم التى تصرفها الدولة لهم .

كان النظام الذى فرضه عمر بن الخطاب يقضى بأن يكون لكل مسلم دون اسمه فى دواوين الحكومة عطاء ، وكان يراعى فى تقدير العطاء ثلاثة وجوه : أحدها عدد من يعول الفرد من الذرارى والعبيد . والثانى عدد ماعنده من الخيل والظهر . والثالث ظروف الموضع الذى يقيم به من الغلاء والرخص[٣] .

= معروفة ، وكان أول عامل استصفى معاوية ماله بعد وفاته عمرو بن العاص . (تاريخ اليعقوبى ج٢ ص١٢٨) واستصفى يزيد بن معاوية أموال قيس بن الهيثم — عامله على خراسان — وأخذ منه عشرين ألف ألف درهم . (الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص١٨) ، واستصفى سليمان بن عبد الملك أموال موسى بن نصير وأخذ منه مائة ألف دينار . (تاريخ اليعقوبى ج٣ ص٣٨) . وأمر هشام بن عبد الملك موسى بن عمر الثقفى — عامله على اليمن — بأن يذهب إلى العراق ، ويقبض على خالد بن عبد الله القسرى ، ويستخرج منه سبعة وثلاثين ألف ألف درهم ، فاستخرج أكثرها . (تاريخ اليعقوبى ج٣ ص٦٣) .

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ١١٧ [illegible]

(٢) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج١ ص٤٧٥

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص١٩٣

كان من شروط اثبات إسم الشخص فى الديوان أن يكون حراً ، فلا يثبت فى الديوان عبد تابع لسيد داخل فى عطائه ، ويجوز إثبات الصبى ، بل يكون جاريا فى جملة عطاء الذرارى . والثالث الإسلام ليدفع عن الدين باعتقاده ، والرابع السلامة من الآفات المانعة من القتال والخامس أن يكون فيه أقدام على الحرب ، فإذا ضعفت همته عن الإقدام أو قلت معرفته به حذف اسمه من الديون (١) .

كان على أهل العطاء أن يجهزوا أنفسهم بالأسلحة ، ويذهبوا للقتال حينما يؤمرون بذلك ، وإذا لم يلبوا الدعوة للقتال فإن اسمهم يحذف من الديوان ، ويروى الطبرى(٢) أن أحداً من بنى مروان لم يكن يأخذ العطاء إلا وعليه الغزو ، فنهم من يغزو ، ومنهم من يرسل بديلا عنه ، وكان لهشام بن عبدالملك مولى يقال له يعقوب كان يأخذ عطاء هشام ـ وقدره مائتى دينار ـ ويغزو .

فرض عمر بن الخطاب العطاء للموالى ، وجعل عطاءهم كعطاء العرب ، وكتب إلى أمراء الأجناد « أن من أعتقتم من الحمراء فأسلموا فالحقوهم بمواليهم لهم ما لهم وعليهم ماعليهم ، وأن أحبوا أن يكونوا قبيلة وحدهم فاجعلوهم أسوتهم فى العطاء(٣) .

ولما آلت الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان فرض للموالى خمسة عشر ديناراً ، ثم زاد عبد الملك بن مروان عطاءهم فصار عشرين ديناراً ، وزاد سليمان

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى ج١٣ ص١٠٨
كان عمر بن عبد العزيز إذا استوجب الرجل عطاءه ومات ، أعطاه ورثته . (البلاذرى : فتوح البلدان ص٤٦٥) .
(٢) تاريخ الأمم والملوك ج١٠ ص٧٣٢
(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص٤٦٣

ابن عبد الملك عطاءهم كذلك فصار خمسة وعشرين ديناراً(١) ، ولما ولى عمر ابن عبد العزيز الخلافة جعل العرب والموالى فى العطاء والرزق والكسوة والمعونة سواء(١) ، وعندما استخلف هشام بن عبدالملك جعل عطاء الموالى ثلاثين ديناراً (٢) .

أما عن أعطيات الجند فقد حددها عمر بن الخطاب بعد فتح دمشق ، ففرض لكل رجل من جنود الشام مابين ألفين إلى ثلاثمائة (٣) . وظلت أعطيات جند الشام على هـــذا القدر الذى حدده عمر بن الخطاب ، حتى استقرت الخلافة لمعاوية ، فزاد فى أعطياتهم(٤) . وكان معاوية يقرب القبائل التى تحارب معه بزيادة أعطياتها حتى لو كانت بعيدة عن نسبه كاليمانية ، إذ كان يبذل لها الأموال أكثر مما يبذل لقيس ، فارتفع بذلك شأن اليمانية وقوى أمرها فى الشام (٥) .

اقتدى بعض خلفاء بنى أمية بمعاوية فى زيادة عطاء أهل الشام فزاد يزيد

---

(١) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ٥ ص٢٧٢

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ص١٤٨

كان العجزة والزمنى يعفون من الخدمة العسكرية ، وكان كل منهم يأخذ قدراً من المال فى كل سنة ، وكان الوليد بن عبد الملك من أكثر الخلفاء الأمويين عطفا عليهم ، فجعل لكل منهم خادما ، وزاد فى رواتبهم . (ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص٩٢) .

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص٤٥٦

(٤) زيدان : التمدن الإسلامى جـ١ ص١٥٧

بلغ جند معاويه بن أبى سفيان ستين ألفا ، كان ينفق عليهم فى السنة ستين مليون درهم ، فيلحق كل رجل منهم ألف درهم ، وحالف حسان بن مالك رئيس قحطان وسيدها فى الشام معاويه على أن يؤدى لألفى رجل من قومه ألفين ألفين ، فيلحق كل واحد منهم ألف درهم ، وإن مات أحدهم قام ابنه أو ابن عمه مكانه على أن يكون لهم الأمر والنهى وصدر المجلس وكل ماكان من حل وعقد ، وظلوا يأخذون هذا العطاء ويتوارثونه حتى خلافة مروان بن الحكم. (المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٧٢) .

(٥) بلغ من ارتفاع شأن اليمانية فى الشام أنها هددت باخراج المضرية من تلك البلاد ، فلما بلغ معاوية ذلك خشى بأسها ، ورأى أن يضربها بالمضرية ، ففرض لأربعة آلاف من قيس وغيرها من عدنان ، رظل معاوية يغزى اليمن فى البحر ومضر فى البر ، ولولا دهاء، وسعة حيلته لما استطاع التوفيق بينهما » (زيدان : التمدن الإسلامى جـ١ ص١٥٧) .

كل رجل من أهل الشام عشرة دنانير[١] ، وكان عبد الملك بن مروان يعطى جند الشام بسخاء حتى يضمن تأييدهم له . ولما ولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة أعطى بنى هاشم الخمس . وورد العطاء على قدر ما استحق الرجل فى السنة ، وزاد أهل الشام فى عطائهم عشرة دنانير (٢) ولما استخلف الوليد بن يزيد ابن عبد الملك زاد فى عطاء أهل الشام[٣] غير أن يزيد بن الوليد بن عبدالملك مالبث بعد أن ولى الخلافة سنة ١٢٧ ھ أن أنقص أرزاق بعض الجند ، فسمى الناقص (٤) .

كان العطاء يؤدى سنوياً لجند الشام فى أول السنة الهجرية (٥) . ولما تعذر أداء العطاء لهم فى موعده المحدد ، صار يؤدى لهم على دفعات أو يؤخر أداؤه عن موعده المحدد . وقد أوصى عمر بن الخطاب بأداء العطاء فى وقته المحدد بقوله : « ولا تحرمنهم عطاياهم عند محلها فتفقرهم » (٦) . وقال يزيد بن معاوية للناس فى المسجد بعد توليته الخلافة : أن معاوية كان يخرج لكم العطاء ثلاثا . أما أنا فأجمعه لكم (٧) . ولما ولى يزيد بن الوليد الخلافة خطب فى الناس قائلا : « ولكن عندى أعطياتكم فى كل سنة وأرزاقكم فى كل شهر حتى تتحسن المعيشة بين المسلمين ، فيكون أقصاهم كأدناهم ، فإذا أنا وفيت لكم فالسمع والطاعة » (٨) ، وقطع مروان بن محمد العطاء عن

---

(١) ابن كثير الدمشقى : البداية والنهاية جـ٨ ص٢٢٧

(٢) تاريخ اليعقوبى ، جـ٣ ص٤٨

(٣) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص٢٦٩

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٥ ص١٣٧

(٥) كان جند الشام يجتمعون فى الجابية لأخذ عطائهم وأرزاقهم فى عهد الراشدين . ثم نقلهم معاوية إلى معسكر دابق لقربه من الثغور .
(ابن عساكر : تاريخ دمشق جـ١ ص٣٣٨) .

(٦) الجاحظ ، البيان والتبيين جـ٢ ص٤٣

(٧) الذهبى : تاريخ الإسلام جـ٢ ص٢٦٧

(٨) الجاحظ ، البيان والتبيين جـ٢ ص٧٠

بعض جنده سنة ، فكتب إليهم كتاباً يعتذر فيه فى السنة التالية ويقول « إنما حبست عنكم العطاء فى السنة الماضية لعدو حضرنى ، فاحتجت فيه إلى المال ، وقد وجهت إليكم بعطاء السنة الماضية وعطاء هذه السنة ، فكلوا هنيئاً مريئاً ، وأعوذ بالله أن أكون أنا الذى يجرى الله قطع العطاء على يديه (١).

٣ — تزويد الجيش والأسطول بالمعدات الحربية وتأمين حدود الدولة من الأخطار الخارجية .

كان الخلفاء الأمويون ينفقون أموالا كثيرة فى هذا السبيل ، إذ كانت الفتوحات التى شغلوا بها تتطلب نفقات باهظة .

٤ — نفقات البناء والتعمير :

كان الوليد بن عبد الملك من أكثر الخلفاء الأمويين بذلا فى هذا السبيل فيذكر ياقوت(٢) أنه أنفق فى تشييد مسجد دمشق خراج الشام لسبع سنين، كما شيد الوليد دور العلاج للمرضى ودور الضيافة فى الشام(٣) .

كانت هناك نفقات أخرى لتطهير الأنهار وحفر الترع للزراعة وإنشاء المجارى التى تأخذ من الأنهار لتوصيل الماء إلى الأراضى البعيدة ، يضاف إلى ذلك النفقة على المستحقين وأسرى المشتركين (٤) .

كان بدمشق فى العهد الأموى بيتان للمال ، أحدهما يعرف ببيت المال العام (٥) ، وثانيهما بيت مال الخاصة ، وهو خزانة الخليفة ، ويحمل إليه

---

(١) المقريزى : المواعظ والاعتبار جـ١ ص٩٤

(٢) معجم البلدان جـ٢ ص٤٦٦

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص١٠٥

(٤) حسن إبراهيم حسن جـ١ ص٧٦

(٥) كان بيت المال بدمشق يقوم فى المسجد الجامع ، وهو شبه قبة مرتفعة محمولة على أساطين ، وكان له باب من حديد وأقفال والصعود إليه يكون على سلم من الخشب ، وبعد أداء صلاة العشاء وخروج الناس من المسجد تغلق الأبواب لوجود بيت المال فيه (الاصفهانى الأغانى جـ٧ ص٧٢ ، متز : الحضارة الإسلامية جـ١ ص٢٠١)

أنواع معينة من الأموال ، وقد حرص الخلفاء الأمويون على الفصل بين بيت المال وبيت مال الخليفة الخاص . وكان لعبد الملك بن مروان بيت مال خاص لايدخله إلا ما أحل له من المال الذى لم يظلم فيه مسلم ولا معاهد ، وكان يغطى منه سائر نفقاته الخاصة ويقول : « لااستحل إلا طيبا فإن ذلك فى الأولاد»[1] . وكان عمر بن عبد العزيز شديد الحرص على أموال المسلمين متعففاً عنها ، فلا يأخذ من بيت المال شيئاً لنفسه[2]، بل أنه أخذ ما بأيدى أهل بيته ونقلها بيت المال ، وسمى أموالهم مظالم[3] .

غير أن بعض الخلفاء الأمويين كان يخلط بين أموالهم الخاصة والأموال العامة على اعتبار أن من حقه الإنفاق من هاتين الخزانتين . وكانت الأموال التى يأخذها الخليفة لنفسه من بيت المال العام تعتبر قرضاً ينبغى عليه سداده[4] .

نظام ملكية الأرض فى دمشق :

لم يقسم الخليفة عمر بن الخطاب أراضى البلاد المفتوحة لأنه أراد أن تكون مورداً مالياً ثابتاً للمسلمين ، والدولة فى عهده ومن بعده ، فيذكر أبو يوسف[5] أن أصحاب رسول الله ﷺ وجماعة المسلمين أرادوا من عمر ابن الخطاب أن يقسم الشام كما قسم الرسول خيبر ، فقال عمر : إذن أترك من بعدكم من المسلمين لاشىء لهم » ، وقال عمر بن الخطاب أيضاً : « والله لايفتح بعدى بلد فيكون فيه كبير نيل ، بل عسى أن يكون كلا على المسلمين، فإذا قسمت أرض العراق بعلوجها وأرض الشام بعلوجها ، فما يسد به الثغور وما يكون للذرية والأرامل بهذا البلد وبغيره من أهل الشام والعراق ؟ » .

---

(١) البلاذرى : أنساب الأشراف ج١١ ص١٩٥

(٢) السيوطى : تاريخ الخلفاء ص١٥٤

(٣) الأصفهانى : الأغانى ج ٩ ص ٢٥٥

(٤) متز : الحضارة الإسلامية ص٢٥٣

(٥) كتاب الخراج ص١٥

وأوضح أن المقاتلة تحتاج إلى عطاء فقال : « فمن أين يعطى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج (٢) ؟ » . وذكر يحيى بن آدم (٣) أن عمر بن الخطاب قال : لولا أن يترك آخر الناس لا شيء لهم ما فتح الله على المسلمين قرية إلا قسمتها سهمانا كما قسمت خيبر سهمانا » .

ولما قدم عمر بن الخطاب إلى الجابية سنة ١٨ هـ طلب منه العرب الفاتحون تقسيم الأرض بينهم ، ولكن معاذ بن جبل قال للخليفة : « إنك إن قسمتها صار الريع العظيم فى أيدى القوم ثم يبيدون فيصير ذلك إلى الرجل الواحد والمرأة ، ثم يأتى من بعدهم قوم يسدون عن الإسلام مسدا ، وهم لا يجدون شيئا ، فانظر أمراً يسع أولهم وآخرهم (٤) . فأخذ عمر يقول معاذ ، ورفض قسمة الأرض بين الفاتحين بل وقفها على المسلمين ، وترك الأرض بأيدى أهل الذمة يزرعونها ويؤدون عنها خراجها ، فمن أسلم منهم يعفى من أداء الخراج ، وصار مابيده من الأرض بيد أصحابه من أهل قريته يؤدون عنها خراجها إلى المسلمين ، ويفرض لهم فى ديوان المسلمين مالهم وعليه ما عليهم (٥) .

لم يكن يجوز لأحد من المسلمين أن يشترى ما فى أيدى أهل الذمة من الأرض كرها لما احتجوا به على المسلمين من أن إمساكهم كان عن قتالهم وتركهم مظاهرة عدوهم عليهم ، كما كرهوا شراءها منهم طوعا لأن عمر وأصحابه أوقفوا الأرض على المسلمين حتى لا ينصرفوا إلى الزراعة وامتلاك

---

(١) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٣ ص١٤٨
(٢) أبو يوسف : الخراج ص١٤ — ١٥
(٣) كتاب الخراج ص٧٨
(٤) البلاذرى : فتوح البلدان ص١٥٨
(٥) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج١ ص٥٩٢

العقار الثابت مما يؤدى إلى انصرافهم عن الجهاد وفتور الروح العسكرية فيهم (١)

وعلى الرغم من أن عمر بن الخطاب نهى العرب عن امتلاك الأرض الزراعية فقد امتلكوا بعض أراضى دمشق من بينها أرضاً تقع فى مرج بردى – بين قرية المزة ومرج شعبان – وكان فريق من جند العرب قد عسكر فيها أثناء حصار المسلمين لدمشق ، وزرعوا أرضها ، وشيدوا الدور بها . وكانت هذه المنطقة قبيل الفتح العربى مروجا مباحة بين أهل دمشق وقراها ليست لأحد منهم . ولما تم فتح دمشق أقر عمر بن الخطاب ملكية هؤلاء المقاتلة العرب لتلك الأراضى الزراعية على أن يؤدوا عنها العشر ولكن عثمان بن عفان وخلفاءه أقروا مليكتهم لها (٢)

كما امتلك العرب أراضى أخرى كانت ملكا للروم أو لأهل دمشق الذين قتلوا أو غادروا دمشق أثناء وعقب الفتح ، فصارت هذه المزارع صافية للمسلمين ، يقبلها خليفة المسلمين كما يقبل الرجل مزرعته (٣)

ظلت تلك الأراضى الزراعية الواسعة موقوفة مقبلة (٤) تدخل قبالتها بيت المال ، حتى كتب معاوية — وهو أمير على الشام إلى الخليفة عثمان ابن عفان : أن الذى أجراه عليه من الرزق فى عمله لا يفطى نفقات من يقدم من رسل الروم ووفودها ، ووصف فى كتابه هذه المزارع الصافية ، وسأله

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق جـ١ ص٥٩٢

(٢) نفس المصدر جـ١ ص٥٩٤

(٣) قبالة الأرض أن يتولى من يتقبلها زراعتها واصلاح جسورها وسائر وجوه أعمالها بنفسه أو من ينتدب لذلك ويؤدى ما عليه من الخراج فى حينه ، ويحسب له من مبالغ قبالته وضمانه لتلك الأراضى ما ينفقه على عمارة جسورها وريها . (المقريزى ، المواعظ والاعتبار جـ١ ص٨١) .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ دمشق جـ١ ص٥٩٥

أن يقطعه إياها ليستطيع تغطية نفقاته الكثيرة ، كما ذكر له أنها ليست بيد أحد من أهل الذمة (١).

وافق الخليفة عثمان بن عفان على طلب معاوية، وأقطعه جزءاً كبيراً من تلك المزارع ، وظلت تلك الأراضى ملكا لمعاوية حتى ولى الخلافة سنة ٤١ هـ ، فأقرها على حالها ، ثم جعلها من بعده وقفاً لفقراء بيته والمسلمين(٢).

سأل بعض سكان دمشق من العرب معاويه أن يقطعهم بقايا تلك الأراضى التى لم يكن عثمان بن عفان أقطعه إياها ، فأقطع معاوية بعضها لهم ، فصارت ملكا لهم يبيعونها ويتوارثونها ، ويؤدون عنها العشر (٣) .

ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة سنة ٦٥ هـ كانت قد بقيت من تلك المزارع أرضاً لم يكن معاوية أقطع منها أحداً ، ولما سأل بعض عرب دمشق الخليفة أن يقطعهم منها نظر عبدالملك إلى أرض خراجية باد أهلها ولم يتركوا وارثاً لهم ، فأقطعهم منها ، . ورفع ما كان عليها من الخراج ، ولم يحمل خراجها أحداً من أهل القرى وجعلها أرض عشر ، ولم يزل يفعل ذلك حتى لم يبق من تلك الأراضى شيئاً (٤) .

أما أرض قرى دمشق التى بأيدى أهل الذمة ، فإن كلا من عبد الملك والوليد وسليمان رفض أن يقطعها لعرب دمشق، وأذنوا لهم فى شراء أرضهم وجعلوهم لمن اشتراها أرض عشر يبيعونها ويتوارثونها (٥) .

لما آلت الخلافة إلى عمر بن العزيز اعترض على تلك القطائع التى أقطعها أسلافه الخلفاء لبعض عرب دمشق ، وقال : إنها أرض المسلمين دفعت إلى

---

(١) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج١ ص٥٩٥
(٢) فلهاوزن ، تاريخ الدولة العربية ص٢٧٨
(٣) ابن عساكر دمشق ج١ ص٥٩٥
(٤) نفس المصدر ص٥٩٥
(٥) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ج١ ص٥٩٦

أهل الذمة على أن يأكلوا منها ، ويؤدوا عنها خراجها ، وليس لهم بيعها . غير أنه لم يعيدها إلى ما كانت عليه ، كما لم يجعلها أرض خراج ، بل تركها أرض عشر وأقر بقاءها في يد من آلت إليهم لتعذر إعادتها إلى وضعها الأول كما أبقى الأرض التي اشتراها المسلمون بغير إذن ولاة الأمر على حالها لنفس السبب ، ولم يجعل عليها ولا على من صارت إليه بميراث خراجا وإنما جعلها أرض عشر (١) .

أعلن عمر بن العزيز أن من اشترى أرضاً بعد سنة ١٠٠ هـ ، فسيحل عليه وعلى البائع العقاب ، وترد الأرض إلى صاحبها ويؤخذ الثمن من المسلم ، ويودع في بيت مال المسلمين ، وسميت هذه السنة سنة المدة (٢) .

ومما يجدر ذكره أن القاسم بن زياد عامل عمر بن عبد العزيز على غوطة دمشق كتب إليه يسأله عن أرض ابتاعها المسلمون من أهل الذمة ، فقال : « أما بعد فإن قبلنا أرضاً من أرض أهل الذمة بأيدى ناس من المسلمين قد ابتاعوها منهم وهم يؤدون العشر مما يخرج منها أفضل مما كان عليها ، فما يرى أمير المؤمنين؟ » . فكتب إليه عمر بن عبد العزيز : « إن تلك أرضاً حبسها أول المسلمين على آخرهم ، فليس لأحد أن يتحولها دونهم ، فامنع ذلك البيع إن شاء الله (٣) .

كذلك منع العرب من شراء الأرض الزراعية في خلافة كل من يزيد وهشام ابني عبد الملك . وحدث أن بلغ هشام بن عبد الملك ، أن خالد ابن عبد الله القسوى اشترى أرضاً في غوطة دمشق بغير إذنه ، فأوقع على الوليد بن عبد الرحمن — عامله على الغوطة — غرامة مقدارها أربعمائة

---

(١) نفس المصدر جـ١ ص٥٩٦

(٢) فلهاوزن تاريخ الدولة العربية ص٢٧١

(٣) ابن عساكر ، تاريخ دمشق جـ١ ص٥٨٨ .

دينار ، وأمر بأن يضرب وكيلي القسرين بالسياط ، ويطاف بهما عشر مرات ، وينادى عليهما هـــذا جزاء من اشترى أرضاً بغير إذن أمير المؤمنين (١) .

على أن العرب عادوا إلى شراء الأرض من أهل الذمة بعد وفاة هشام بن عبد الملك سنة ١٢٥ هـ ، ولم يمنعوا من ذلك حتى نهاية الدولة الأموية (٢) .

---

(١) نفس المصدر ج١ ص٥٨٧

(٢) حسينى ، الإدارة العربية ص٢٢٩

الباب الثالث

٣ — المظاهر الإجتماعية فى دمشق فى العهد الأموى

١ — عناصر السكان وأثرها فى الحياه الإجتماعية .

(ا) العرب

حافظت القبائل العربية التى استقرت فى منطقة دمشق عقب الفتح العربى على تقاليدها القبلية لفترة طويلة ، وأدى اختلاط العرب فى دمشق بغيرهم من عناصر السكان الأصليين إلى تأثرهم بالبيئة الجديدة التى عاشوا فيها(١) . ويذكر هل(٢) أن عدد العرب فى دمشق تزايد فى العهد الأموى حتى بلغوا فى عهد الوليد بن عبد الملك مائة وعشرين ألف نسمة .

انحاز الأمويون للعرب على الرغم من أن الدين الإسلامى قام على أساس المساواة بين المسلمين كافة لافرق فى ذلك بين عربى وعجمى ، يؤيد ذلك ماورد فى القرآن الكريم من الآيات البينات التى تجعل التقوى أساس الحكم بين المؤمنين (أن أكرمكم عند الله اتقاكم)(٣). وما أثر عن الرسول أنه قال : « لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » .

كان بعض العرب فى دمشق فى العهد الأموى يشتغلون بشؤون السياسة والحكم ، على حين نجد فريقاً آخر منهم ممن أقام فى دمشق بعد الفتح يمتلك الأراضى ويشتغل بالزراعة(٤) .

---

(١) ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ١ ص ١١٨

(٢) الحضارة العربية ص ٧٠

(٣) سورة الحجرات ، ٢٦ ، ١٢

(٤) ابن عساكر ، التاريخ الكبير جـ١ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

وفد إلى بلاد الشام كثير من العرب الذين ينتمون إلى قبائل مختلفة مع الجيوش العربية التى فتحت تلك البلاد ، كما هاجر اليها ، بعض العرب وبخاصة من قيس ، واستقر بعضهم فى منطقة دمشق . وكان يقيم فى هذه المنطقة قبائل كلب وقضاعه إلى جانب قبائل أخرى من الأزد . وقد اكسبتهم الحروب المستمره مع الروم خبره بشؤون الحرب ، ومن ثم تفوقوا من هذه الناحية على سائر العرب(١).

سادت العصبية القبلية منطقة دمشق خلال الحكم الأموى ، وكان لها تأثير بالغ فى حياة العرب السياسية والإجتماعية والاقتصادية والثقافية وكان العرب فى تلك المنطقة ينقسمون إلى يمانية ومضرية ، وقد ادى انحياز الخلفاء الأمويين لأحد الفريقين إلى قيام العداء بينهما ، فازداد نفوذ اليمانية فى منطقة دمشق فى عهد معاوية بن أبى سفيان بعد أن تزوج من قبيله كلب على حين ضعف شأن قيس(٢).

سار يزيد على سياسة أبيه فى تقريب اليمانية والإعتماد عليهم ، وكان كل جيشه الذى أرسله إلى الحجاز منهم(٣) وقد أدى انحياز الأمويين اليمانية إلى اثارة القيسية . وتجلى ذلك بعد وفاة معاويه الثانى ، ذلك أن زعيم قيس الضحاك بن قيس الفهرى انحاز إلى جانب عبد الله بن الزبير ، على حين حافظت اليمانية على ولائها للأمويين(٤).

ولما ولى عبد الملك بن مروان الخلافة عمد إلى التخفيف من حدة العصبية بين اليمانية والقيسية فكان يجمع زعماءهم للتوفيق بينهم(٥).

---

(١) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية حـ١ ص١٤٨

(٢) Lammens : Etudes sur Le regne du Colife Mo. Awic, p. 7.

(٣) تاريخ اليعقوبى حـ٢ ص٢٧٤

(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حـ٥ ص٥٣٠ — ٥٣٨

(٥) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص٢٠٥

لم يتعصب الوليد بن عبد الملك لقبائل قيس لأنه لم يكن فى حاجة إلى ذلك ، وكان عند أهل الشام من أفضل خلفائهم [١]. وحذا سليمان بن عبد الملك حذو أخيه ، فلم يظهر تعصباً لأحد الفريقين [٢].

ولما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة ،لم يتعصب لقبيلة دون أخرى ، ولم يول واليا إلا لكفايته وعدله . كذلك لم يظهر هشام بن عبد الملك تعصباً لقبيلة دون أخرى ، وإنما جعل نفسه فوق العصبيات [٣] . ولما استخلف الوليد بن يزيد تعصب للمضريين لأن أمه كانت منهم وأقصى العنصر اليمنى ، فكان ذلك مما حمل هذا العنصر على تدبير المؤامرت للتخلص منه [٤] . ثم خلفه يزيد بن الوليد فتعصب لليمانية ، وأساء اليمنيون فى عهده معاملة المضريين مما ترتب عليه قيامهم ببعض الثورات فى كل من حمص وفلسطين [٥].

ولما ولى مروان بن محمد الخلافة تعصب للقيسية ، فثار عليه اليمانية فى دمشق وبعض مدن الشام الأخرى ، غير أنه لم يلبث أن أخمد ثورتهم ، كما قضى على ثورة اليمانية فى فلسطين [٦] .

(ب) الموالى :

الموالى هم المسلمون من غير العرب [٧] ، وقد أخذ عددهم فى الازدياد بعد أن انتقلت الخلافة إلى الأمويين نتيجة لتوالى الفتوح العربية .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٩٧

(٢) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٢٥٣

(٣) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص ٣٧٠

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٥ ص ٢٦٥

(٥) الدينورى : الأخبار الطوال ص ٣٣٢

(٦) تاريخ اليعقوبى : جـ ٣ ص ٧٦ — ٧٧

(٧) Lammens. Le Califat de Yazid 1er, p. 121.

نقل معاوية بن أبى سفيان عدداً كبيراً من الفرس إلى المدن الساحلية بالشام . وقد استقر بعضهم فى منطقة دمشق . واشتغلوا بزراعة أرض كان يمتلكها بعض العرب(١) .

وكان يوجـــد فى مدينة دمشق فى العهد الأموى درب يسمى درب الأعاجم(٢). يقيم فيه موال من الفرس . كما كان يقيم فى بعض قرى دمشق فريق من الموالى الخراسانيين يشتغلون بالزراعة والرى(٣).

كان الأمويون يستنكفون من زواج العرب بالموالى ولو كانوا من أهل المنزلة الرفيعة أو أهل العلم والتقوى. وكان هذا المنع شائعا قبل الإسلام : وعلى الرغم من أن الإسلام لم يمنع زواج الموالى بالعرب ، فإنهم ظلوا يستنكفون منه(٤).

فرض عمر بن الخطاب العطاء للموالى،وجعله مساويا لعطاء العرب(٥). وظل الحال على ذلك حتى ولى معاويه بن أبىسفيان الخلافه ... فجعل عطاء الموالى خمسة عشر دينارا ، ثم زاد عبد الملك بن مروان عطاءهم حتى صار عشرين دينارا ، ولما آلت الخلافة إلى سليمان بن عبد الملك زاد عطاءهم خمسة دنانير ، وجعل عمر بن العزيز عطاء الموالى كعطاء العرب ولما استخلف هشام بن عبد الملك جعل عطاء الموالى ثلاثين دينارا(٦).

كان الأمويون يترفعون على الموالى فى بادىء الأمر ، ثم أفسحوا لهم المجال للقيام بأعمال هامة فى الدولة فاتخذ . معاويه بن أبى سفيان سليمان بن

(١) اليعقوبى : البلدان ص ٣٣٠
(٢) ابن عساكر : التاريخ الكبير ج١ ص٢٤٩
(٣) الشابشتى : الديارات ص١٣٧
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج١ ص٢٦٠
(٥) البلاذرى : فتوح البلدان ص٤٦٢
(٦) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج٢ ص١٤٨

سعد كاتبا له . كما أن حاجبه كان مولى يسمى صوان(١) . كذلك اتخذ عبد الملك ابن مروان أبا زعيزعه — وهو من الموالى — كاتبا لرسائله ، وكان يتمتع بمنزلة كبيرة عنده(٢) . وكتب للوليد بن عبد الملك صالح بن عبد الرحمن وهو من الموالى(٣) وكان أبو عبيده — مولى سليمان بن عبد الملك — حاجبا له(٤) . واتخذ عمر بن عبد العزيز مولى يسمى مزاحم حاجبا له وبلغ من ثقته فيه أنه كان يقول له : قد جعلتك عينا على ، أن رأيت منى شيئا ، فعظنى إليه(٥) ، وكان يكتب لهشام بن عبد الملك المولى سالم بن جبله ، وكان يعرف اليونانية ، وترجم رسائل لارسطو(٦) .

كان من أشهر موالى دمشق فى العهد الأموى مكحول الشامى ، وأصله من بلاد السند ، وتعلم بالعراق ، يقول الزهرى : العلماء أربعة ، سعيد بن المسيب بالمدينة ، والشعبى بالكوفه ، والحسن البصرى ، بالبصرة ومكحول بدمشق . ولم يكن فى زمنه ابصر بالفتيا منـــه(٧) . وبلغ من علو منزلته بدمشق أن يزيد بن عبد الملك ، كان يحضر مجلسه(٨) .

وكان من أشهر موالى دمشق عبد الحميد بن يحيى — وهو فارسى الأصل — وكان كاتبا مشهورا ، وبه يضرب المثل فى البلاغه ، حتى قيل : « فتحت

---

(١) المسعودى : التنبيه والاشراف ص٣٦١
(٢) البلاذرى : انساب الاشراف ج١١ ص١٩٥
(٣) المسعودى : التنبيه والاشراف ص١٧٤
(٤) نفس المصدر ص٢٧٥
(٥) الذهبى : تاريخ الاسلام ج٤ ص٥٣
(٦) ابن النديم : الفهرست ص١١٧
(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٢ ص١١٦
(٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ج٥ ص٢٩٩

كان ليزيد بن عبد الملك مولى خراسانى يتمتع بمنزلة كبيرة عنده ، حتى ان أهل يزيد ابن عبد الملك لما غضبوا منه بسبب ادمانه الشراب والاستماع الى الغناء ، ولم يستطيعوا اقناعه بالعدول عن ذلك ، كلموا له هذا المولى ، فاقبل على يزيد يعظه وينهاه عن اتيانها كمحرمات الله . (الأصبهانى : الأغانى ج١٥ ص١٢٠ — ١٢١) .

الرسائل بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد » . وقد اتخذه مروان بن محمد ـ آخر خلفاء بنى أميه ـ كاتبا له[١] .

تغير تدريجيا فى العهد الأموى نظرة الأمويين إلى الموالى . وتساوى الموالى بالعرب فى المعاملة فى عهد عمر بن عبد العزيز[٢] ، بل نسب أمراء أمويون إلى بعض الموالى ، فكان مسلمه بن هشام بن عبد الملك يكنى باسم مولى يدعى . أبا شاكر[٣] . كما لقب مروان بن محمد بالجعدى نسبة إلى الجعد ابن درهم من موالى دمشق ، وكان مؤدبا لمروان[٤] .

على أن الموالى فى دمشق طوال العهد الأموى ظلوا محرومين من بعض المناصب الكبرى التى تحتاج إلى شرف وعصبية كالقضاء ، ولما أراد عمر ابن عبد العزيز أن يولى مكحولا القضاء ، قال مكحول : « لا يقضى بين الناس الا ذو شرف فى قومه » ، وأنا مولى[٥] .

جـ ـ الرقيق :

كثر الأرقاء فى دمشق فى عهد الأموى تبعا لتوالى الفتوح وبخاصة فى عهد الوليد بن عبد الملك حتى أن الرجل العربى كان يمتلك مابين عشره إلى مائة، فكان لخالد بن يزيد بن معاويه أربعمائة[٦] . واجتمع أكثر من ذلك لدى سليمان بن عبد الملك[٧] .

كان الأرقاء يختلفون فى أجناسهم وأشكالهم وألوانهم، ولم يكونوا جميعا من الأسرى ، بل كان بعضهم يشترى من أسواق النخاسة وكان العرب

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص٣٠٧
(٢) ابن سعد : كتاب الطبقات الكبير جـ٥ ص٢٧٧
(٣) الاصفهانى : الأغانى جـ٧ ص٣
(٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٩ ص٣٥٠
(٥) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ١ ص٢٦١
(٦) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٨ ص٨
(٧) الاصفهانى : الأغانى جـ١٥ ص٣٤

يشترونهم لزراعة الأرض أو للخدمة فى دورهم(١) .

كانت الدولة تمتلك رقيقا خاصا يسمى رقيق الخمس ، وهو حصتها من أسرى الحروب الذين لم يسرحوا أو يوزعوا على الجند المحاربين ، وقد تكاثر هذا النوع من الأسرى فى دمشق فى عهد الوليد بن عبد الملك وأخيه سليمان ، فقد أسر موسى بن نصير ثلاثمائة ألف أسير من أفريقية ، أرسل خمسهم إلى الوليد.(٢) . وعاد موسى بن نصير إلى دمشق بعدد كبير من الأسرى الاندلسيين(٣) وبلغ من كثرة رقيق الخمس فى دمشق أن سليمان بن عبد الملك اعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم(٤) . كما أن عبيد بن عبد الرحمن القيسى — والى أفريقيا من قبل هشام بن عبد الملك — قدم على الخليفة بدمشق ومعه من الغنائم أموال كثيرة ، وعشرون ألف عبد(٥).

كان هناك نوعان من الرقيق ، هما الخصيان والجوارى أما الخصيان فقد

---

(١) أحمد أمين : فجر الإسلام ٩١

نصح الإسلام بحسن معاملة الأرقاء والعمل على تحريرهم ، قال تعالى « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين احسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت ايمانكم ان الله لا يحب من كان مختالا فخورا » (سورة النساء : ٥ : ٣٥) وللعتق أسباب كثيرة أهمها فى الإسلام اظهار العبد التقوى أو دخوله فى الإسلام أو فداء من يمين أو وفاء بنذر أو التماسا للثواب أو شكرا لله على نعمه (المنذرى : الترغيب والترهيب جـ٣ ص٦١ — ٦٣)

لم يكن العتق يقطع الصلة بين العبد وسيده بل تبقى بين الطرفين صلة تسمى الولاء ، فالمعتق مولى العاتق ، ويترتب على الولاء أن السيد يدفع دية عن مولاه إذا ارتكب جريمة قتل وإن يرث السيد معتقه ، قال عمر بن عبد العزيز مولى العتاق يورث ولا يرث . (ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٣ ص١٧٢) .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ١ ص١٤٨

(٣) ابن الأثير الكامل فى التاريخ جـ٤ ص٧٤٨

(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٣ ص١٢٥

(٥) تاريخ اليعقوبى : جـ٣ ص٥٩

شاع استخدامهم فى دمشق منذ عهد معاويه بن أبى سفيان(١). وللخصاء أغراض أهمها استخدامهم فى دور النساء غيرة عليهن فلما شاع الحجاب بين المسلمين، واستخدموا الخصيان فى دورهم، عمد تجار الرقيق إلى خصاء بعض الأرقاء وبيعهم بأثمان عالية(٢).

كان مصدر الجوارى فى الإسلام سبى الفتوح، فما يقع فى أيدى الفاتحين العرب يعتبر سبيا مسترقا يقسم كالغنائم. وكان مصير هذه السبايا اما الخدمة فى القصور والدور أو البيع أو الإهداء(٣).

كان العرب فى دمشق فى العهد الأموى يشترون الجوارى اللائى يجدن الغناء بأسعار مرتفعة، فاشترى يزيد بن معاوية جارية بعشرة آلاف دينار(٤)، كما اشترى يزيد بن عبد الملك حبابه بعشرين ألف دينار(٥). وكان بعض الناس يشترون الجوارى ويعلموهن الغناء ثم يبيعهن بأثمان باهظة(٦).

كان لبعض الجوارى شأن كبير فى قصر الخلافة بدمشق نخص بالذكر منهن حبابه، وكانت تجيد الغناء والضرب بالعود، وبلغ من علو منزلتها

---

(١) السيوطى، تاريخ الخلفاء ص١٣١

(٢) زيدان: التمدن الإسلامى جـ٥ ص٢٦

(٣) كانت الجوارى تعتبر من أعظم الهدايا عند بنى أمية فمن أحب التقرب إلى أحدهم أهداه جارية اتقنت لونا يعلم أنه راغب فيه، يؤيد ذلك أن سعده بنت عبد الله بن عمرو ابن عثمان زوجة يزيد بن عبد الملك اشترت جارية تتقن الغناء — وكان يزيد يعجب بها — وأهدتها إليه، فعظم قدرها عنده (الاصفهانى: الأغانى جـ١٥ ص١٢٤).

(٤) الحسن عبد الله: آثار الأول ص١٢٦

(٥) الأصفهانى: الأغانى جـ٨ ص١٤٣

(٦) السيوطى، تاريخ الخلفاء ص١٤٨

عنده أنها كانت تتدخل فى تولية وعزل الولاة ، ولما ماتت حزن عليها يزيد حزنا شديدا[(١)].

شاع استخدام السرارى[(٢)] فى دمشق فى العهد الأموى ، واتخاذهن أمهات أولاد ، بل أن بعض الأمويين كانوا يفضلون الاماء من غير العرب على العربيات الحرائر[(٣)]. وكانت السرية أقل منزلة من الزوجة[(٤)].

شكل الأرقاء فى دمشق فى العهد الأموى طبقة اجتماعية تميزهم ، ومما زاد فى تماسك هذه الطبقة أن أفرادها تزوجوا من نفس طبقتهم ، الأمر الذى أدى إلى تقليل الفوارق الجنسية والثقافية بينهم ، وقد تعلم بعض أفراد هذه الطبقة اللغة العربية واعتنقوا الأسلام[(٥)].

(د) أهل الذمة :

تمتع أهل الذمة فى دمشق بالحرية الدينية ، فقد تركهم العرب أحراراً فى عقائدهم على أن يؤدوا الجزية ، وابقوا الأرض فى أيديهم يزرعونها ، ويؤدون خراجها .

لما فتح العرب المسلمون دمشق سنة ١٥ هـ كتب أبو عبيدة عامر بن الجراح إلى عمر بن الخطاب يخبره بما حققه المسلمون من نصر مبين، فكتب

---

(١) المسعودى ، مروج الذهب جـ٢ ص١٢٥

(٢) قال عمر بن الخطاب عن السرارى : ليس قوم أكيس من أولاد السرارى لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم . (الكامل المبرد جـ٢ ص١٠١) .

(٣) الجاحظ : البيان والتبيين جـ٢ ص٤٨

(٤) كان بنو أمية يستنكفون أن يلى الخلافة أبناء أمهات الأولاد ، فلما ولى يزيد بن الوليد الخلافة ظن الناس أن ملك بنى أمية سيزول ، وكانت أمة ابنة يزدجرد كسرى فارس، أسرت بخراسان، وأرسلت إلى الوليد بن عبدالملك، فولدت له يزيد، وكان إبراهيم بن الوليد أمه بربرية . كما أن مروان بن محمد كانت أمه كردية . (ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٤ ص١٠١) ؛ (الاصفهانى : الأغانى جـ٧ ص١٧١) .

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين جـ٢ ص١٠٦

إليه عمر بن الخطاب « أقر بما أفاء الله عليك فى أيدى أهله ، وأجعل الجزية عليهم بقدر طاقتهم ، تقسمها بين المسلمين ، ويكونون عماد الأرض ، فهم أصحابها وأقوى عليها ، ولا سبيل لك عليهم ولا للمسلمين معك أن تجعلهم فيئا ، وتقسمهم للصلح الذى جرى بينك وبينهم ، ولأخذك الجزية منهم ، بقدر طاقتهم ، فإذا أخذت منهم الجزية فلا شيء لك عليهم ، فأضرب عليهم الجزية وكف عنهم السبي ، وامنع المسلمين من ظلمهم والأضرار بهم وأكل أموالهم إلا بحلها ، ووف لهم بشرطهم الذى شرطت لهم فى جميع ما أعطيتهم[١] . » وفى الحقيقة كانت معاملة المسلمين لأهل الذمة تنم عن تسامح وعطف وكرم ، فكانوا يؤدون الجزية كل بحسب قدرته ، وكان يعفى من الجزية النساء والأطفال وذوو العاهات والرهبان إلا إذا كانوا اغنياء ، وكان أهل الذمة من التجار يؤدون العشر عن متاجرهم . وذكر فون كريمر[٢]. أن الجزية التى فرضت على أهل الذمة لم تكن شيئاً مجحفا ، كما ذكر فان فلوتن[٣]. أن الجزية ليست فادحة بالنسبة لما كانت تقوم به الحكومة العربية من إنشاءات واصلاحات .

نهى عمر بن الخطاب جباة الجزية فى بلاد الشام عن تعذيب أهل الذمة لحملهم على اداء الجزية . وقال : « من لم يطق الجزية خففوا عنه ، ومن عجز فأعينوه » وبلغ من شدة تسامحه وعطفه عليهم أنه لما قدم إلى الجابية سنة ١٨ هـ رأى قوما مجذمين من النصارى ، فأمر باعطائهم من الصدقات وإجراء القوت عليهم[٤]. وشكا إليه أهل الذمة فى بلاد الشام ممن ينزل عليهم من المسلمين بقولهم ياأمير المؤمنين أن ضيوفنا من المسلمين يكلفونا ما لا نطيق

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٨١

(٢) الحضارة الإسلامية ص ٨٣

(٣) السيادة العربية ص ٢٠

(٤) ابن عساكر : التاريخ الكبير ج١ ص ١٧٩

فقال : « لا تطعموهم إلا مما تأكلون[١] » . كما أحسن الخلفاء الأمويون معاملة أهل الذمة فى دمشق ، فأمر عمر بن عبد العزيز بأن يجرى القوت من بيت المال على من كبرت سنه ، وقلت مكاسبه من أهل الذمة[٢] . ولما استخلف يزيد بن الوليد ألقى فى الناس خطاباً تعهد فيه بحسن معاملة أهل الذمة[٣] .

لما رأى أهل الذمة فى دمشق وغيرها من مدن الشام وفاء المسلمين لهم ، وحسن مسيرتهم معهم ، صاروا عوناً لهم على أعدائهم من الروم[٤]. وليس أدل على تسامح الأمويين مع أهل الذمة مما ذكره أحد كبار البطارقة : أن العرب الذين مكنهم الرب يعاملوننا على أنهم ليسوا أعداء النصرانية بل يحترمون ملتنا ، ويوقرون قسيسينا ، ويمدون يد المعونة إلى كنائسنا وأديرتنا[٥] .

لم يتدخل الخلفاء فى شعائر أهل الذمة فى دمشق بل أطلقوا لهم الحرية الدينية ، وحرصوا على ألا يتعرض أحد لهم بسوء ومع ذلك فإن بعضهم كعمر بن عبد العزيز فرض عليهم بعض القيود ، فأمر ألا يركب نصرانى سرجا ولا يلبس قباءا ولا طيلسانا ، ولا يمشى إلا مفروق الناصية (٦) . ويرجع السبب فى فرض تلك القيود على أهل الذمة إلى سهولة التمييز بينهم وبين المسلمين . ولم تكن ثمة ضرورة عقب الفتح العربى لإلزام النصارى بلبس نوع من الثياب يخالف ما يلبسه المسلمون، إذ كان لكل من الفريقين

---

(١) ابن عساكر ، تاريخ دمشق ج١ ص١٩٧
(٢) البلاذرى : أنساب الأشراف ج٧ ورقة ٤٠٦
(٣) الجاحظ : البيان والتبيين ج٢ ص٧٠

Iemmens : Etudes sur le régne du calife omoiyade Mo; Awia, p. 425.

(٤) أبو يوسف . الخراج ص٨٠
(٥) ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ص ١٤٨ .
(٦) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص٩٩ .

وقتذاك ثيابه الخاصة ، وكان النصارى يفعلون ذلك من تلقاء أنفسهم دون جبر أو إلزام .[١]

كذلك لم يتعرض الخلفاء لأديرة النصارى فى قرى دمشق بل أبقوا عليها، ومن أشهرها .

دير صليبا ، وقد اتخذه خالد بن الوليد مقراً لقيادته إبان الفتح العربى وخفف الخراج عن أهله لأنهم ساعدوه على دخول دمشق ، ووافق أبو عبيدة عامر بن الجراح على ذلك [٢] ، ومن أديرة دمشق دير سمعان . وقد قضى عمر بن عبد العزيز أيامه الأخيرة فيه [٣] ، ودير مران وقد بنى غير بعيد عن ظاهر دمشق وعلى مرأى منه فوق أرض مرتفعة وسط أشجار الكروم والبساتين الزاهرة عند جبل قاسيون ، وكان هذا الدير مزيناً بالفسيفساء والمرمر النفيس [٤] .

استعان العرب بعد الفتح بكتاب من أهل الذمة للعمل فى دواوين دمشق فكان سرجون بن منصور الرومى كاتباً لخراج معاوية ، كما كتب ليزيد ابن معاوية وظل يلى كتابة خراج دمشق حتى نقل عبد الملك بن مروان الدواوين إلى العربية [٥] .

وعلى الرغم من أن عبد الملك بن مروان نقل الدواوين إلى العربية ، إلا أنه هو وخلفاؤه استعانوا بأهل الذمة فى الدواوين ، فكان لعبد الملك ابن مروان كاتب نصرانى يقال له شمعل [٦] ، كما اتخذ عبد الملك مؤدبا

---

(١) ترتون : أهل الذمة فى الإسلام ص ١٢٥ .

(٢) البلاذرى : فتوح البلدان ص ١٣٩ .

(٣) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ص ٣٥١ .

(٤) ابن فضل الله العمرى : مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار ص ١٥١ .
Ency of Islam Art Deir Murran

(٥) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٥ ، ٢٩ .

(٦) نفس المصدر ص ٢٤ .

نصرانيا لأخيه عبد العزيز يدعى « أثناسيوس[١] » . وكان يكتب لسليمان ابن عبد الملك رجل نصرانى يقال له « ابن بطريق » أشار عليه ببناء مدينة الرملة[٢]. كذلك كان لهشام بن الملك كاتب نصرانى يسمى تاذرى بن أسطين قلده ديوان حمص[٣].

كان أطباء دمشق فى العهد الأموى من أهل الذمة ومن أشهرهم ابن أثال، وقد اختاره معاويه ليكون طبيبا خاصا له ، وكان يثق فيه[٤]، كذلك كان أبو الحكم النصرانى من أشهر أطباء دمشق فى العهد الأموى ، وكان عالما بأنواع العلاج والأدوية ، وقد عمر أبو الحكم طويلا حتى تجاوز عمره مائة عام . ولما ولى معاويه ابنه يزيد أميراً على الحج وجه معه أبا الحكم ليكون طبيبا خاصا له ، واتخذه عبد الملك بن مروان فيما بعد طبيبا له[٥] .

ومن أطباء أهل الذمة الذين اشتهروا فى ذلك العهد ، ما سرجون اليهودى ، وكان عالما بالطب . وقد ترجم كتاب أهرن القس بن أعين فى الطب فى عهد مروان بن الحكم ، ومما يجدر ذكره أن عمر بن عبد العزيز أخرج هذا الكتاب من خزائن الكتب لينتفع به المسلمون ومن تصانيف هذا الطبيب كتاب « قوى العقاقير ومنافعها ومضارها[٦] » .

وكان بعض أهل الذمة فى دمشق فى العهد الأموى يجيد دراسة علوم اليونان ، فقربهم الأمويون اليهم[٧] حتى أصبحت دمشق مركز النقل معارف

---

(١) ارنولد : الدعوة إلى الإسلام ص٦٠

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٣٠

(٣) نفس المصدر : ص٣٨

(٤) ابن أبى أصيبعه : طبقات الأطباء جـ١ ص١١٦ — ١١٧

(٥) ابن القفطى : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٢٣

(٦) القفطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء ص٢١٣

(٧) يرجع إلى القديس يحنا الدمشقى الفضل فى نقل الفكر اليونانى إلى دمشق فى العهد

مدرسة الإسكندرية وينسب إلى خالد بن يزيد بن معاويه اهتمامه بعلوم الكيمياء والطب والنجوم ، وقد استعان براهب من دمشق يدعى مريانس فى تصنيف كتبه[1].

حرص الخلفاء الأمويون على تحقيق العدالة لأهل الذمة ،ورد حقوقهم المغتصبه اليهم ، يؤيد ذلك أن معاويه بن أبى سفيان حبس خالد بن المهاجر لأنه قتل ابن أثال ، وألزم بنى مخزوم دية طبيبه ، وكانت اثنى عشر ألف درهم[2].

٢ — الحياة العامة فى دمشق

(ا) القصور والدور :

تشبه الخلفاء الأمويون بأباطرة الروم فى الظهور بمظهر الأبهة فى حياتهم الخاصة ، فاتخذ معاوية قصراً منيفا سمى بالخضراء ، وكان هذا القصر من المبانى التى شيدت فى العصر الرومانى ، فأعاد معاويه بنـــاءه على أحسن صورة[3] حتى كان هذا القصر مزخرفا بالذهب الوهاج والمرمر الناصع وقد إزدانت جدراته بالفسيفساء ، واعمدته بالرخام ، وكانت أرض القصر مزخرفة بالفسيفساء ، كما كانت الغرف مطلية بماء الذهب ومرصعة بالجواهر الثمينة ، ولطف جوة النافورات والمياه الجاريه والحدائق الغناء بأشجارها الظليلة الوارفة[4].

= الأموى . وكان يلعب بدقائق الذهب لفصاحة لسانه ، وكان يؤلف باللغة اليونانية ، ويجيد الكلام بالعربية ، وقد صنف يحنا عددا من روائع الكتب من أهمها كتاب ينبوع الحكمة الذى لخص فيه آراء المشاهير من المؤلفين الكنسيين الذين تقدموه . وكان لأقوال يحنا الدمشقى وتلميذه ثيودور أثره فى نشأة طائفة القدرية .

(كريمر : الحضارة الإسلامية ص٧٢).

(١) ابن النديم : كتابه الفهرست ص٣٥٤

(٢) الاصفهانى : كتاب الأغانى ج١٦ ص١٩٧

(٣) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج١ ص٢٤٣

(٤) سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ص١٦٩

كما شيد معاويه لزوجته ميسون قصرا يشرف على الغوطه ، وزينة بأنواع الزخارف ، ثم أسكنها به مع وصائف لها،فكانت تجلس فى روضة القصر وحولها الوصائف فتنظر إلى الغوطة وأشجارها،وتستمع إلى تجاوب الطير فى أوكارها(١).

كذلك شيد الوليد بن عبد الملك قصرا بناه بالحجارةوفى أروقته أعمده فرادى وازواجا ، ويحيط به الحدائق التى تحتوى على أنواع مختلفة من الأشجار ، واتخذ سليمان بن عبد الملك قصرا فخم البناء عند ميضأة جيرون سمى بالصفراء(٢). وكان لأم البنين زوجة الوليد من عبد الملك قصر بالفراديس(٣).

وتعتبر القصور التى اتخذها بنو أمية فى الصحراء نموذجا لقصورهم فى دمشق ، وكان من أشهر هذه القصور قصر المشتى ، ويحتوى من الداخل على ثلاثة أروقة ، ويؤدى مدخل القصر إلى فناء مكشوف ينبسط فى وسطه حوض ماء إلى دهليز ينتهى إلى قاعة ذات ثلاثة محاريب مقببه وقد زينت واجهة الباب الخارجى لهذا القصر بالنقوش(٤).

كانت منازل الأغنياء فى دمشق تتألف أحيانا من طابقين، كما كانت تشتمل على أبهاء عديده عن يمينها وشمالها أبواب عدة ذات ستائر كثيفة تفتح عند الضرورة . وكان الديوان وسائر الغرف تفرش فى الشتاء بالطنافس الفاخرة ، وفى الصيف الحصر الغالية .وكانوا يستخدمون المواقد فى الشتاء

---

(١) الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ص ٤٣٥
(٢) ابن كثير الدمشقى : البداية والنهاية جـ٩ ص١٧٧
(٣) ابن عساكر : التاريخ الكبير جـ١ ص١٩٩
(٤) بروكلمان : تاريخ الشعوب الإسلامية جـ١ ص١٨٥— ١٨٦
Ency. of Islam : Art Mshatta.

لتدفئة الغرف . أما في الصيف فكانت النافورات التي حرص أهالي دمشق على إنشائها في بيوتهم تساعد على تلطيف حرارة الجو[١] .

كانت بيوت دمشق تصل إليها مياه الشرب ، ومع أن نهر بردى كان يمد المدينة بما تحتاجه من الماء فإن الأمويين أظهروا مهارة منقطعة النظير في تجهيز بيوت المدينة بما تحتاجه من الماء ، وذلك بإقامة أحواض تنبثق منها المياه الصافية ، كما أقاموا سبعة جداول تجري في أنحاء المدينة بالإضافة إلى المجاري العديدة التي كانت تربط كل منزل بالمجرى الرئيسي[٢] .

كانت حفلات الاستقبال في قصور الخلفاء الأمويين على نوعين عامة وخاصة ، ففي الحفلات العامة كان الخليفة يجلس في صدر قاعة الاستقبال وعلى يمينه أمراء البيت الأموي ، وعلى يساره كبار رجال الدولة ورجال القصر ، ويقف أمامه من يريد التشرف بمقابلته من رسل الملوك وأصحاب الحاجات وغيرهم[٣] .

أما الحفلات الخاصة فكانت تقتصر على أفراد البيت الأموي وكبار موظفي الدولة ورجال الخليفة المقربين إليه[٤] ، وفي مثل تلك المناسبات كان الخلفاء الأمويون يلبسون أفخر الثياب[٥] . وقد ذكر أن الوليد بن

---

(١) الاصطخري : المسالك والممالك ص٤٥
سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ص١٦٩ — ١٧٠
(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص١٦٧
(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسي ج١ ص٥٨١
(٤) سيد أمير على ، مختصر تاريخ العرب ج١ ص١٧١
(٥) كانت الحفلات الخاصة في عهد هشام بن عبد الملك تقام في البهو الفسيح المبلط بالمرمر المعدود بالأسلاك المذهبة والمفروش بالطنافس الحمراء الموشاة بالذهب ، وكان الخليفة يحضر تلك الحفلات الفاخرة مرتديا الملابس الحريرية الحمراء ومتطيبا بالمسك والعنبر ، وبين يديه مسك مفتوت في أواني ذهب يقلبه بيديه ، فتفوح رائحته . (الأصفهاني : ج٦ ص٧٦) .

يزيد كان يرتدى الملابس الحريرية الموشاة بالقصب والمرايل المصنوعة من الحرير والدمقس(١) .

(ب) الأخلاق والعادات :

لما فتح العرب دمشق انتقلوا بطباعهم وعاداتهم من غضاضة البداوة إلى رونق الحضارة(٢) ، وكانت الحضارة وما تقتضيه من شرف ورخاء تغالب المناقب التى تميزوا بها من قبل كالوفاء والكرم والنجدة والشجاعة .

كان أهالى دمشق يحرصون على قضاء أوقات فراغهم فى النزهة . ومن الأيام المفضلة عندهم يوم السبت وفى نفس هذا اليوم يترك الناس أولادهم ينطلقون إلى المنتزهات يمرحون ويطربون ، ولا يعودون إلى منازلهم إلا ليلا(٣) .

وكان الأمويون فى دمشق يعنون بتعليم أبنائهم الصفات الحميدة . ويتضح ذلك من توجيهات الخلفاء لمؤدبى أبنائهم ، فقال عبد الملك بن مروان لمؤدب أولاده « علمهم الصدق ، كما تعلمهم القرآن ، وجنبهم السفلة ، فإنهم أقل الناس أدباً ...(٤) . كما قال سليمان بن عبد الملك لمؤدب ولده : « قد وليتك تأديبه ، فعلمه القرآن ، ورو‌ه الأشعار ، فإن الشعر ديوان العرب ، وفهمه أيام الناس ... ولا تفتر عنه ليلا ولا نهاراً ... واحمله على طلاقة الوجه وحسن المعشر ، وكظم الغيظ ، والوفاء بالعهد(٥) .

كانت حفلات الزواج فى دمشق يكثر فيها المرح والطرب وتقام فيها الولائم ، ويتضح لنا ذلك من وصف ابن قتيبة(٦) لإحدى هذه الحفلات ،

---

(٤) الاصفهانى : الأغانى جـ٦ ص٢٣٣
(٢) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر جـ١ ص٢٠٣
(٣) نعمان القساطلى : الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء ص١١٦
(٤) ابن قتيبه : عيون الأخبار جـ٢ ص١٦٧
(٥) الدينورى : الأخبار الطوال ص٣١٧
(٦) عيون الأخبار : جـ٩ ص٢٣٧ — ٢٣٨ .

فقد دعى إليها أناس كثيرون ارتدوا ثياباً فاخرة ، واستقبل أهل العروسين الزوار ، وجلس الناس صفين ، يأكلون ألوانا مختلفة من الطعام من حلو وحامض وحار وبارد ، ثم شربوا شرابا حلواً فى أقداح كبيرة وقام أربعة رجال ، فعزف أحدهم على العود ، واستخرج الثانى من كمه مزماراً أسود ، وعزف به أطيب الألحان ، وكان الثالث معه مرآتان فجعل يضرب إحداهما على الأخرى ، وجعل الرابع يضحك الحاضرين ، وكانوا يلقون عليه وعلى زملائه الدراهم .

وقد أورد الأصبهانى[١] وصفاً لزواج أم حكيم من عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك فى حياة جده عبد الملك ، جاء فيه أن القران عقد فى مجلس عبد الملك الذى أمر بإدخال الشعراء ليهنئوهم بالعقد ، واختير منهم جرير وعدى بن الرقاع ، فدخلا وهنا العروسين[٢] ، فأجزل لهما عبد الملك العطاء ، وأمر لكل من حضر من الحراس والكتاب بعشرة دنانير[٣] .

استعمل الناس فى دمشق فى العهد الأموى الفوط والملاعق أثناء الطعام ، وكانوا يجلسون على الكراسى أثناء تناولهم الطعام ، وكان الطعام يقدم على موائد يكسوها مفرش من القماش[٤] .

أما عن الملابس فقد اختلفت فى عهد الراشدين والأمويين تبعاً لثروة

---

(١) كتاب الأغانى جـ١٦ ص٢٧٧

(٢) قال عدى :

قمر السماء وشمسها اجتمعا   بالسعد ماغابا وماطلعا
ماوارت الأستار مثلهما   من ذا رأى جدا ومن سمعا ؟

وقال جرير :

جعل الأمير إليه أكرم حرة   فى كل ما حال من الأحوال
مناكم بمودة ونصيحة   وصدقت فى نفسى لكم ومقالى

(٣) الاصفهانى : الأغانى جـ١٦ ص٢٧٧

(٤) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص١٧٢

الناس ومركزهم الاجتماعي ، ونوع عملهم . ويذكر الجاحظ (١) : إن لكل قوم زيا ، فكانت ملابس الفقيه أو الكاتب تختلف عن ملابس الجندي ، إذ كانوا يلبسون القمصان التي تمتد إلى ما تحت الركبة فوق السراويل بينما يلبس الفرسان ستر وسراويل ويضعون على رؤسهم الخوذ . أما القضاه فيلبسون القلانس العظام كما كانت هناك ملابس خاصة بمجالس اللهو والطرب والمنادمة ، وكذلك لمن يمارس الرياضة بل كان هناك ملابس للعقاب ، فقد ألبس الوليد بن عباس جبة صوف بسبب إتهامه بقتل مولاه سليط (٢) .

كانت أبرز ملابس كبار العرب في دمشق في العهد الأموي تتكون من الحلل والقمصان والطيالسة والعمائم ، بينما كان سكان دمشق من غير العرب يلبسون العباءات الفضفاضة وعلى رؤسهم العقال أو الكوفية المخططة ذات اللون الأحمر أو الأصفر (٣) .

تميزت الملابس في دمشق في العهد الأموي بالطراز الذي أخذوه عن الروم فكانوا ينقشون أسماءهم أو علامات تميزهم على أثوابهم بخيوط من الذهب وكان للخلفاء الأمويين دور خاصة لنسج أثوابهم تسمى دور الطراز . أما الولاة والعمال والجند فكانوا يرتدون زيا طرز عليه اسم الخليفة (٤) . وكانوا يضعون فوق رؤسهم العمائم ، وتختلف تبعاً للسن والمركز الاجتماعي والعلمي وقد حافظ العرب على لبس العمائم وكانوا يقولون: ما زالت العرب عرباً ما لبست العمائم وتقلدت السيوف (٥)

---

(١) البيان والتبيين : ج٣ ص ٦٠

(٢) الصابي : الهفوات ص ٢٣٨

(٣) سيد أمير علي : مختصر تاريخ العرب ص ١٧٦ — ١٧٧

(٤) ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر ج١ ص ٦١٠

(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج٣ ص ٢٤

ويقول الجاحظ[1] : والخلفاء عمه والفقهاء عمه وللابناء عمه وللروم والنصارى عمه . وكانوا يلقون الطيلسان فوق العمامة[2] وتأنق الأمويون فى ملبسهم ، فكان معاوية يرتدي الملابس الديبقية[3] وفى عهد سليمان ابن عبد الملك شاع الوشى الذى كان يجلب من اليمن أو الكوفة أو الأسكندرية واتخذ الناس منه اردية وجلاليب وسراويل وعمائم وقلانس. وبلغ من ولوع هذا الخليفة بالوشى أنه كان لايدخل عليه رجل من أهل بيته وعماله وأصحابه إلا فى الوشى[4] .

أما الخليفة عمر بن العزيز ، فكان يتبسط فى لباسه وقومت ثيابه وهو يخطب فى مسجد دمشق باثنى عشر درهماً وكانت تتكون من قباء وعمامة ورداء وقميص وقلنسوه وسروال وخفين[5] . وكان لعمر بن عبد العزيز ثوب بمائة دينار ، وكان يستخشنه ، فلما ولى الخلافة كان يؤتى له بالثوب الخشن بأقل من دينار ، فيقول : آتونى بأخشن منه وأقل ثمناً[6] .

أدخل هشام بن عبد الملك زى الخز ، فاقتدى به ، الناس[7] . ويذكر صاحب العقد الفريد[8]: أنه لم يكن من خلفاء بنى أميه ألبس ولا أعطر من هشام ، خرج حاجاً ، فحملت ثيابه على ستمائة جمل .

أما ثياب المرأة العربية فى العهد الأموى. فكانت تتكون من سروال فضفاض وقميص مشقوق عند الرقبة ، وعليه رداء قصير ضيق يلبس عادة

---

(١) البيان والتبيين ج٣ ص٦٠
(٢) الجاحظ ، البيان والتبيين ج٣ ص٦٠
(٣) الثعالبي : لطائف المعارف ص١٩
(٤) المسعودى ، مروج الذهب ج٢ ص٢١٦
(٥) البلاذرى : أنساب الاشراف ج٧ ورقة ٣٨١
(٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج١ ص١٨٧
(٧) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص١٢٨
(٨) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ج٢ ص١٧٧

فى فصل الشتاء ، وإذا خرجت المرأة من بيتها ارتدت ملاءة طويلة تغطى جسمها ، وتقى ملابسها من التراب والطين ، وتلف رأسها بمنديل(١) .

ج - الموسيقى والغناء ووسائل التسلية :

كان العرب فى دمشق فى عهد الراشدين يقضون أوقات فراغهم فى الإستماع إلى قصائد الشعراء ، ولما تحضروا واخلدوا إلى الراحة والسكينة مالوا إلى الطرب والغناء ، فكثر المغنون والمغنيات من الموالى الذى نبغ فريق منهم فى الغناء ، فوفدوا إلى دمشق ، وغنوا بها الحانهم(٢) .

كان معاوية بن أبى سفيان يعيب الناس الذين يميلون إلى استماع الغناء حتى أن ابنه يزيد كان يستمع إلى المغنيين خفية عنه(٣) . وكذلك الحال بالنسبة لعبد الملك بن مروان الذى كان يكره الغناء(٤) . أما الوليد ابن عبد الملك فقد خالف أباه فى ميله إلى الاستماع إلى الغناء، فبعث فى طلب المغنين من مكة(٥) . بينما كان سليمان بن عبد الملك يكره الغناء(٦) . ويذكر الجاحظ(٧) : « أن عمر بن عبد العزيز لم يستمع إلى حرف غناء منذ أن ولى الخلافة .

وكان يزيد بن عبد الملك يميل إلى سماع الأغانى ، ويقضى معظم أوقاته فى الاستمتاع بضروب اللهو ، وكانت عنده جاريتان تتقنان الغناء ، هما سلامه وحبابه(٨) .

---

(١) حسن ابرهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى جـ١ ص٥٤٥

(٢) الاصفهانى : الأغانى جـ١ ص١٢ - ١٣

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٤ ص٢١٢

(٤) قال عبد الملك بن مروان عن الغناء : « قبح الله الغناء ، ما أوضعه للمرؤة واجرحه للعرض ، وأهدمه للشرف » (ابن عبدربه : العقد الفريد جـ٤ ص١٢٦) .

(٥) الاصفهانى : الاغانى جـ١ ص٢٥٦

(٦) الكامل المبرد : جـ٢ ص٩٩

(٧) كتاب التاج ص٣٣

(٨) الاصفهانى : الأغانى جـ١٥ ص١٤١ - ١٤٥

فاق الوليد بن يزيد غيره من الخلفاء فى تشجيع المغنيين وتقريبهم إليه حتى أنه لم يجتمع على باب خليفة منهم ما اجتمع على بابه، وكان يجزل عليهم العطايا والصلات[١]، وبلغ من شدة ميل الوليد بن يزيد إلى الغناء أنه لما ولى الخلافة بعث فى طلب المغنين من الأمصار الإسلامية، ولم تشغله ظهور الدعوة العباسية بخراسان عن الاجتماع بالمغنين، فكتب إليه نصر بن سيار يطلب منه العون، فتشاغل عنه، وكتب إليه كتابا جاء فيه «قد اقطعتك خراسان فاعمل لنفسك، فأنى مشغول بابن سريح ومعبد والغريض[٢]».

استاء الناس من انصراف الوليد بن يزيد عن شؤون الحكم إلى الغناء، فكتب يزيد بن أبى مساحق السلمى مؤدب الوليد شعراً وبعث به إلى إحدى جوارى الوليد، فغنته[٣]، فرد إليه الوليد: «أن فى ذلك صلاحى وفلاحى ورشادى»[٤].

كان معظم الخلفاء الأمويين حين يستمعون إلى الغناء لا يظهرون أمام المغنين، وإنما جرت العادة أن يكون بينهم وبين المغنين ستارة حتى لا يرى الندماء ما يفعله الخليفة إذا ما أعجبه الغناء، وإذا ما اندفع صوت الجارية التى تغنى من خلف الستارة حذرها صاحب الستارة بقوله. حسبك ياجارية، كفى اقصرى[٥].

---

(١) المصدر السابق : ج٢ ص٢٧٤
(٢) الاصفهانى : الأغانى ج٧ ص٦٠
(٣) مضى الخلفاء بالأمر الحميد وأصبحت المذمة للوليد
تشاغل عن رعيته بلهو وخالف فعل ذى الرأى الرشيد
(٤) الاصفهانى : الأغانى ج٧ ص٦٩

لم ينكر الوليد بن يزيد ما يجر إليه الغناء من أسباب، فكتب إلى بنى أمية : «اياكم والغناء فانه ينقص الحياء، ويزيد فى الشهوة ويهدم المروءة فان كنتم لابد فاعليه، فجنبوه النساء، وانى لاقول فيه على أنه أحب إلى من كل لذة وأشهى الى من الماء البارد الى ذى الغلة، ولكن الحق أحق أن يقال» (المصدر السابق ج٧ ص٧٠).

(٥) الجاحظ : التاج ص٣٢ — ٣٣

بلغ الاهتمام بالغناء فى دمشق حداً كبيراً حتى أنه ظهر بها بيوت لسماع الغناء . وكانت القيان اللاتى يحترفن الغناء من الجوارى، وقد اشتهرت برج الأفق بجودة غنائها ، وكان فتية دمشق يذهبون إلى بيتها ويستمعون إلى غنائها(١) .

كان للخلفاء الأمويين ولع بالشعر والنوادر والقصص التاريخية والأخبار القديمة . وقد بلغ من حب معاوية لسير الأقدمين أنه استدعى عبيد بن شريه من اليمن — وهو من الأخباريين القدماء — ليسامره، ويقص عليه أخبار الأبطال الغابرين(٢) . وذكر المسعودى(٣) أن معاوية كان « يسمر إلى ثلث الليل فى أخبار العرب وأيامها والعجم وملوكها وسياستها لرعيتها ... ثم يدخل فينام ثلث الليل ، ثم يقوم فيقعد ، فيحضر الدفاتر فيها سير الملوك وأخبارها والحروب والمكايد، فيقرأ ذلك عليه غلمان له مرتبون، وقد وكلوا بحفظها وقراءتها ، فتمر بسمعه كل ليلة جمل من الأخبار والسير والآثار وأنواع السياسات » . وبعث الحجاج إلى عبد الملك بن مروان عامر الشعبى ، فكان يقص عليه الحكايات والنوادر(٤) .

كذلك حرص بعض خلفاء وأمراء بنى أمية على قضاء أوقات فراغهم فى لعب الشطرنج(٥)، وفى الصيد ، وفى سباق الخيل . وكان يزيد بن معاوية من أكثر الخلفاء الأمويين ولعا بالصيد . فقد شغل به طوال مدة خلافته(٦) كما عرف بميله إلى سباق الخيل(٧) .

---

(١) الاصفهانى : الأغانى ج٣ ص٢٨٣

(٢) Hitti : History of the Arabs, p. 460

(٣) مروج الذهب ج٢ ص٥١

(٤) الاصفهانى : الأغانى ج١١ ص٢١

(٥) ابن قتيبة : عيون الأخبار ج٥ ص١٢٠

(٦) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص٣٩

(٧) كان ليزيد بن معاوية قرد يسمى أبا قيس يسابق به الخيل يوم الحلبة على أتان وحشية ويلبسه قباءا من حرير وقلنسوة من حرير .
(المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٣٨) .

وكان السباق أهم تسلية للناس فى دمشق على اختلاف طبقاتهم ، وقد اهتم بعض الخلفاء الأمويين بإقامته ، فأمر سليمان بن عبد الملك الناس بأن يتسابقوا بالخيل ، لكنه توفى قبل أن تجرى الحلبة ـ وهى ميدان السباق ـ فلما ولى عمر بن العزيز الخلافة أبى أن يجريها ، فقيل له : يا أمير المؤمنين تكلف الناس مؤونات عظاماً ، وقادوها من بلاد بعيدة ، وفى السباق غيظ للعدو ، ولم يزالوا يكلمونه حتى أجرى الحلبة . وأجزل العطاء على الذين فازوا فى السباق(١) . وكان هشام بن عبد الملك من أكثر الخلفاء اهتماماً بإقامة حلبات السباق . فاشترك فى السباق فى عهده نحو أربعة آلاف من خيوله وخيول الأمراء ، وقد عبر المسعودى(٢) عن ذلك بقوله : « لم يسبق هذا السباق مثيل » . وكان هشام بن عبد الملك يستجيد الخيل للسباق ، ويبذل فى سبيلها الأموال ، فاجتمع عنده أربعة آلاف فرس .

(٥) المرأة العربية فى دمشق وأثرها فى المجتمع :

كانت المرأة العربية فى دمشق تتمتع بقسط وافر من الحرية ، ولم تظهر مشكلة الحجاب فى عهد الراشدين لأن المسلمين والمسلمات كانوا يراعون تعاليم الدين ، ولكن ما كادت تبدأ الخلافة الأموية ، ويختلط العرب بأهل دمشق . وغيرهم حتى ظهرت مشكلة الحجاب ، وكان الوليد بن يزيد أول من اتخذ نظام الحريم فى قصره(٣) .

وكان النساء فى دمشق يسمعن خطب الخلفاء والفقهاء ، ويتعلمن الفقه والتفسير ، ويعلمن أولادهن ، ولم تقتصر دراستهن على مطالعة المبادىء الشرعية والأحاديث النبوية بل درسن الشعر وفنون الأدب(٤) .

---

(١) ابن الجوزى : سيرة عمر بن عبد العزيز ص ٥٦

(٢) مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٨ — ١٨٩

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ١٨٨ — ١٨٩

Kremer : Orient under the Caliphs, P. 171.

(٤) سيد أمير على : مركز المرأة فى الإسلام ص ١٠٨

اشتهر فى دمشق فى العهد الأموى عدد من النساء كان لهن مركز مرموق فى المجتمع ، وتأثير ملحوظ فى سير الحوادث ، فكانت أم الدرداء الصغيرة تلقى دروساً دينية فى مسجد دمشق ، وبلغ من علو مكانتها العلمية أن عبد الملك بن مروان كان يحضر مجلسها وهو خليفة (١) ، بل كانت توجه النصائح الدينية له . ومما يجدر ذكره أنها سمعته ذات مرة يقول لغلام له : لعنك الله ، فنصحته ألا يقول لأحد : لعنك الله بقولها : سمعت أبا الدرداء يقول سمعت رسول الله يقول : لا يدخل الجنة لعان(٢) » .

ومن أشهر نساء دمشق فى العهد الأموى أم البنين ابنة عبد العزيز بن مروان وزوجة الوليد بن عبد الملك فقد اشتهرت بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة وبعد النظر . وكان الوليد يستشيرها فى مهام الأمور ، وهى التى دفعته إلى كثير من الأعمال الجليلة التى قام بها ، ومن قبل أن يلى الخلافة كان عمها عبد الملك بن مروان لا يرد لها طلباً(٣) .

استخدمت أم البنين نفوذها فى خير الناس ورفاهيتهم ، وقد روى أن الحجاج أشار على الوليد بالتخلص من نفوذها فطلبت من الخليفة أن يوعز إليه بمقابلتها ، فلما مضى إليها أهملت شأنه . ثم أذنت له بمقابلتها وسألته عن النصح الذى أسداه إلى الخليفه ، فلم يجبها بشىء ، فألقت عليه درسا بليغا ، وسردت عليه جميع أعماله ، وصارحته بقولها : أنه هو الذى حرض أمير المؤمنين على ارتكاب تلك الأعمال القاسية التى ذهبت ضحيتها نخبة من أعظم المؤمنين شأنا ، وأبعدهم أثرا ، ثم أمرت وصيفاتها بطرده من حضرتهـــا ، فمضى إلى الوليد من فوره ، وقال له : والله يا أمير المؤمنين ماسكنت حتى كان بطن الأرض أحب إلى من ظاهرها ، فضحك الوليد ،

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ٩ ص٦٦
(٢) نفس المصدر جـ١ ص٤١
(٣) الاصفهانى : الأغانى جـ٥ ص١٩ .

وقال : أنها بنت عبد العزيز بن مروان(١).

ومن أشهر نساء بنى مروان ، فاطمة بنت مروان ، وكان الأمراء الأمويون يختصمون اليها فى خلافاتهم ، فلما ولى عمر بن عبد العزيز الخلافة بدأ بأهل بيته ، فأخذ ما كان فى أيديهم ، فطلب بنو أمية من فاطمة بنت مروان — عمة الخليفة — أن تسعى لدية لاعادة أموالهم اليهم ، فأرسلت إليه وأتته ليلا ، فأنزلها عن دابتها ، فلما أخذت مجلسها ، طلبت اليه أن يعيد إلى بنى مروان أموالهم فقال لها : أن الرسول ترك للناس نهرا شربهم فيه سواء ، ثم قام أبو بكر فترك النهر على حاله ، ثم ولى عمر فعمل على عمل صاحبه ، فلما ولى عثمان اشتق من ذلك النهر نهرا ، ثم ولى معاويه ، فشق من النهر أنهارا ، ثم لم يزل ذلك النهر يشق منه يزيد ومروان وعبد الملك والوليد وسليمان حتى أفضى الأمر إلى ، وقد يبس النهر الأعظم، ولن يروى أصحاب النهر حتى يعود اليهم النهر الأعظم إلى ما كان عليه . فقالت له : « قد أردت كلامك ومذاكرتك ، فأما إذا كانت هذة مقالتك فلست بذاكرة لك شيئا أبدا » . ورجعت اليهم وأبلغتهم كلام الخليفه(٢) .

كانت عائشة بنت طلحة بن عبيد الله من النساء اللاتى نبغن فى الأدب وأيام العرب والنجوم ، وكانت زوجة للوليد بن عبد الملك(٣). وفدت إلى هشام بن عبد الملك ، فبعث إلى شيوخ بنى أميه وقال : أن عائشة عندى فأسمروا عندى الليلة ، فما تذاكروا شيئا عن أخبار العرب وأشعارهم وأيامهم إلا أفاضت معهم فيه ، وما طلع نجم ولا أغار إلا سمته ، فأمر لها هشام بمائة ألف درهم(٤).

(١) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص١٠٩ — ١١٠
(٢) الاصفهانى : الأغانى ج٩ ص٢٥٥ — ٢٥٦
(٣) نفس المصدر ج١١ ص١٨٠
(٤) نفس المصدر ج١١ ص١٨٩ — ١٩٠

كانت المصاهرة عند العرب بمثابة التحالف ، فتزوج معاويه بن أبى سفيان من ميسون بنت بحدل الكلبية ، فعلا شأن بنى كلب فى بلاد الشام ، وظلوا على هذه الحال فى عهد يزيد بن معاويه لأنهم أخواله(١). وعلت مكانة بنى مخزوم فى خلافة هشام بن الملك لأن أمه منهم ، فكان يفضلهم فى قضاء الحاجات ، وزاد فى عطائهم ، بل كان ينسب اليهم احيانا ، إذ سمى بأسم جده لأمة هشام بن إسماعيل المخزومى(٢). وكان يزيد بن عبد الملك كثيراً ما ينسب إلى أمه النابهة ، فيسمى يزيد بن عاتكة(٣).

أما عن تقاليد الزواج فى دمشق فتدل على مدى ما تتمتع المرأة من مركز ممتاز . وكان العرب يفضلون الزواج بقرشيات(٤). وأن لم يتحقق فيتزوجون بعربيات وقد جرت العادة أن يبدأ الزواج بالخطبه ، وبعد مرحلة الخطبة تبدأ مرحلة دفع الصداق ، الذى يختلف بحسب ثروة الزوجين ومكانتهما الإجتماعية ، فتزوج يزيد بن عبد الملك سعده بنت عبد الله بن عمر ابن عثمان على صداق قدره عشرين ألف دينار(٥). وكان فى استطاعة الشخص من أهل دمشق أن يتزوج بصداق يقل عن دينار . وكان العرب يؤدون الصداق نقدا أو عينا ، ويقدمون بعض الهدايا العينية(٦).

---

(١) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص١٧٦ — ١٧٧
lammens : le Califat de Yazid, P. 199
(٢) البلاذرى : انساب الاشراف جـ١١ ص١٩٦
(٣) فلهاوزن : تاريخ الدولة العربية ص٣٠٢
(٤) الثعالبى : لطائف المعارف ص٥١
(٥) الاصفهانى : الأغانى جـ١٥ ص١٢٤
(٦) نفس المصدر جـ١١ ص١١٣ ، ١١٤ .

القسم الثاني

تمهيد : خطط بغداد وتطورها فى العصر العباسى الأول

الباب الاول : الحالة الإقتصادية فى بغداد فى العصر العباسى الأول

الباب الثانى : الحالة الإجتماعية

الباب الثالث : النهضة الثقافيه

القسم الثاني

تمهيد : خطط بغداد وتطورها في العصر العباسي الاول :

كان من الطبيعي ومن المنتظر أن يرفض العباسيون — بعد أن أقاموا دولتهم على أنقاض الدولة الأموية — الأبقاء على مدينة دمشق حاضرة للخلافة ذلك أن بلاد الشام كانت مقر بني أميه ، وبها عصبيتهم من العنصر العربي الذي يناصرهم ، ويرفض انتقال الخلافة إلى غيرهم ، لذا نقل العباسيون حاضرة دولتهم إلى العراق قريبا من أنصارهم الفرس الذين أقاموا ملكهم على اكتافهم ، وبذل الفرس أموالهم ودماءهم في سبيل إقامة صرح دولتهم، يضاف إلى ذلك أن بلاد العراق غنية بمواردها الطبيعية ، وفي مأمن من غارات البيزنطيين لبعدها عن حدودهم(١). وأصبح العراق بعد انتقال قصبة الدولة اليه — حلقة الأتصال بين العنصرين العربي والإيراني اللذين يتألف منهما الجماعة الإسلامية(٢).

ولم تكن كل من الكوفه والبصرة — وهما المدينتان الكبيرتان اللتان كانتا موجودتين منذ الفتح العربي الأول للعراق — تصلح لأن تكون حاضرة للدولة الجديدة ذلك أن أهل الكوفة كان معظمهم شيعة يعارضون الحكم العباسي بل ويسعون إلى نقل الخلافة للعلويين ، أما البصرة فلم تكن تصلح هي كذلك لوقوعها في الجنوب لذلك أقام أبو العباس السفاح — أول خلفاء الدولة العباسية — في الحيرة(٣). وفي سنة ١٣٤ هـ انتقل إلى الأنبار وبنى مدينة على شاطيء الفرات ، سماها الهاشمية نسبة إلى جده هاشم بن

---

(١) اليعقوبي : البلدان ص ٢٢١

(٢) Ency of Islam : Art Baghdad

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ٦ حوادث سنة ١٣٤ هـ

عبد مناف(١) . وتوفى أبو العباس قبل أن يتم بناء المدينة. ولما ولى أبو جعفر المنصور الخلافة سنة ١٣٦ هـ لم يشأ أن يقيم فى مدينة أخيه وسلفه أبى العباس ، إذ بنى مدينة بين الكوفة والحيرة سماها الهاشمية أيضاً ، وأقام بها لكنه لم يلبث أن كره سكناها لما ثارت عليه الراوندية(٢)، كما أن قربها من الكوفة ـ ومعظم أهلها يناصر العلويين ـ جعلته لا يشعر بالطمأنينة ؛ لأنهم قد يثورون عليه فى أى وقت ، وفعلا أفسدوا جنده وأنصاره عليه(٣).

وعلى ذلك فقد عول المنصور على تأسيس حاضرة جديدة لدولته ، فخرج بنفسه يرتاد لها موضعا يتخذه مسكنا لنفسه وجنده ويبنى به مدينته، فبدأ فانحدر إلى جرجرايا(٤) ثم صار إلى بغداد ، ثم مضى إلى الموصل ثم عاد إلى بغداد ، وضرب عسكره على الصراة ، وتدبر موقعها فاعجبه وقال : هذه دجلة ليس بيننا وبين الصين شىء يأتينا فيها كل ما فى البحر وتأتينا الميرة من الجزيرة وأرمينية (٥) وما حول ذلك ، وهذه الفرات يجىء فيها كل شىء من الشام والرقة وما حول ذلك ، كما أنه لاحظ خصب البقعة التى تقع فيها بغداد . الأمر الذى ييسر لسكانها رغد العيش يضاف إلى ذلك سهولة الدفاع عن موضع بغداد ، فإن هاجمها أحد كانت دجلة والفرات وروافدهما خنادق لها ، فإذا خربت القناطر احتاج العدو إلى العبور ، لذلك فإن الهجوم عليها أمر صعب(٦).

---

(١) le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate p.5

(٢) الراوندية قوم من أهل خراسان كانوا يقولون بتناسخ الأرواح ، ويزعمون أن روح آدم انتقل إلى رجل من كبارهم ، وأن ربهم الذى يطعمهم ويسقيهم هو المنصور ، وطافوا بقصره وقالوا : هذا قصر ربنا . فأمر المنصور بالقبض على رؤسائهم فغضب الباقون وثاروا عليه ، فأخمد المنصور ثورتهم ، ونكل بهم .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٤٣

(٤) بلد من أعمال النهروان الأسفل بين واسط وبغداد (ياقوت : معجم البلدان ج٣ ص ٥

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ـ حوادث سنة ١٤٥ هـ .

(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٣

أصاب المنصور فى اختياره لبغداد حاضرة لدولته ، وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته عن الشروط الواجب توافرها فى الحاضرة فقال : اما أن تقع على هضبة متوعرة من الجبل ، واما باستدارة بحر أو نهر بها حتى لا يوصل اليها إلا بعد العبور ، وطيب الهواء للسلامة من الأمراض ، وقرب الزرع منها ليحصل الناس على الاقوات .

وكانت الأرض التى تقع فيها بغداد منذ القدم من أهم مراكز الحضارة ، وازدهرت فيها بصفة خاصة الثقافة الشرقية القديمة ، وكانت من أهم المراكز التجارية حيث تلتقى فيها عدة طرق تصلها بمختلف البلاد ، وشهدت هذه الأرض حواضر عظيمة مثل بابل وسلوقية والمدائن وورثت بغداد هذه الحواضر(١) بل وإستخدم فى بنائها انقاض مدينة المدائن التى تبعد عنها بضعة كيلو مترات(٢) .

أحاط بتأسيس مدينة بغداد روايات من نسج الخيال رواها الكتاب العرب ، فذكروا أن راهباً من رهبان الدير القريب من مدينة بغداد سأل المنصور عن الرجل الذى يريد بناء المدينة، فقيل له المنصور، فقال الراهب للرجل : اذهب إلى صاحبك وقل له لا يتعب نفسه فى بناء هذه المدينة ، فأنا نجد فى كتبنا أن رجلا اسمه مقلاص يبنى هنا مدينة ، ويكون لها شأن من الشأن، وأن غيره لا يتمكن من ذلك، فجاء الرجل إلى المنصور وأخبره بما سمع ، فقال المنصور : أما والله كان اسمى مقلاصاً ، أطلقته على مربية عجوز لى(٣) والدليل على عدم صحة هذه الرواية أن الغيب لا يعلمه إلا الله.

ويرجع ترديد الكتاب العرب لهذه الرواية إلى أن الاعتقاد فى التنجيم كان شائعاً فى ذلك العصر حتى أن المنصور وضع أساس مدينته فى الوقت

---

(١) Ency. of Islam. Art Baghdad

(٢) Hitti : Hist. of the Arabs P. 242.

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٤٥

الذى اختاره له المنجمون ، وبشروه بطول بقائها وكثرة عمارتها(١) على أننا نلاحظ أن الأساطير أحاطت بتأسيس المدن الكبرى مثل أثينا وروما ودمشق .

كانت بغداد قبل تمصيرها قرية قديمة بناها بعض ملوك الساسانيين المتأخرين وتقع على الشاطىء الغربى لنهر دجلة فى أعلى المكان الذى يلتقى فيه نهر الفرات بدجله ، وكان يعقد بها سوق شهرى يأتيه التجار من بلاد الفرس والصين ، وتعرضت للغزو العربى سنة ١٣ هـ حينما هاجمها المثنى ابن حارثة الشيبانى ، واستولى عليها ، وغنم من غزوها مغانم كثيرة(٢) ، وقد أثبت البحث الحديث وجود مدينة قديمة فى موضع بغداد أثبته المكتشف الإنجليزى السير هنرى رولنسون سنة ١٨٤٨ م ، وظهر إسم بختنصر الثانى على احجار هذه المدينة ، وقامت فى هذا المكان أيضاً مدينة تشبه فى تسميتها بغداد(٣) .

اختلف الكتاب والمؤرخون حول معنى كلمة بغداد ، فيعتقد البعض أن بغداد كلمة فارسية تتركب من باغ ومعناها بستان وداد رجل ، وقيل أن بغ اسم لصنم وداد أعطى وقيل أن تسمية بغداد باغ داذويه لأن موضع بغداد كان باغا لرجل من الفرس يسمى داذويه ، ولكننا نرجح أن كلمة بغداد معناها عطية الله أو هبته(٤) .

وسميت بغداد أحياناً بغداذ ، وأحياناً أخرى بغدان(٥) . على أنها اشتهرت باسم مدينة السلام ، واختلف المؤرخون كذلك حول هذه التسمية

(١) المصدر نفسه السابق حوادث سنة ١٤٥

(٢) le strange : Baghdad duing the Abbasid Caliphate p. 9

(٣) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٢٣٢

(٤) le strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate p.72

(٥) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ١ ص٢٦

Hitti : Hist. of the Arabs. p. 292

معضهم ذكر أنها سميت بهذا الإسم قبل أن يبنيها المنصور . ويرى البعض أن اسمها اشتق من إسم نهر دجلة المدعو نهر السلام . ولكن الأرجح أن المنصور رغب فى اطلاق تسمية عربية على بغداد فدعاها دار السلام ، لأن الله هو السلام أو لعل المقصود هنا الجنة فقد ورد فى القرآن الكريم عن الجنة « لهم دار السلام عند ربهم وهو وليهم بما كانوا يعملون » .

« والله يدعو إلى دارالسلام ويهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » ومهما يكن من أمر فقد كان الشعراء والأدباء وسائر الناس يطلقون على الحاضرة الجديدة بغداد أو بغداذ أو بغدان ، وأحياناً يطلقون عليها الزوراء لأن قبلتها غير مستقيمة ، يحتاج المصلى فى مسجدها الجامع إلى أن ينحرف جهة اليسار[1] ، أو أن أبوابها الداخلة مزورة عن الأبواب الخارجية أى ليست على سمتها ، على أننا نلاحظ أن كثيراً ما كان يتردد ذكر دار السلام فى المكاتبات الرسمية وعلى العملة[2] .

تأسست مدينة بغداد فى موضع عدة قرى منها بغداد والمخرم وبستان القس والعتيقة ، وحرص المنصور على أن يطمئن على أحوال هذه القرى الصحية والمعيشية ، فاستدعى رؤساءها وسألهم عن أحوال قراهم ، فطمأنوه على حسن اختياره ، ولم يكتف بذلك بل عهد إلى بعض رجاله بأن يبيتوا فى هذه القرى ، ويدرسوا أحوالها ، فلما انتهوا من مهمتهم ، قدموا على المنصور ، وأجمعوا على أفضلية هذه عما سواها فازداد المنصور تفاؤلا بنجاح المشروع الذى أقدم عليه[3] .

عول المنصور على الاستفادة بكافة الخبرات الموجودة فى مملكته فى انجاز مشروعه الكبير ، فاستدعى إليه من كل بلد من بلدان دولته المهندسين ،

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٤٥ — ١٤٦ .
(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٤٥
(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج١ ص١٢ — ١٨

وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالزرع والمساحة وقسمة الأرضين والبنائين والفعلة والصناع من الحدادين والحفارين والنجارين حتى اجتمع لديه على ما قيل — نحو مائة ألف من أرباب المهن والصناعات ، وحدد لهم رواتب وأجور معلومة ، وأسند مهمة الإشراف على عملية البناء إلى رجال ممن يثق بهم من ذوى الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة؛ فكان ممن أحضر لذلك الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت(١) .

أشرف المنصور بنفسه على تخطيط مدينته الجديدة، فأمر بوضع خطوط بالرماد تمثل رسم المدينة الهندسى الذى أقره ، ودخل من كل باب من أبوابها وعبر فى فصلانها وطاقاتها ورحابها ، وشاهد تخطيطها على الطبيعة ، ولم يكتف بذلك ، بل أمر بوضع حب من القطن على الخطوط المرسومة فى موضع بغداد ، وصب ، النفط عليها ونظر إلى موضع المدينة ، والنار تشتعل،فشاهد رسمها،واطمأن إلى حسنه وقال: « الحمد لله الذى أخرها لى، وأغفل عنها كل من تقدمنى ، والله لأبنينها ثم اسكنها أيام حياتى، ويسكنها ولدى من بعدى ، ثم لتكونن أعمر مدينة فى الأرض(٢).

افتتح المنصور مشروع تأسيس مدينته فى يوم تاريخى مشهود حضره كبار رجال الدولة(٣)، ووضع أول لبنة بيده وقال : « بسم الله والحمد لله، والأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين(٤) ثم أمر عماله بأن يبدأوا فى البناء على بركة الله » .

على أن بناء بغداد لم يقدر له أن يتم سريعاً ، فلما بلغ سور بغداد مقدار قامة ، أمر المنصور بوقف البناء بعد أن نمى إلى علمه انتقاض محمد

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ١٤٥ هـ .

(٢) اليعقوبى : البلدان ص٢٤١

(٣) Hitti : Hist. of the Arabs. p. 242.

(٤) Le Strange : Baghdad during the Abbasid Cliphate.p. 17

ذى النفس الزكية بالمدينة المنورة عليه ، وأقام بالكوفة حتى فرغ من قمع ثورة العلويون بقيادة الأخوين محمد وإبراهيم ، وعاد إلى بغداد ليستأنف عملية البناء ، وكان مولاه أسلم قد أحرق ما أعد لبناء المدينة من الخشب والساج خوفا من أن ينتصر العلويين ويزحفوا إلى بغداد ويستولوا على أدوات بنائها(١) .

ومهما يكن من أمر فقد استأنف المنصور بناء مدينة بغداد ، وجعلها مدورة ، ويذكر اليعقوبى(٢) أنه لا يعرف فى جميع أقطار الدنيا مدينة مدورة غيرها .

وبنيت المدينة مدورة لئلا يكون الملك إذا نزل وسطها إلىموضع منها أقرب منه إلى موضع(٣) .

أحاط المنصور مدينته بسورين ، وجعل للبلدة أربعة أبواب للسور الداخلى ونظير لهذه الأبواب بالسور الخارجى ، وأول هذه الأبواب باب خراسان ويسمى باب الدولة لا قبال الدولة العباسية من خراسان ، والثانى باب الكوفة وهو تلقاء الكوفة،والثالث باب الشام،وهو من ناحية الغرب، والرابع باب البصرة وهو بمقربة من دجلة(٤) فكان القادم إلى بغداد أو من الشرق يدخل من باب خراسان ، والقاصد من الحجاز يدخل من باب الكوفة ، والقاصد من المغرب يدخل من باب الشام ، والقاصد من فارس والأهواز وواسط والبصرة واليمامة والبحرين يدخل من باب البصرة، وكان بين كل باب من أبواب المدينة والباب الآخر مسافة تقدر بميل(٥) .

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٤٦ هـ

(٢) اليعقوبى : البلدان ص٢٤٤

(٣) Le Strange : Baghdad during the Abbasid caliphate p. 18.

(٤) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٤٥ — ١٤٦

(٥) ياقوت معجم البلدان ج٢ ص٢٣٥

عنى المنصور بتحصين مدينته . فأحكم بناء السورين ، وجعل .. له أبواباً متينة من واسط والكوفة والشام ، وصبها على أبواب خراسان والكوفة والبصرة ، أما باب الشام فقد صنع فى بغداد ، وكان أضعف الأبواب(١) .

أقيم على كل باب من الأبواب الأربعة سواء أبواب السور الداخلى أو أبواب السور الخارجى طاقات ، وعلى كل باب من أبواب السور الداخلى قبة معقودة مذهبة ، ويصعد إلى هذه القباب على عقود مبنية بالجص والآجر ، وبعضها باللبن ، ولكل باب من هذه الأبواب التى على السور الداخلى قائد فى ألف جندى ، يتولون مراقبة القادمين والخارجين من المدينة وتمكنهم القباب على الأبواب من رصد الحركة المتجهة إلى بغداد من مسافات بعيدة(٢) .

حرص المنصور على تقوية وسائل الدفاع عن مدينته، فشيد لها سورين -كما قلنا- سور داخلى وسور خارجى ، ويحيط بالسور الخارجى من الخارج خندق عميق أحكم بناؤه ، وله حافتين بالجص والآجر ، وأجرى فيه الماء تأخذ من نهر كرخايا، وكان عرض السور الداخلى من أسفله خمسون ذراعا، ومن أعلاه عشرون ذراعا ، ويطلق عليه اليعقوبى السور الأعظم، أو سور المدينة، أما السور الخارجى فكان ارتفاعه ثلاثون ذراعا وعرضه كعرض السور الداخلى ، وبين السورين فصيل ، وكان يسمى سور الفصيل ، وعلى السور أبراج ، وبنيت عليه شرافات ، وبين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع(٣) .

---

(١) Hitti . Hist. of the Arabs P 293.

(٢) اليعقوبى البلدان ص ٢٠

الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد ج١ ص٧٤ — ٧٥

(٣) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى ج٢ ص٣٧١ .

قلنا أن مدينة بغداد بنيت مدورة ، وكان قطرها من باب خراسان إلى باب الكوفة ٢٠٠ ذراع ومن باب البصرة إلى باب الشام كذلك ، واتخذ المنصور المسجد الجامع وقصره فى الرحبة التى هى فى وسط المدينة أو بعبارة أخرى مركز الدائرة للمدينة[١] وعنى المنصور بتشييد قصره وسماه باب الذهب ، وكان فى وسطه القبة الخضراء ، التى كانت ترى من أطراف بغداد ، وكان على رأس القبة تمثال على صورة فارس فى يده رمح ، وتحت القبة مجلس بمستوى سطح الأرض مساحته عشرة أمتار فى مثلها ، وفى صدر المجلس الأسفل ايوان عظيم على الطراز الفارسى ، وارتفعت القبة الخضراء على علو يزيد على ثمانين ذراعا ليشرف منها على جهات المدينة وما يجاورها من البساتين ، كما أنه عنى بتجميلها بالرسوم البديعة ليكون منها الدلالة على سعة ملكه والشهادة باقتداره على عظائم الأعمال ، فظهرت وكأنها أكليل من نور قد تدلى على قصر السلام[٢] .

اتخذ المنصور ومعظم خلفائه فى العصر العباسى الأول قصر باب الذهب أو قصر السلام مقراً لهم ، ولم يقم فيه الخليفة الرشيد غير أن الأمين اتخذه مقراً له وأضاف إليه بناءاً جديداً ، واعتصم الأمين بهذا القصر أثناء حصار قوات المأمون لبغداد وتعرض القصر للتخريب والتدمير من ضربات طاهر ابن الحسين العنيفة . أما القبة الخضراء فظلت قائمة على حالها ، وبلغت مساحة قصر باب الذهب ...ر١٦٠ ذراعا مربعا[٣] .

روعى فى تأسيس المدينة الإسلامية بناء مسجد جامع لها ، فأنشاؤه يدل على طابعها الإسلامى ، وقد أقام المنصور مسجد بغداد الجامع مجاورا

---

(١) Le Strange: Baghdad during the Abbasid Caliphate P. 17.

(٢) اليعقوبى : البلدان ص ٢٤١

الدور : حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٢٣

(٣) Le Strange. Baghdad during the Abbasid Caliphate P. 19.

لقصر باب الذهب وكان محرابه منحرفا عن القبلة ، وبناه المنصور باللبن ، ذلك أنه شيد بعد بناء القصر ، ولكى يكون وضعه متناسبا مع وضع القصر أصبح منحرفاً محرابه عن القبلة وكان سقف المسجد قائماً على أساطين من خشب ، ولكل أسطوانه تاج مدور مصنوع من قطعة خشب ، وبقى هذا الجامع بهذه الصورة حتى ولى الرشيد الخلافة فعول على تجديده سنة ١٩٢ هـ ، فأمر بهدمه وإعادة بنائه بالجص والآجر ، وكتب عليه اسم الرشيد وذكر اسماء بنائيه ومشيديه وتاريخ البناء ، وقد تم ذلك سنة ١٩٣ هـ وصار يعرف هذا الجامع بالصحن العتيق(١).

قلنا أن مركز الدائرة بها القصر والمسجد الجامع ، ولم يكن حولها بناء ولا دار ولا مسكن لأحد إلا دار من ناحية باب الشام للحرس وسقيفه كبيرة ممتدة على عمد مبنية بالآجر والجص ، يجلس فى أحداهما صاحب الشرطة وفى الأخرى صاحب الحرس ، وحول الرحبه تدور منازل أولاد المنصور الأصاغر ومماليكه وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان النفقات ومطبخ العامة(٢).

على أن المنصور لم يكتف بقصر باب الذهب ، إنما عول على إتخاذ قصر آخر له باطراف المدينة ، ولعل المنصور بعد أن شيد مدينة بغداد شعر أنه منعزل فى قصر باب الذهب فى وسط المدينة لتزايد السكان من حوله ، فاقام لنفسه قصر الخلد ، وأصبح أجمل المواضع التى ببغداد ويقع على الضفة الغربية مما يلى باب خراسان ، وسماه الخلد نسبة إلى حدائقـــه الواسعة وتشبيها بجنة الخلد وما يحويه من كل منظر رائق ومطلب فائق وغرض غريب

---

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ١ ص ٧٦

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢١ ؟

Le Strange : Baghdad during the Abbasid Caliphate P. 26.

ومراد عجيب ، وفضل الرشيد الاقامة فيه بدلا من قصر باب الذهب ، وعاش فيه طوال خلافته تقريبا(١).

اشتملت مدينة بغداد على أربع شوارع رئيسية ، تفرعت من أبواب السور الداخلي الذي يحيط بالرحبة ، وهذه الشوارع تتخذ صورة محاور الدائرة ؛ ويتجه إلى خارج المدينة وتنتهي عند الخندق(٢). وقد أقيمت على جانبي هذه الشوارع الأبنية العالية التي بنيت على نمط واحد وأحسن تنسيقها ، وتفرعت من هذه الشوارع سككا(٣) ودروبا عرفت باسم قواد المنصور ومواليه أو الإسم الذي يغلب على سكان السكة أو الدرب . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، الشارع الممتد من باب البصرة إلى باب الكوفة تتفرع منه سكة المطبق ، والمطبق سجن بغداد ، وثيق البنيان محكم السور ، والشارع من باب البصرة إلى باب خراسان سكة الحرس وسكة الربيع وهكذا. ومن باب الكوفة إلى باب الشام شارع يخرج منه سكة العلاء وسكة نافع... الخ. والشارع من باب الكوفة إلى باب خراسان يتفرع منه سكة الحكم بن يوسف وسكة صاعد مولى أبي جعفر .

وفي كل سكة من هذه السكك جلة القواد الموثوق بهم وجلة موالي الخليفة المنصور ، ومن احتاج اليهم في مهام الأمور ، وحرص المنصور بأن يراعي في تخطيط السكك والدروب ما يحتاجه الناس من مرافق كالمساجد والحمامات والأسواق وأن تتسع هذه السكك لاقامة المساكن والمنازل والمساجد .

ولكي ييسر المنصور أمر تشييد مدينته ، قسم المدينة إلى أربعة أرباض أي نواحي ، وعهد إلى أربعة من رجاله المقربين إليه بأن يشرف كل واحد

---

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج١ ص٧٥

(٢) Le Strange: Baghdad during the Abbasid Caliphate P. 32.

(٣) اليعقوبي : البلدان ص٢٤١

منهم على تأسيس ربض ، ومنحه الأموال اللازمة لتأسيس ربضه ، وأمرهم بأن يتوسعوا فى اقامة الأسواق فى الأرباض بحيث يكون فى كل ربض سوق جامعة يضم مختلف التجارات وأن يجعلوا لكل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل ، وأمرهم بأن يجعلوا عرض الشارع خمسين ذراعاً ، والدرب ستة عشر ذراعاً وأن يبنوا فى جميع الأرباض المساجد والحمامات ما يكتفى بها فى كل ناحية ومحله ، وأمر أن يجعلوا من قطائع القواد والجند ذراعاً معلوما للتجار يبنونه وينزلونه هم وأهل البلدان الأخرى[1] .

ولما فرغ المنصور من عمارة بغداد أقطع أعيان دولته قطائع من الأرض رغبة فى تخفيف الضغط على بغداد من جهة ومكافأة لهم على ماقدموه من الخدمات الجليلة من جهة أخرى ، وسرعان ما عمرت هذه القطائع وازدحمت بالسكان ، وأصبحت كل قطعة منها تعرف باسم الرجل أو الطائفة التى تسكنها ، فمن بينها قطيعة العباس بن محمد بن عبد الله بن العباس على الصراة وقطيعة الصحابة وهم من سائر قبائل العرب من قريش والأنصار وربيعة ومضر ، وكانت على الصراة أيضا ، وقطيعة الربيع بن يونس - مولى المنصور - وكان بها تجار خراسان من البزازين ، وقطيعة صالح بن المنصور وقطيعة الحرب بن عبد الله — أحد أصحاب المنصور — وسرعان ما اتسعت هذه القطائع ، وازداد إقبال الناس على سكناها ، وظلت تحمل اسم أصحابها مثل العباسية والصالحية والحربية[2] .

حرص المنصور على توفير المياه بأرض بغداد ، فأمر بشق قناة تأخذ من نهر كرخايا - أحد روافد الفرات - وتمر بداخل بغداد ، وقناة أخرى تأخذ من دجلة مباشرة ، وسماها دجيل ، وجر لأهل الكرخ وما اتصل به

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢١
(٢) اليعقوبى : البلدان ص ٢٥٠

نهر يقال له نهر الدجاج وأدى توفر المياه إلى غرس الناس النخيل الذى جلب من البصرة وغرسوا الأشجار ، فأثمرت وأينعت ، وبذلك امتلأت المدينة وضواحيها بالحدائق والمتنزهات البديعة (١). وعنيت الحكومة فى بغداد بنظافة المدينة ، فلم يكن يسمح قط بإلقاء القاذورات على جانبى الطرق أو الأزقة ، وإنما كانت الشوارع تكنس وترش بأحسن نظام (٢) .

يبالغ اليعقوبى (٣) فى ذكر عدد مساجد وحمامات وأسواق بغداد فيذكر أن المساجد كانت ثلاثين ألفاً ، والحمامات عشرة آلاف ، وهذه الأرقام مشكوك فى صحتها . لأن مدينة بغداد بتصميمها ومساحتها لا يمكن بحال من الأحوال أن تتسع لهذه الأرقام التى ذكرها اليعقوبى ، على أننا نعتقد أن ما رواه اليعقوبى يدل على كثرة مرافق هذه المدينة .

على كل حال عنى المنصور بتأسيس مدينته ، وأقام لها المرافق الضرورية والأسواق فى كل ربض ، على أن المنصور عاد فأمر بنقل الأسواق إلى الكرخ خارج المدينة ، وجعل لكل تجارة شوارع معلومة وصفوفا فى تلك الشوارع وحوانيت ، ويرجع السبب فى نقل المنصور الأسواق من داخل المدينة إلى خارجها إلى أنه خشى أن يضم الغرباء الذين يبيتون فى السوق جواسيس ، وجعل مدينته للشرطة والحرس وسائر السكان . وكان الكرخ — وهو السوق الذى اختاره المنصور — يقع ما بين الصراة ونهر عيسى ، ثم أمر ببناء مسجد فى السوق الجديد ، ولما كثر الناس ضاقت عليهم هذه الأسواق ، فبنوا أسواقاً من أموالهم حتى اتسع الكرخ (٤) . ومع ذلك فقد أمر المنصور بأن يبقى فى كل ربض بقال واحد فقط لبيع الأشياء

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٢٣٦

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٢٣٦

(٣) البلدان ص٢٥١

(٤) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٢٢٣

اليومية التي لاغنى للناس عنها . وبمرور الزمن اتسعت بغداد حتى صار الكرخ في وسطها (١) .

لم يكتف المنصور بتأسيس مدينته على الضفة الغربية لدجلة ، بل عول سنة ١٥١ هـ ، على توسيعها ، وذلك بإقامة مدينة جديدة على الجانب الشرقي لدجلة ، وأقامها فعلا وسماها الرصافة ، وعمل لها سوراً وخندقاً ومسجداً جامعاً وقصراً ، وأجرى لها الماء ، ويرجع السبب فيما شرع فيه المنصور أنه خشي من اجتماع جنده في مكان واحد ، أقصد الضفة الغربية ، فرأى تفريقهم على جانبي دجلة ، فإذا ثار عليه جند الضفة الغربية ضربهم بجند الضفة الشرقية ، وأمر ابنه المهدي بالإقامة في الرصافة مع عسكره ، وأقطع المنصور اخوته وقواده نواحي في البلدة الجديدة ، وتنافس الناس في النزول بالرصافة لمحبتهم للمهدي ولاتساعه عليهم بالأموال والعطايا ، ولأن الرصافة كانت أوسع الجانبين أرضاً . ذلك أن الناس قد سبقوا إلى الجانب الغربي . ولم تلبث أن عمرت الرصافة بالأسواق ومنازل التجار والجند وسائر الناس (٢) .

اتسع الجانب الشرقي من بغداد واستقرت فيه الأسر الغنية وأتباعها من الموالي والعبيد الذين يبلغ تعدادهم بضعة آلاف ، وشيدت في الرصافة قصور فخمة أهمها قصر جعفر بن يحيى البرمكي ، واتخذه للهو والطرب وكان القصر في موقع حسن لإطلاله على دجله وصار إلى المأمون منزل صيده وقنصه ، وبنى حوله وقريباً منه منازل لخاصته وأصحابه وحاشيته سميت بالمأمونية (٣) . كذلك توسع الناس في البناء في القسم الشرقي ، فبنوا فيه القصور المنيفة والمنازل المزخرفة ، واتخذوا الأسواق والمساجد والحمامات ،

---

(١) اليعقوبي : البلدان ص٢٣٦
(٢) ياقوت : معجم البلدان ج١ ص٤٥٢
(٣) ابن الساعي : نساء الخلفاء ص٧١

وأقطع المهدى رجاله مواضع بها ، وبنوا حيها ، ونشأت فى الرصافة عدة محلات أهمها محلة الشماسية ومحلة المخرم ، ومحلة أبى حنيفة — وبها مقبرة الإمام أبى حنيفة — ومحلة باب الطاق ، والطاق قسما من أقسام قصر لإحدى بنات المنصور ، ثم صار فى زمن الرشيد مجمعاً للشعراء ، وإلى جوار هذا الطاق سوق الصاغة ودار صاحب شرطة المهدى ، كذلك نشأت محلة دار الروم نسبة إلى أسرى الروم الذين أنزلوا فيها فى عهد الخليفة المهدى ، فشيدوا هناك بيعة ودوراً لهم .

وازدهرت محلة الشماسية فى عهد الرشيد لأن البرامكة اتخذوا قصورهم بها ، فشيد يحيى بن خالد قصره المعروف بقصر الطين بها ، كذلك اتخذ ولديه جعفر والفضل قصرين هناك . وامتدت قطائع البرامكة من الشماسية حتى البردان (١) .

كذلك برزت محلات أخرى فى الرصافة نخص بالذكر منها سوق الثلاثاء وقد نشأت إلى جوار هذه المحلة محلتان على ضفاف دجلة تسمى إحداهما محلة دار دينار الكبرى والأخرى دار دينار الصغرى نسبة إلى دينار بن عبد الله — من موالى الرشيد — وكان من أجل القواد فى زمن المأمون .

وصفوة القول أن بغداد صارت من أمهات المدن الإسلامية ، بل والعالمية فى العصر العباسى الأول ، ومركز العلم والثقافة ، وأهم مراكز النشاط التجارى فى العالم ، وكثرت ثروتها وازدهرت فى عهد الخليفة الرشيد ، وتجلى ذلك فى بلوغ العمر ان بها غايته وازدحام الناس بأنحائها وتموجهم كالبحر فى أرجائها ، حتى قيل أن تعدادهم زاد على مليون ونصف نسمة (٢) .

---

(١) ابن الساعى : نساء الخلفاء ص ٧١

(٢) الدورى : حضارة الإسلام فى دار الإسلام ص ٩٣ .

وهذا العدد الهائل يدل على أنه ليس فى المدن أعين ولا أيسر من الموضع الذى يتكوفون فيه تكوف الرمال (١) .

على أن مدينة بغداد لم تنعم بازدهارها طويلا ، بل تعرضت بعد عامين من وفاة الرشيد إلى التخريب والتدمير ، ذلك أن الخلاف نشب بين الأمين والمأمون - ولدى الرشيد - وما لبث أن تطور هذا الخلاف إلى حرب بين الأخوين ، وحاصرت قوات المأمون بغداد ، أربعة أشهر بقيادة هرثمة بن أعين وطاهر بن الحسين - قائدى المأمون - وعزل هرثمة الجانب الشرقى عن الجانب الغربى ، وهدم سوره ، بينما حاصر طاهر بن الحسين الجانب الشرقى (٢) .

واشتبكت قوات طاهر بن الحسين مع قوات الأمين فى معارك متعددة كان من نتيجتها تدمير حى الحربية بعد أن رمى بالنفط والنيران والمنجنيقات وأرسل طاهر إلى أهل الأرباض يطلب منهم التسليم ، فمن أجابه كف عنه ، ومن لم يجبه ودخل فى طاعته قاتله وأحرق منزله ، وظل يغدو ويروح بفرسانه وقواده ورجالته ، ويشن هجماته على بغداد ونواحيها حتى أوحشت مدينة المنصور ، وخاف الناس أن تبقى خراباً ، وأسمى طاهر الأرباض التى خالفه أهلها ومدينة أبى جعفر الشرقية وأسواق الكرخ والخلد وما والاها دار النكث ، واستولى على كل أملاك من خالفه من بنى هاشم والقواد والموالى ، فذلوا وانكسروا وانقادوا ، واشتد القتال وضعف أنصار الأمين ، وتعرضت المدينة للسلب والنهب حيث واتت الفوضى التى حلت بالمدينة الفرصة للصوص وقطاع الطرق والرعاع وأهل السوقه لسلب الناس والاعتداء عليهم ، وهدم طاهر بعض قناطر بغداد (٣) ، وشن هجماته

---

(١) الدوري : حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٩٣

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٨ هـ .

(٣) المصدر السابق حوادث سنة ١٩٨ هـ .

على الكرخ ، وحاصر بغداد ، وهاجم قصر أم جعفر وقصر الخلد ونصب المنجنيقات خلف سور بغداد ، وقذف المدينة ، وتفرق جنده فى السكك والطرق لا يلوى منهم أحد على أحد ، وتحصن محمد الأمين بالمدينة هو وأنصاره ، وشدد طاهر الحصار ، وفى سنة ١٩٨ ﻫ وقع الأمين فى الأسر بعد أن حوصر فى قصر الخلد ، ولم يلبث أن قتل ، وتوقفت الحرب بعد أن تحولت بغداد إلى خرائب ورماد حتى أتت النيران على أحياء بأكملها ودمرت هذه الحرب قصرى الخلافة ، باب الذهب فى وسط المدينة ، والخلد على دجله (١) .

وكان لمقتل الأمين أثر سيء فى نفوس أهل بغداد ، فاشتدت معارضتهم للمأمون وثاروا على وزيره الحسن بن سهل حتى غادر بغداد سنة ٢٠١ ﻫ ، وزاد أهل بغداد ، معارضة للمأمون حين بايع لعلى الرضا بولاية العهد وأمر الناس بلبس الخضرة — شعار العلويين — بدلا من السواد — شعار العباسيين — لذلك بايعوا إبراهيم بن المهدى ولقبوه المبارك وظل يحكم بغداد مدى عامين ، غير أن خيانة قواده له ، وتمردهم عليه أجبرته على تسليم المدينة وزمام الحكم إلى المأمون ، ونزل المأمون بالجانب الشرقى حيث نقل إليه مقر حكمه فى قصر من قصور البرامكة وقام بتوسيعه (٢) .

وقدر لبغداد أن تنزل عن مركزها الممتاز بعد أن انتقلت حاضرة الدولة إلى سامرا ، ذلك أن المعتصم جمع جيشاً من الترك بلغ عدة آلاف وألبسهم أنواع الديباج ، والمناطق الذهبية والحلية المذهبة ، وأبانهم عن سائر جنوده ، وكان الأتراك يؤذون الناس بمدينة السلام بجريها الخيول فى الأسواق ، وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك (٣) وضاقت بهم بغداد

(١) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص٢٦٩
(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٩٩
(٣) المصدر السابق

وتأذى بهم الناس بعد أن زاحموهم فى دورهم وتعرضوا بالنساء ، فتذمر أهل بغداد وتقدموا بالشكوى إلى المعتصم ، فرأى الخليفة ضرورة الإنتقال من بغداد مع عسكره ، ووقع اختياره على سامرا ، وشيدها سنة ٢٢١ هـ » واتخذها حاضرة بدلا من بغداد . وبذلك فقدت بغداد أهميتها كحاضرة إسلامية كبرى .

حقيقة ظلت بغداد محتفظة بقدر كبير من النشاط الأدبى والإزدهار الإقتصادى ، لكن انتقال حاضرة الخلافة عنها ، أفقدها السيادة على المملكة الإسلامية الكبرى .

الباب الأول

الحالة الاقتصادية فى بغداد فى العصر العباسى الأول

١ ــ الثروة الزراعية .

٢ ــ مظاهر تقدم الصناعة .

٣ ــ النشاط التجارى .

٤ ــ الإدارة المالية .

٥ ــ المعاملات المالية والتجارية .

٦ ــ الدواوين المالية .

الباب الأول

الحالة الاقتصادية فى بغداد فى العصر العباسى الأول

١ — الثروة الزراعية :

عنى الخلفاء العباسيون الأوائل بتنمية الثروة الزراعية فى منطقة بغداد ، فعملوا على تيسير الرى حتى يتمكن الزراع من زراعة الأرض دون جهد ومشقة ، من ذلك أنهم شقوا الترع وأقاموا المصارف وشيدوا القناطر ، ولما كانت الأرض الواقعة بين نهرى دجلة والفرات خصبة ، زاد إنتاجها بعد تحسين ريها .

استغل الخليفة المنصور نهر دجلة الغزير المياه ، فأمر بشق عدد من الجداول والترع تستمد مياهها منه ، تيسر رى الأراضى القريبة منه مثل قناة دجيل ، كما أحسن استغلال نهر الفرات ـ على الرغم من قلة مياهه ، وذلك بإقامة قناة تأخذ من كرخايا ـ إحدى روافد الفرات ـ وتجرى فى عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالآجر من أعلاها ، وتنفذ فى أكثر شوارع بغداد صيفاً وشتاءاً ، وصممت بحيث لا ينقطع ماؤها فى وقت من أوقات السنة ، كما أمر المنصور بشق قناة تجرى إلى الكرخ وما اتصل به ، سميت نهر الدجاج ، ونهر يسمى نهر طابق ، ونهر عيسى الأعظم الذى يستمد معظم مائه من الفرات ، ويتفرع منه أنهار تخترق بغداد ـ ومن بينها الصراة ويصب فى دجلة(١) . وكذلك شق المنصور فى الرصافة نهر المهدى(٢) . وكان لتوفر المياه فى منطقة بغداد أكبر الأثر فى وفرة إنتاجها الزراعى .

واستخدم العباسيون الأسلوب العلمى فى الزراعة ، فدربوا الوسائل

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص٢٣٦

(٢) اليعقوبى : البلدان ص٢٥٢

التى تؤدى إلى خصوبة الأرض ، وأنواع النباتات ، ونوعية التربة التى تصلح لكل نبات(١) ، ورشحت المستنقعات بنظام دقيق(٢) .

كانت أرض العراق من الناحية القانونية ملكا للدولة ، وأبقاها الخلفاء فى أيدى أصحابها يزرعونها ويؤدون خراجا عنها ، وقد حرص الخلفاء العباسيون على عدم اثقال كاهل الأهلين بضريبة الأرض الأمر الذى شجعهم على بذل الجهود لزيادة إنتاج الأرض ، ويذكر الجهشيارى(٣) أن الخليفة المهدى نهى عمال الخراج عن التعسف وإلحاق الجور بالمزارعين وكان الوالى الذى يلحق الأذى بأهل الخراج يعزل أو يعاقب(٤) .

وكانت الحكومة تمتلك أرضاً آلت إليها من الأمويين الذين صودرت أملاكهم ، أو مات أصحابها دون أن يتركوا من يرثهم ، أو أراض صادرها الخلفاء عقوبة لأصحابها ، وأرض الدولة هذه يقطعها الخلفاء إلى رجال يثقون بهم ، أو ممن أدوا خدمات جليلة لأمتهم ، وقد عمروا هذه الإقطاعات ، وسميت بأسمائهم ، من ذلك أن المنصور أقطع العباس بن محمد بن على الجزيرة بين الصراتين ، فجعلها العباس بستاناً ينمو فيه مختلف الزروع ، ولا تنقطع غلاتها صيفاً ولا شتاءا ، وسميت بالعباسية(٥) ، وأقطع المأمون وزيره الحسن بن سهل الصلح ، وهى كورة فوق واسط لها نهر يتفرع من دجله على الجانب الشرقى يسمى فم الصلح (٦) .

ولم يكن إقطاع الأرض مقصوراً على الخليفة وحده ، بل إن صاحب

(١) حسن إبراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسى ج٢ ص٣٠٧
(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى ص٣٦٤
(٣) الوزراء والكتاب ص١٤٣
(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢١٩
(٥) اليعقوبى : البلدان ص٢٥٩
(٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٠٢١ هـ .

Hitti . Hist. of the Arabs. P. 340.

الأرض الواسعة كان يقطع أحياناً بعض المزارعين جزءاً من أرضه ، فيقومون بزراعتها ، ويمدهم بما يحتاجون إليه من مواد وأدوات فى الزراعة، وييسر لهم سبل الرى ، ويمنحهم جزءاً من المحصول ، ويقوم المقطع بأداء الخراج عن الأرض المقطعة بواقع العشر فقط ، وتظل الأرض ملكاً له يتوارثها أبناؤه من بعده(١) .

وقد يحدث أحياناً أن يرغب صغار ملاك الأراضى الزراعية فى الإفلات من عبء الخراج العادى ، فدونوا ضياعهم مع ضياع كبار ملاك الأراضى الأقوياء ، فكانوا يدفعون عنها العشر فقط ، كما هو الحال فى الإقطاعات . على أن هذا التصرف لم يمنعهم من ممارسة حقوق ملكياتهم لأراضيهم ، فظلوا يتبايعونها ويتوارثونها ، وإن كانت بأسماء كبار الملاك المدونة مع ضياعهم(٢) ، فالجهشيارى(٣) يذكر أن رجلا من أهل الأهواز قدم إلى أبى أيوب الموريانى ـ وزير المنصور ـ وقال له : إن ضيعتى بالأهواز قد حمل على فيها العمال ، فإن رأى الوزير أن يعيرنى اسمه أجعله عليها مقابل قدر من المال ، فوافق الوزير على أن يهب اسمه للرجل .

شاع نظام الضمان فى جباية الخراج ، فكان على الضامن أن يقدم للحكومة مبلغاً معيناً من المال سبق أن اتفق مع الحكومة عليه ، وإذا ما أخل الضامن بالتزامه ، فإن الحكومة تفرض عليه عقوبات ، وقد ألحق الضمان ضرراً كبيراً بأهل الخراج من المزارعين وبالأرض ، لأن الضامن كان يلجأ فى بعض الأحيان إلى استخدام العنف للحصول على المال المحدد بالضمان فيسلمه إلى الحكومة فضلا عن الربح الذى يحرص على جمعه من أهل

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص٣٣

(٢) عصام الدين عبد الرءوف : تاريخ الإسلام فى جنوب غرب آسيا فى العصر التركى ص١٨٢

(٣) الوزراء والكتاب ص١١٨

الخراج ، فيضر ذلك بهم ، فيخربوا ماعمروا[١] .

وكانت المزارع تسق سيحاً أو بواسطة الآلات الرافعة ، وأكثر هذه الآلات شيوعاً ، الدالية والناعورة والدولاب (الساقية) فالدالية دولاب يجره ثور أو بقرة ، أما الناعورة دولاب يديره تيار النهر ، والدولاب أكثر الثلاثة تعقيدا يديره حصان أو ثور[٢] .

وتقع بغداد فى منطقة خصبة ، تضم قرى تنمو وتزدهر فيها الكثير من الغلات ، وشجع توفر المياه أهل بغداد على غرس النخيل الذى حمل من البصرة ، حتى صار فى بغداد أكثر منه فى البصرة والكوفة ، كما غرسوا الأشجار ، وأنتجت أجود الثمار ، وانتشرت الحدائق والبساتين فى كل ناحية من نواحى بغداد[٣] .

وازدهرت قرى بغداد التى توفر فيها المياه ، فكانت بلدة المحول التى تقع عند الموضع الذى يتفرع منه نهر الصراة ونهر عيسى بهاسد على النهر الرئيسى - عيسى الأعظم - لتنظيم المياه فيه ، وتقسيمها بين فرعى الصراة وعيسى اللذين ينحدران شرقاً إلى بغداد ، لذا اشتملت على البساتين الرائعة التى تنمو فيها مختلف المزروعات[٤] ويذكر الاصطخرى[٥] أن بادوريا - إحدى قرى بغداد - كانت خصبة الأرض غنية بمزارعها لحسن ريها ، وجودة أرضها .

ومن المزروعات التى أنتجتها بغداد الحنطة والشعير والتمر والأرز والفواكه كالعنب والمشمش ، والخضراوات والرياحين وأنواع الأزهار

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٦٠

(٢) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص ٥١

(٣) اليعقوبى : البلدان ص ٢٩٣

Hitti : Hist of the Arabs. P. 340.

(٤) ياقوت : معجم البلدان جـ٤ ص ٢١٤

(٥) المسالك والممالك ص ٨٥

كالنرجس والياسمين والورد ، وكذلك الجوز واللوز والقرنفل[١] وكان ببغداد سوق البطيخ يباع فيه الفواكه[٢] وجلب إلى بغداد النارنج من الهند، وحسنت زراعته فيها .

٢ — مظاهر تقدم الصناعة :

عنى الخلفاء العباسيون بتحسين الصناعات فى بغداد وتيسير أمرها للعاملين فيها ، فشيد الخليفة المعتصم مصانع فى بغداد لصناعة الصابون بالدهون والعطور ، وكانت بغداد تنتج أنواع الزيوت[٣] . كذلك أنشأ العباسيون مصنعاً للورق فى بغداد ، وجلبوا له الصناع وأرباب الحرف من مصر التى اشتهرت بهذه الصناعة منذ وقت بعيد[٤] ، وكان ببغداد عدد كبير من المصانع حتى قيل أنه كان بها أربعمائة رحى مائية وأربعة آلاف معمل لصنع الزجاج ، وبضعة آلاف معمل لصنع الخزف ، وكان لكل صناعة سوق خاص[٥] .

وازدهرت فى بغداد صناعة الأدوات الحديدية والخشبية المختلفة فى سوق الحدادين والنجارين ، كذلك كانت تصنع السفن والقوارب فى بغداد سواء الحربية أو التجارية أو الترفيهية. ويذكر الطبرى[٦] أن الأمين أمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية

---

(١) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص٥٣

(٢) اليعقوبى : البلدان ص٢٦٤

(٣) البغدادى : تاريخ بغداد ج١ ص٧٥ — Hitti : Hist. ofthe Arabs. p. 347

(٤) مقدمة ابن خلدون ص٢٤٥

(٥) أمين زكى : كتاب عمران بغداد ص٥٠

(٦) تاريخ الأمم والملوك ، حوادث سنة ١٩٨ هـ .

وقال أبو نواس فى ذلك :

قد ركب الدلفين بدر الدجى مقتحماً فى الماء قد لججا
فأشرقت دجلة فى حسنه وأشرق الشطان واستبهجا
خص به الله الأمين الذى أضحى بتاج الملك قد توجا

والفرس ، وأنفق فى عملها مالا عظيما ، كما ابتنى سفينة عظيمة أنفق على بنائها ثلاثة آلاف درهم ، واتخذ أخرى على شكل دابة بحرية قيل إنها تنقذ الغريق اسمها الدلفين .

وتقدمت صناعة حياكة الثياب الحريرية والقطنية والأقمشة بأنواعها فى بغداد ، وكان ببغداد سوق للبزازين ، ويباع فيه بالإضافة إلى الأقمشة والمنسوجات ، العمائم الدقيقة من صنع بغداد والمناديل ، وكان السقلاطون وهو نسيج حريرى سميك - يصنع فى بغداد ، وفى محلة العتابية تصنع الثياب العتابية ، وهى ثياب مخططة تصنع من خيوط قطنية وحريرية[١]، وتقدمت صناعة البسط فى بغداد ، ويصنعونها من القطن والكتان[٢] ويذكر صاحب كتاب الفخرى[٣] أن الحسن بن سهل ، فرش للخليفة المأمون يوم زواجه من ابنته بوران حصيراً منسوجاً من الذهب ، وصنع للسيدة زبيدة زوجة الرشيد بساطاً من الديباج ، جمع صورة كل حيوان وطائر من جميع الأجناس ، وأنفقت عليه نحواً من ألف ألف دينار[٤] واتخذ المأمون فى قصوره ثلاثة آلاف وثمانمائة بساط منها ألف ومائتين مزركشه بالذهب[٥] .

وأنشأ العباسيون فى بغداد - كما فعل الأمويون فى دمشق من قبل - دور الطراز ، فكانت تنقش أسماؤهم أو علامة مميزة تختص بهم على الأثواب التى يرتدونها ، وكذلك ملابس أجنادهم ورجال دولتهم ، وعليها شارة الخليفة أو لقبه وبعض عبارات الدعاء[٦] ، والكتابة تحاك بخيوط من

---

(١) Hitti : Hist. of the Arabs. P. 345.

(٢) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص٩٣ ، ١٤١ (٣) ابن طباطبا ص٢٠٣

(٤) ابن الابشيهى : المستطرف ج١ ص٨٩

(٥) الدورى : حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٩٥

(٦) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٠ — ٢١١

الذهب أو من خيوط ذات ألوان زاهية وكان القائم بالنظر فى دور الطراز يسمى صاحب الطراز[١] وهو ينظر فى أمور الصياغ والحاكة ، ويشرف على أعمالهم ويجرى عليهم أرزاقهم ، وتنتج دور الطراز البسط والثياب والأعلام والبنود والفرش ، ويستعملها الخليفة أو يمنحها لكبار عماله[٢].

واشتهرت بغداد بالصناعات الزجاجية ، أخذوها عن الفرس ، وبلغت درجة كبيرة من الدقة والاتقان ، وبلغ من مهارة الصناع أن الزجاج كانوا يرصعونه بالجواهر ويكتبون عليه بالذهب المجسم ويصنعون أقداحاً بديعة الصنع .

كذلك ظهر فن الصناعة على المبانى ، فكان على الجدران والسقوف نقوش فى رسم ملون أو فسيفساء من ذهب ، وعلى دائر الأبواب كتابة من الزجاج الملون ويحوطونها بخشب أسود من الأبنوس وغيره ، ويعلق الصناع رسوماً من النحاس تمثل غصوناً وثماراً أو أزهاراً إلى غير ذلك من الأشكال التى تؤكد براعة الصانع وذوقه الفنى ودقته ومهارته[٣] .

٣ — النشاط التجارى :

لم يأل الخلفاء العباسيون جهداً فى سبيل تشجيع التجارة على اعتبار أنها مصدر هام من مصادر الثروة .

وكانت التجارة داخل بغداد مركزها الأسواق ، وقد حرص الخليفة المنصور عند تأسيس مدينة بغداد على انعاش الحالة التجارية فيها فأمر المشرفين على تشييدها أن يراعوا فى تخطيط المدينة ما يحتاجه كل ربض من أسواق وحوانيت، وأن يتوسعوا فى إنشاء الحوانيت ليكون فى كل ربض سوق جامعة تجمع التجارات ، «وكان لكل نوع من التجارة شوارع

---

(١) الدميرى : حياة الحيوان الكبرى ص٧٩

(٢) Hitti : Hist. of the Arabs P. 845.

(٣) المدور : حضارة الاسلام فى دار السلام ص٢٦

معلومة وصفوف فى هيئة الشوارع وحوانيت ، وليس يختلط قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ، ولا يباع صنف مع غير صنف ، ولا يختلط كل فئة من التجار بغيرهم ، وكل سوق مفرده وكل أهل منفردين بتجارتهم »[١] .

ازدهرت التجارة فى أسواق بغداد حتى أن الكبش كان يباع بدرهم والحمل بأربعة دوانق ، وينادى على لحم الغنم كل ستين رطلا بدرهم، ولحم البقر كل تسعين رطلا بدرهم ، والتمر كل ستين رطلا بدرهم ، والزيت ستة عشر رطلا بدرهم ، والسمن ثمانية أرطال بدرهم ، والعسل عشرة أرطال بدرهم ، ولهذا الأمن والرخص كثر سكان بغداد ، وكثر الدارج فى أسواقها ، حتى أن المار لا يستطيع أن يجتاز أسواقها لكثرة زحام أهلها[٢] .

على أن المنصور لم يلبث أن أمر التجار بالخروج من المدينة ، كما سبق أن أوضحنا ـ وأمر ببناء سوق للتجار ما بين الصراة ونهر عيسى[٣] ، وشيد بحيث يكون صفوفاً ، ورتب كل أهل تجارة فى موضع، وأمر بجعل سوق القصابين فى آخر السوق لأن فى أيديهم الحديد[٤] . وهذا السوق الجديد يعرف بالكرخ ، وكان يباع فيه مختلف البضائع ، ولقد أعفا المنصور التجار من الضرائب ، تخفيفاً عليهم ، وتشجيعاً لهم على مواصلة عملهم ، ولما استخلف المهدى فرض الضرائب على الحوانيت[٥] ، وبمرور الزمن كثر التجار فى الكرخ ، وضاق بهم ، فبنى التجار أسواقاً من أموالهم حتى اتسع الكرخ[٦] .

---

(١) اليعقوبى : البلدان ص ٢٤٠

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ٩٩

(٣) ياقوت معجم البلدان جـ٧ ص ٢٢٣

(٤) اليعقوبى : البلدان ص ٢٥٠

(٥) ياقوت : معجم البلدان جـ٢ ص ٢٢٣

(٦) Le Strange : Hist. of Baghdad P. 181.

وكانت التجارة فى الرصافة تتركز فى محلة باب الطاق فى طرف الجسر المركزى ، ومن ساحة هذا الجسر يتفرع سوقان ، سوق الأساكفة وسوق الطيب حيث تباع العطور والزهور ، ويلى هذان السوقان سوق الخبازين وسوق القصابين ، وسوق الصاغة وسوق الوراقين (١) وظلت التجارة مزدهرة فى هذه الأسواق حتى عهد الأمين فتعطلت بسبب الحصار ، وفى بداية عهد المأمون ارتفعت الأسعار بسبب الاضطرابات التى حدثت داخل بغداد .

كانت بغداد ملتقى التجارة فى العصر الساسانى ، وازدهرت التجارة فيها بعد تأسيسها مباشرة ، فقد سكنها أناس من مختلف الأمصار ، وآثارها السكان الجدد على أوطانهم « فليس من أهل بلد إلا ولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف ، فاجتمع بها ما ليس فى مدينة أخرى » وأدى موقعها التجارى الممتاز ، وجريان دجله والفرات فى حافتيها إلى أن كانت التجارة تأتيها براً وبحراً بأيسر السبل حتى اجتمعت بها بضائع المشرق والمغرب من أرض الإسلام وغير أرض الإسلام . فتأتيها التجارة من الهند والسند والصين والتبت وبلاد ما وراء النهر والترك والخزر والحبشة وسائر البلدان (٢) .

ومن أسباب اختيار المنصور لموقع بغداد حاضرة لدولته موقعها التجارى ، رآها جزيرة بين دجلة والفرات ، دجلة شرقيها والفرات غربيها ، فتأتيها من دجلة تجارات واسعة ، من البصرة والأبله والأهواز وفارس وعمان والبحرين واليمامة وما يتصل بذلك ، وكذلك ما يأتى من الموصل وديار ربيعة وأذربيجان وأرمينيه مما يحمل فى السفن فى دجله ، ويأتى من ديار مصر والرقة والشام والثغور ومصر والمغرب مما يحمل فى السفن فى

---

(١) Ibid. pp. 271—272.
John Glubb : The Empire of the Arabs. P. 330.

(٢) اليعقوبى البلدان ص ٢٣٤

الفرات من أهل الجبل وكور خراسان وأصفهان (١) .

خرجت من بغداد رحلات تجارية من مختلف البلدان ، وبرز رحاله يسروا للناس أمر الوصول إلى البلدان المختلفة ، فابن خرداذبه وضع دليلا للمسافرين وصف فيه الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب دجلة عند الأبله، وينتهى إلى بلاد الهند والصين (٢) . .

وكانت رحلات العرب البحرية تبدأ من بغداد وتسير فى الخليج الفارسى حتى تصل إلى شبه جزيرة ملقا (الملايو) وكانوا يمرون بعدة موانى تمكنهم من إبتياع بضائع الهند والصين وغيرها (٣) . وجدير بالذكر أن طرائف الصين كانت تباع فى سوق خضير بالرصافة .

ويتفرع من بغداد طرق تجارية أبرزها طريق شرقى الى حلوان ومنها إلى إيران وأواسط آسيا ، وطريق شمالى إلى الموصل والجزيرة وطريق جنوبى إلى واسط ثم البصرة وطريق جنوبى غربى إلى الكوفه ومنها إلى الجزيرة العربية حيث ينتهى عند الحجاز ، وطريق غربى إلى الرحبه ومنها إلى سوريه فمصر (٤) .

قلنا إن التجار حملوا السلع من مختلف البلدان إلى بغداد، فحملوا الحديد من خراسان والرصاص من كرمان والآنيه والتوابل من الهند والنسيج الملون من كشمير ، والعود والمسك وسائر العطور من الصين ، والعطر وأنواع الطيب من اليمن ، ومن أفريقية الذهب والأبنوس ، والكافور والعود والثياب القطنية من السند ، ومن سرنديب اليواقيت المختلفة ، والماس والدر واللؤلؤ والمرجان من سواحل الخليج ، والجلود والرقيق

(١) Heyd : Hist. du commerce de Levant au Moyen Age. I. p. 27.

(٢) اليعقوبى : البلدان ص٢٥٣

(٣) المصدر السابق ص٢٥٣

(٤) Hitti : Hist. of the Arabs P. 343.

من بلاد الروم ، والسلاح والحديد والجلود من بلاد الروس(١)، وكانت السفن تأتى إلى بغداد محملة بالبضائع خصوصاً الدقيق والخضراوات من سوريه فى الفرات ثم تسلك نهر عيسى إلى بغداد(٢) . ومن بلاد ما وراء النهر كانت بغداد تشترى القطن والمنسوجات الحريرية والملابس الصوفية والفرو والرقيق التركى والأسلحة والكاغد، ومن أرمينية البسط والطنافس والسجاد وثياب الكتان والثياب الرقاق والطيالس من الصوف والقلانس(٣) .

واشتهرت شمال فارس بجودة فواكهها ، وبصفة خاصة مرو التى كانت تنتج أجود أنواع البطيخ(٤) ، وكان يقدد ويحمل إلى العراق وكان يحمل هذا النوع من البطيخ إلى الخليفة المأمون ثم إلى الواثق فى قوالب الرصاص المعبأة بالثلج(٥) .

وكان التجار فى عداد الطبقة المتوسطة ، لذلك أنف من الاشتغال بها عليه القوم ، فلما اعتزم يحيى بن خالد البرمكى الاشتغال بالتجارة واتصل ببعض التجار لهذا الغرض، قال له أحدهم: أنت رجل شريف وابن شريف وليست التجارة من شأنك(٦) وكان وزير المعتصم محمد بن عبدالملك الزيات أبوه تاجراً موسراً ، ونشأ محمد وتأدب وكان ذكيا فبرع فى كل شىء ، وكان يقول : الحمد لله الذى نقلنى من ذل التجارة إلى عز الوزارة(٧) .

---

(١) المدور : حضارة الإسلام فى دار السلام ص١١٦
(٢) اليعقوبى : البلدان ص٢٥٠
(٣) الجاحظ : التبصر بالتجارة ص٣٤٤ — ٣٤٦
Hitti : Hist. of the Arabs. P. 343.
(٤) الثعالبى : لطائف المعارف ص١٢٩
(٥) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص١٢٨
(٦) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص١٨٦
(٧) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢٤٣

٤ — الادارة المالية :

حرصت الدولة العباسية على تحقيق التوازن بين مواردها ومصروفاتها، ومن أهم الموارد الثابتة لبيت المال الجزية والخراج والمكوس .

١ — الخراج هو ضريبة الأرض ، ويحدد طبقاً للمحصول التى تنتجه الأرض ، ونوع التربة . وطريقة ريها ، ونوع الزرع ، ومساحة الأرض، وكانت سياسة عمر بن الخطاب - كما رأينا من قبل - عدم تقسيم الأرض بين الغزاة الفاتحين ، فتركها فى يد أهلها يزرعونها ويؤدون خراجها ، وقال : قد رأيت أن أحبس الأرضين بعلوجها ، وأضع عليهم فيها الخراج ، وفى رقابهم الجزية يؤدونها فتكون فيئا للمسلمين المقاتلة والذريه ولمن يأتى من بعدهم ، والمقاتلة الذين يذودون عن الثغور ويعسكرون فى المدن الكبرى وقال : فمن أين يؤتى هؤلاء إذا قسمت الأرضون والعلوج ؟(١) . ويقول أبو يوسف(٢) : إن ما رآه عمر بن الخطاب من جمع خراج ذلك وقسمته بين المسلمين عموم النفع لجماعتهم . لأن هذا لو لم يكن موقوفاً على الناس فى الأعطيات والأرزاق لم تشحن الثغور ولم تقو الجيوش على السير فى الجهاد ، ولما أمن رجوع أهل الكفر إلى مدنهم إذا خلت من المقاتلة والمرتزقة .

عنى المنصور عناية كبيرة بالخراج ، فراقب عمال الخراج مراقبة شديدة وأمرهم ألا يقبلوا من الناس إلا النقد الموثوق بسلامته ونقاوته لمن يدفع نقداً ، والمكيال الصحيح لمن يؤدى الخراج عيناً(٣) ولضبط الخراج العينى استحدث كيلا جديداً ، وأدخل المهدى نظاماً جديداً فى جباية الخراج ، فبعد أن كان الخراج يؤدى على حسب مساحة

---

(١) أبو يوسف: الخراج ص ١٤

(٢) الخراج : ص ١٥

(٣) البلاذرى : فتوح البلدان ص ٤٦٩

الأرض ، بصرف النظر عن نوع المحصول وطرق الري ، قرر المهدي إدخال نظام المقاسمة ، وبمقتضاه كانت الدولة تقاسم المزارعين المحصول بنسب معينة بغض النظر عن مساحة الأرض . وقد حدد المهدي نسبة المقاسمة بمقدار نصف المحصول[1] .

ومما لا شك فيه أن نظام المقاسمة ضمن للدولة الحصول على نصيبها من الخراج بعد تحديده ، وأراح الناس ، فنشطوا في زراعة الأرض واطمأنوا على أحوالهم المعيشية بعكس نظام المساحة الذي كان يضر ببعض الزراع لأنه يفرض عليهم خراجا على الأرض زرعت أو لم تزرع .

كانت دواوين الخراج في الدولة تقوم مقام خزائن الدولة ، فتستوفي من مال الخراج النفقات وأعطيات الجند ، ثم يحمل ما تبقى إلى بيت المال العام بمدينة بغداد ، ولذلك فإن بيت المال في بغداد لم يكن يعنى إلا بدار الخلافة وحاجاتها وبشؤون الدواوين[2].

انتظم الخراج في عهد الرشيد بعد الإصلاحات التي استحدثها البرامكة في الزراعة والري ، كما شعر الزراع بالأمان بعد أن نظر البرامكة في ظلاماتهم ، وألغوا المبالغ المتأخرة على الزراع العاجزين عن السداد وقد أوصى القاضي أبو يوسف الرشيد بأن تقوم الدولة بحفر الترع والقنوات وتيسير سبل الري[3] . وكان الرشيد لا يتهاون مع عمال الخراج الذين يلحقون الأذى بالأهلين ، ويحملونهم فوق طاقتهم .

ظل نظام المقاسمة معمولا به حتى ولي الرشيد الخلافة فخفض المقاسمة بحيث أصبحت في السواد ، كما حددها القاضي أبو يوسف[4] على الحنطة

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ١٩٨

(٢) متز : الحضارة الإسلامية جـ ١ ص ١٤٧

(٣) أبو يوسف : الخراج ص ٢٧

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٤٢ — ٤٨

والشعير خمسين والنخل والكروم والرطاب والبساتين الثلث ، وأما غلال الصيف فعليها الربع ، وتكون المقاسمات فى أثمان ذلك بعد تحديد قيمتها تحديداً عادلا لا يكون فيه إجحاف بأهل الخراج ، وظل الحال كذلك حتى أيام المأمون إلا أنه أحدث كيلا جديداً فى تقدير الخراج(١) .

وأما القطائع فيحدد خراجها تبعاً لطريقة ريها فما كان ريها سيحا فعليها العشر ، وما سقى منها بالدلو أو بمشقة نصف العشر ، ويعفى بعض أنواع المحاصيل مثل الخضراوات والبطيخ ، وما يكال بالقفيز ويوزن بالأرطال فهو مثل الحنطة والشعير والذرة والأرز والحبوب والسمسم، إذ عليه العشر إذا كان ريه سيحا ونصف العشر إذا كان ريه بمشقة (٢) .

وأما الإقطاعات التى كانت فى الأصل صوافى – وهى أرض كانت لكسرى ومرازبته وأعوانه وأنصاره ، أو التى فر أصحابها أو قتلوا فى الحرب وآلت إلى الدولة الإسلامية – فكان عمر بن الخطاب يقطعها لمن له مواقف فى الإسلام ، وعليها العشر ، ويلزم صاحب الاقطاع تيسير أمر ريها وإصلاحها ، ومن الناحية النظرية كان كل من يعتنق الإسلام تصبح أرضه أرض عشر بعد أن كانت أرض خراج (٣).

٢ – الجزية : الجزية واجبة على جميع أهل الذمة ، وتجب على الرجال منهم دون النساء والصبيان ، على الموسر ثمانية وأربعون درهما وعلى الوسط أربعة وعشرون ، وعلى المحتاج الكادح اثنى عشر درهما ، يؤخذ منهم ذلك فى أول كل سنة قمرية ، ولا تؤخذ الجزية من المسكين الذى يتصدق عليه ولا من أعمى لا حرفة له وكذلك المترهبون فى الديارات إذا كانوا فقراء ، ولا تؤخذ من الشيخ الكبير الذى لا قدرة له على العمل .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص٢٥١
(٢) أبو يوسف : الخراج ص٨٥
(٣) المصدر السابق ص٦٢

وكان ولاة الخراج فى العراق يبعثون رجالا من قبلهم يثقون بدينهم وأماناتهم ، يأتون القرية فيأمرون صاحبها بجمع من كان فيها من اليهود والنصارى والمجوس والصابئين والسامرة ، فإذا جمعوهم أخذوا منهم الجزية على قدر طاقاتهم (١) .

٣ — الضرائب التى تفرض على تجار أهل الذمة وتسمى المكوس وقد حددت بمقدار $\frac{١}{٢٠}$ من قيمة بضائع التجار ، إن كانوا يقيمون فى الدولة الإسلامية ، وتجبى مرة فى السنة ، بشرط أن تزيد قيمة التجارة عن عشرين دينار أو مائتى درهم ، وعشر قيمة بضائع التجار القادمين من خارج البلاد الإسلامية ، إن زادت القيمة على عشرين دينار أو مائتى درهم ، وكان جباة هذه الضريبة يتخذون أماكنهم فى طرق التجارة البرية والنهرية (٢) ، ويمنح التاجر إيصالا بتأديته الضريبة يسرى لمدة سنة . وكان العراق كثير المراصد فى البر والنهر والبحر كذلك فرضت ضرائب على الأسواق وعلى الأوزان والمكاييل والطواحين ، ونظم الرشيد المراصد على الحدود ، وأمر بتفتيش التجار المارين بها تفتيشاً دقيقاً ، وعندما حوصرت بغداد فى عهد المأمون ، عمد بعض قادة طاهر بن الحسين إلى فرض ضرائب على التجار (٣) . وفرضت الدولة ضرائب على سك النقود فى دار الضرب بنسبة ١٪ عما يضرب بها من دنانير ودراهم (٤) .

وكانت الدولة العباسية يرد إليها أموال من الدولة البيزنطية فى بعض السنوات التى تحرز انتصارات عليها ، فلما غزا الرشيد دولة الروم سنة ١٩٠م

(١) أبو يوسف : الخراج ص ٧٠
(٢) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص ٢٦٢
(٣) البغدادى : تاريخ بغداد ص ٧٠
(٤) اليعقوبى : البلدان ص ١٢٢

طلب منه نقفور فوكاس - إمبراطور الروم - الهدنة مقابل جزية سنوية قدرها ثلاثمائة ألف دينار سنويا ، فوافق الرشيد[١] .

شكلت المصادرات موردا ماليا هاما ، فصادر الرشيد أموال البرامكة فكانت ٣٠٬٦٧٦٬٠٠٠[٢] وصادر أموال علي بن عيسى بن ماهان - واليه على خراسان - فكانت ٨٠٬٠٠٠٬٠٠٠ من الدراهم وصادر الأمين أموال أخيه المأمون وضياعه في بغداد ونواحيها لما نشبت الفتنة بينهما[٣] ، وصادر المعتصم أموال وزيره الفضل بن مروان[٤] .

تدفقت الأموال على بغداد في العصر العباسي الأول بفضل استقرار الدولة الذي كفله لها الخليفه المنصور وخلفاؤه من بعده خصوصا الرشيد ، وامتلأ بيت المال بالذهب والفضة حتى بلغ دخل الدولة في بعض السنوات المبكرة من الحكم العباسي خمسمائة ألف ألف درهم من الفضة وعشرة آلاف دينار من الذهب ما عدا الغلال والمصنوعات التي تشتهر بها البلاد العباسية[٥] وجدير بالذكر أن المنصور خلف لابنه المهدى قبل وفاته من الأموال ما إن كسر عليه الخراج عشر سنين كفاه لأرزاق الجند ، وسائر النفقات ، وكان ما خلفه في بيت المال أربعة عشر ألف ألف دينار وستمائة ألف ألف درهم[٦] . وبلغ دخل الدولة في عهد الرشيد خمسة آلاف ألف دينار ، ومن الدراهم أربع مائة ألف ألف وأربعة آلاف ألف وسبع مائة ألف وثمانية آلاف درهم[٧] .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص٢٠٣
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢٣٥
(٣) المصدر السابق ص٢٩٣
(٤) الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢١٢
(٥) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٢٤٣
(٦) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢٨٨
(٧) الجهشيارى : ص٢٨٢ وما بعدها

حرص الخلفاء العباسيون على التمييز بين أموالهم الخاصة والأموال العامة . فلما شعر المنصور بدنو أجله ، استدعى ابنه المهدى وقال له : على دين أحب أن تقضيه وتضمنه قدره ثلاثمائة ألف درهم ونيف ولست أستحلها من بيت المال ، فاضمنى عنها(١) .

كانت الدولة تنفق الموارد السابق ذكرها فى دفع أجور العمال والموظفين ، وقد بلغ رزق كل كاتب من رؤساء الكتاب ٣٠٠ درهم شهرياً(٢) والكاتب المبتدىء عشرة دنانير(٣) وكاتب ديوان القضاء والجند ٢٠٠ درهم ، وأنفق المنصور أموالا طائلة فى تشييد مدينة بغداد ، وحدد أجور الموظفين والعمال الذين عملوا فى بنائها ، وبعد تشييدها مثل أئمة المساجد والمؤذنين الذين عملوا فى مساجد المدينة ، وكذلك الكتاب الذين اشتغلوا فى دواوينها(٤) .

وكان الخلفاء يفرقون الأموال الكثيرة على أفراد البيت العباسى حتى أن المنصور أطلق فى يوم واحد لبعض أعمامه ألف ألف درهم ، وفى هذا اليوم فرق فى بيته عشرة آلاف درهم(٥) وازداد عدد أفراد البيت العباسى فى عهد المهدى ، فحدد لهم رواتب ومخصصات بلغت ستة آلاف درهم فى السنة غير المنح والهبات واستمر هذا الوضع من بعده ، وكان للخليفة حرس خاص من أهل بغداد لهم رواتب كبيرة(٦) .

وأنفق الخلفاء أموالا جليلة فى المنح والهبات والعطايا للأدباء والشعراء والعلماء والندماء ومن يلوذ بهم من ذوى الحاجة ،

كانت الدولة تنفق أموالا باهظة فى إعداد الجيوش وتجهيزها بالمؤن

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥٨ هـ .
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص١٠٠
(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص١٢٦
(٤) المصدر السابق ص١٣٩
(٥) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص١٢٦
(٦) البغدادى : تاريخ بغداد جـ٥ ص٢٩٣

والقتاد ، ففي سنة ١٤٤ هـ أعد المنصور جيشاً بقيادة يزيد بن حاتم ، وأمره بقتال الخوارج في أفريقية وأنفق على هذا الجيش نحوا من ثلاث وستين ألف درهم(١) ، وفي سنة ١٦٥ هـ جهز المهدي ولده الرشيد لغزو الروم ، وأعد له من النفقه مائة ألف دينار ، وأربعة وتسعون ألف دينار ، وأربعمائة وخمسون ديناراً ، ومن الدراهم إحدى وعشرون ألف ألف وأربعمائة ألف وأربعة عشر ألفاً وثمانمائة درهم(٢) وفي سنة ١٩٥ هـ عقد الأمين لعلى ابن عيسى بن ماهان الأمارة على الجبل وهمذان وأصبهان وقم وتلك البلاد ، وأمره بحرب المأمون(٣) ، وجهز معه جيشاً كثيراً ، وأنفق فيه نفقات عظيمة ، وأعطاه مائتي ألف دينار ولولده خمسين ألف دينار وفي سنة ٢٢٢ هـ جهز المعتصم جيشاً كثيفاً مدداً الأفشين على محاربة بابك الخرمي ، وبعث إليه ثلاثين ألف ألف درهم نفقة للجند(٤) .

كذلك كان العباسيون يعملون على استرضاء بعض الثائرين خصوصاً العلويين بالمال . ليكفوا عن مناوأة الدولة ، فأطلق الرشيد من بيت المال أربعمائة ألف دينار ليحيي بن عبدالله العلوي(٥) وأوصى المأمون أخاه المعتصم بالعلويين خيراً ، وأن يواصلهم بصلاتهم في كل سنة(٦) .

وكان الخلفاء العباسيون ينفقون الأموال الجزيلة على أهل مكة والمدينة . ففي سنة ١٦٠ هـ حج المهدي ، وفرق في أهل مكة والمدينة ثلاثين ألف ألف درهم ومائة ألف ثوب ، ورد من مصر ثلاثمائة ألف دينار ومن اليمن مائتا

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١١١
(٢) المصدر السابق جـ ١٠ ص ١٤٧
(٣) المصدر السابق جـ ١٠ ص ٢٢٦
(٤) المصدر السابق جـ ١٠ ص ٢٨٣
(٥) المصدر السابق جـ ١٠ ص ١٦٨
(٦) المصدر السابق ١٠ ص ٢٨١

ألف دينار ، فأعطاها كلها لأهل مكة والمدينة(١) .

وكانت الدولة تكافأ قوادها الذين أظهروا براعة وشجاعة فى التغلب على أعدائها ، فالخليفة المعتصم كافأ الأفشين عقب انتصاره على بابك وأسره والقضاء على ثورته بأن قلده وشاحين من جوهر ، وأطلق له عشرين ألف ألف درهم ، وكتب له بولاية السند(٢) .

وكان تأخر رواتب الجند من الأمور التى تحدث الاضطرابات والقلاقل فلما خلع أهل بغداد بيعة المأمون سنة ٢٠٢ هـ وبايعوا ابراهيم بن المهدى ، طلب منه الجند أرزاقهم فماطلهم ثم أعطى لكل واحد منهم مائتى درهم ، وكتب لهم بتعويض من أرض السواد ، فخرجوا لايمرون بشىء إلا انتهبوه ، وأخذوا حاصل الفلاح والسلطان(٢) .

***

حرص الخلفاء العباسيون على تحسين أحوال الدولة المالية ، فعرف عن المنصور الخبرة الواسعة فى إدارة المال(٣) حتى أنه فرض رقابة شديدة على عمال الخراج ، وأمرهم بعدم قبول الدنانير والدراهم من الناس إلا الموثوق بسلامتهما من الغش والتزييف ، وكان يقول : لولا أن المال حصن للسلطان ودعامة للدين والدنيا ما بت ليلة وأنا أحرز منه دينارا ولا درهما لما أجد لبذل المال من اللذة ، ولما أعلم فى إعطائه من جزيل المثوبة(٤) .

ومع حرص المنصور على المال إلا أنه كان ينفق الأموال الكثيرة فى تعمير البلاد وحماية الثغور وتحصينها وتجهيز الجيوش ، وقد عرف

---

(١) المصدر السابق ١٠ ص١٣٢

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ ١ ص٢٨٥

(٣) المصدر السابق جـ١٠ ص٢٤٨

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص١٢٩

عنه الدقة الشديدة فى حسابات الدولة ، فأنفق فى بناء بغداد أربعة آلاف ألف وثمانى مائة وثلاثة وثلاثين درهما ، ولما فرغت حاسب القواد بما كان حول عليهم لعمارتها ، فألزمهم بالبواقى حتى استوفى من بعضهم ما اقتضاه الحساب خمسة عشر درهما(١) ، وكان يباشر بنفسه جميع العمال وأصحاب الحرف ويحدد لهم رواتبهم(٢) .

ولم يكن المهدى كأبيه المنصور فى حرصه الشديد على المال ، بل عرف بسخائه ، وإجزاله العطايا والمنح ، وعمل على تخفيف أعباء الناس المالية ، وانتعشت الأحوال المالية فى عهد الرشيد بفضل كفاءة البرامكة وحسن إدارتهم للدولة ، وأخذت موارد الدولة المالية تتضاءل فى عهد الأمين بسبب الحروب التى نشبت بينه وبين أخيه ، وانفقت الأموال الكثيرة فى إعداد الجيوش واستمالة الأنصار كما أن بعض ولايات الدولة لم تعد تلتزم بإرسال ما عليها من أموال إلى بغداد فى خضم الفوضى التى عاشت فيها إبان الفتنه .

كفل المأمون للدولة الاستقرار والهدوء فتحسنت موارد البلاد المالية ، ولما ولى المعتصم الخلافة أنفق الأموال الكثيرة فى شراء الترك وإعدادهم للجندية ، ومع ذلك فقد حرص على المحافظة على حقوق الدولة المالية(٣) . وأمر الواثق بعقوبة عمال الدواوين لاستخلاص الأموال منهم بعد أن ظهرت له خياناتهم ، وأخذهم أموال الدولة بدون وجه حق(٤) .

٥ — المعاملات المالية والتجارية :

ظهرت بيوت مالية فى بغداد كانت تقوم مقام البنوك من تقديم القروض ، وإيداع الودائع ، والتوسط بين الناس ودار الضرب والإتجار

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٤٥
(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص٣٠٠
(٣) المصدر السابق .

فى المعادن النفيسة والنقود والسندات الممثلة للنقود ، وهذه البيوت المالية يمتلكها الجهابذة ، وكانت تسند إليهم مهمة جباية الخراج ، ويوكل إليهم أيضاً مهمة العمل فى بيت المال لخبرتهم المالية الواسعة ، وقد اتهم خالد البرمكى حين حكم عليه المنصور بأداء مبلغ من المال ، بأنه يودع أمواله عند أحد الجهابذة(١) .

أدى ازدهار التجارة والعمليات التجارية إلى اتخاذ أساليب جديدة فى العمليات المالية ، تيسر للعملاء التعامل فى أمن وطمأنينة ويسر ، ومن هنا استعمل الناس السفاتج ، والسفتجه حواله خطاب يشمل على قيمة معينة من المال قابل للصرف من أى مكان من عملاء وجهابذه الشخص الذى له السفتجه ، فكانت تدفع النقود فى أى بلد من البلاد ويحصل صاحبها على سفتجه بقيمة ماله ، ويحملها معه فى رحلته الطويلة وهو آمن على ماله لأنه لم يكن يجوز صرف أى مبلغ إلا لصاحب السفتجه ، وقد استخدم التجار هذه الوسيلة لإنجاز عملياتهم التجارية ، وشاع استخدام السفاتج حتى أن أموال الجبايات من الولايات العباسية كانت ترسل إلى بغداد بسفاتج ، وكانت السفاتج تصرف فى أوقات محددة ، ولقد نظم الجهابذة التعامل بالسفاتج ، والسفتجه كانت تصرف فى موعدها مجاناً ، أما إذا تأخر صرفها ، صرفت بعموله(١) .

أما الصك ، فأشبه بالشيك فى عصرنا الحالى ، يثبت فيه قيمة القرض أو الاستحقاق ، وموعد استحقاق صرفه ، وقد استخدمه بعض الأفراد فى معاملاتهم ، وكان الجهابذة يصرفون هذه الصكوك لأصحاب الأموال المودعة لديهم نظير مبلغ معين من المال ، ويشهد على الصك عادة اثنين ثم يختم ، وفى بعض الأحيان يوقع عليه ضامن يتعهد بأنه يدفع قيمة الصك

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٠٠ .

(٢) الدورى : تاريخ العراق ص ١٢٣

فى حالة عجز المدين عن دفع قيمته . وفى بعض الأحيان كانت أرزاق الجند والموظفين تكتب قيمتها صكوكا يوقع عليها رؤساء دواوينهم ، وأحيانا الخليفة ، ويصرفونها من بيت المال[١] . والصلات التى يقررها الخليفة فى بعض الأحيان يكتب بها صكوكا ، وجدير بالذكر أن الإمام العلوى محمد بن إبراهيم ركبه دين ، فقصد الفضل بن يحيى فقال له : قصرت بنا غلاتنا ، وأغفل أمرنا خليفتنا ، وتزايدت مؤونتنا ولزمنا دين احتجنا لأدائه إلى ألف ألف درهم . فتوسط الفضل لدى الرشيد فى فك ضيق الرجل ، فكتب الرشيد صكا إلى محمد بن إبراهيم بالمبلغ الذى طلبه[٢] . واشترى الفضل بن يحيى ضيعه ، وكتب بثمنها صكا إلى صاحبها[٣] .

شاع استعمال الدرهم فى بغداد فى العصر العباسى الأول ، على أن وزنه نقص قليلا عما كان عليه فى العهد الأموى ، وحرص العباسيون على نقش أسمائهم على العملة التى بدأوا فى ضربها منذ فجر دولتهم[٤] ، فأبو العباس السفاح أول خلفاء بنى العباس - ضرب درهماً بالأنبار ، ونقص وزنه حبة واحدة ثم حبتين فى خلافه المنصور ، وظل الحال على ذلك حتى سنة ١٧٨ ﻫ حيث نقص ثلاث حبات وذلك فى عهد الخليفة الرشيد . ولم يستمر الحال على ذلك ، بل أخذ الدرهم فى النقصان ، ففى سنة ١٨٤ ﻫ بلغ النقص قيراطاً وحبة ونصف[٥] .

والأمر الجدير بالاعتبار فى هذه العملة هو وزنها لا قيمتها الاسمية ، وكان يشرف على دار ضرب النقود جعفر بن يحيى البرمكى فلما قتل ،

---

(١) الدورى : تاريخ العراق الاقتصادى ص١٢٣ — ١٢٤

(٢) Kremer . Orient under the Califate, p. 415.

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص١٩٦

(٤) المصدر السابق ص٢١٤

(٥) المقريزى : شذور العقود ص٨

فوض الرشيد أمر دار الضرب إلى السندي بن شاهك فضرب الدراهم على العيار الصحيح ، وحرص على نقاوة الذهب والفضة(١) .

ضرب المنصور الدنانير الهاشمية،ويبلغ وزن الواحد منها مثقالا بصريا. وفي سنة ١٩١ هـ نقصت الدنانير الهاشمية نصف حبه ، ولكنها تبودلت على اعتبار أنها مثاقيل كاملة بالرغم من أنها لم تضرب بوزنها الصحيح إلا فترة قصيرة(٢) . ونلاحظ أن استعمال الدراهم في بغداد كان أكثر شيوعا من الدنانير(٣) .

واستعملت في بغداد أجزاء من الدراهم والدنانير مثل الثلث والربع والخمس والسدس ، كذلك ضرب العباسيون مضاعفات للعملة ؛ ففي عهد الخليفة المأمون ضربت دنانير قيمة الواحد منها دينارين ، وعليها الكتابة الآتية : ضرب العصر الحسني لخريطة أمير المؤمنين ويذكر الجهشياري(٤) أن جعفر بن يحي ضرب دنانير وزن كل دينار مائة دينار ودينار ، وعلى كل دينار من أحد جانبيه .

وأصفر من دار الملوك يلوح على وجه جعفر

ومن الجانب الآخر :

يزيد على مائة واحداً إذا ناله معسر يسر

واستعمل الناس في معاملاتهم اليومية البسيطة أجزاءاً من العملة الفضية مثل القيراط والحبة والدانق والطسوج ، كما استعملت الفلوس النحاسية(٥). كذلك شاع نظام المقايضة .

---

(١) الجهشياري : الوزراء والكتاب ص٢٢٨

(٢) المقريزي : شذور العقود ص٨

(٣) الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص٢٢٧

(٤) الوزراء والكتاب ص٢٤١

(٥) الدوري : تاريخ العراق الاقتصادي ص٢٢٩

وكانت النقود تضرب فى دار ضرب النقود ، ولا يجوز أن تضرب فى غيرها خوفا من الغش والتزييف ، ويرى الماوردى[١] وجوب تعامل الناس بالنقد المطبوع بالسكة السلطانية الموثوق بسلامة طبعه ، المأمون من تبديله وتلبيسه . وكان من حق كل فرد أن يضرب ما معه من ذهب وفضة دنانير ودراهم .

ويجدر بنا أن نشير إلى أن المظهر العام للدينار الأموى ظل قائما فى عصر العباسيين بنفس العبارات المسجلة على وجه السكة الأموية ، وكانت دراهم المهدى مستديرة الشكل ، وظهر عليها إسمه وقد نقش العباسيون منذ عهد المهدى اسمه واسمى ولديه موسى وهارون ، كما نقش الهادى اسمه واسم هارون على العملة[٢] وكان الرشيد أول خليفة نقش اسمه على الدنانير ، كما نقش اسم ابنيه الأمين ، والمأمون ، ووهب الحقوق نفسها لوزرائه وولاته وعمال المال[٣] وكان الرشيد لا يباشر بنفسه عيار الدراهم والدنانير ، وكان الخلفاء قبله يتناولون النظر فى العيار . كما نقش الأمين اسمه على العملة مع أخيه المأمون ، ولو أنه أسقطه بعد ذلك ، ونقش اسم ابنه موسى بعد أن بايعه بولاية العهد بدلا من المأمون ، وضربت فى عهد الأمين أنواع مختلفة من الدنانير ، وكتب على بعضها عبارة « ربى الله » وعلى الوجه الآخر « محمد رسول الله »[٤] .

نقش المأمون اسمه ، وأسماء بعض أولاده ، وبعض عماله والمدينة التى ضربت العملة فيها ، وضرب دينارا كتب عليه اسم ولى عهده « على الرضا » وفى سنة ٢٠٧ هـ أضاف المأمون على السكة بعض الآيات القرآنية على وجه

---

(١) الأحكام السلطانية ص ١٥٠

(٢) المقريزى : شذور العقود ص ١٠

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٠٤

(٤) المقريزى : شذور العقود ص ٨٧ — ٨٨ .

الدينار ، وأكملت عبارات أخرى على ظهر الدينار « محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون »[١] .

وقد ضرب المعتصم أول دينار له سنة ٢١٩ هـ نقش عليه اسمه ولقبه ، واسم ولى عهده .

٦ — الدواوين المالية :

كان فى بغداد ديوانان لبيت المال أحدهما ديوان بيت المال العام وهو خزانة الدولة الذى يثبت فى سجلاتها أموال الدولة العامة التى ترد إليها من الولايات . أما بيت المال الخاصة ، فهو خزانة الخليفة ، ويحمل إليه أنواع معينة من الأموال ، ويعتبر ديوان بيت المال العام من أهم الدواوين لأنه كان يضم دفاتر لكافة إيرادات الدولة العباسية ، ولديوان بيت المال المركزى فى بغداد فروع فى مختلف الولايات[٢] وإيراداته تشمل موارد الدولة الرئيسية وهى الخراج والمكوس وأموال المصادرات ، وهذه الموارد تنفق — كما أشرنا — فى أوجه مصارف الدولة ، مثل إعداد الجيوش وتجهيزها للغزو ، ودفع رواتب الموظفين ، وإصلاح شؤون الزراعة والرى .

وكانت لكل ولاية من الولايات العباسية بيت للمال — كما أشرنا — وتتولى الولاية جميع نفقاتها من إيراداتها الخاصة ، وإرسال فائض الأموال إلى بيت المال المركزى فى بغداد ، وكانت هذه الأموال ترسل كما أوضح الجهشيارى[٣] نقداً أو عيناً ، والكتب المتعلقة بالشئون المالية تعرض على صاحب ديوان المال قبل إرسالها إلى الدواوين الأخرى ، واعتبر توقيع

(١) عبد الرحمن فهمى : فجر السكة العربية ص٨٣٤

(٢) الخوارزمى : مفاتيح العلوم ص٦٠

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٠٤

صاحب بيت المال على الصكوك والأوامر المالية من الأمور اللازمة لصحتها[١] .

عنى الخلفاء العباسيون عناية كبيرة بديوان بيت المال، فحرص المنصور على وجود احتياطى فى بيت المال ، يفيد الدولة فيما عسى أن تتعرض له من طوارىء، وخصص مكانا فى بغداد لبيت المال يقع إلى جوار قصر باب الذهب فى وسط بغداد[٢] وعين عليه الفرج بن فضالة التنوخى[٣] .

ظل بيت المال يتضمن فائضا سنوياً حتى ولى الرشيد الخلافة ، فأسند الإشراف على بيت المال إلى جعفر بن يحيي البرمكى ، فازدادت إيراداته بشكل ملحوظ ، فلما استخلف الأمين ونشبت الحرب بينه وبين المأمون استنفد خزانة الدولة فى إرضاء أنصاره ، وفى الدفاع عن بغداد ، وظل بيت المال يعانى عجزا فى إيراداته حتى استقرت خلافة المأمون ،ولما اختط المعتصم سامرا نقل إليها بيت المال .

ديوان النفقات :

اختص ديوان النفقات بالإشراف على نفقات الخلافة واحتياجاتها ، ويشترط على رئيسها أن يكون على دراية تامة بالحساب والمكاييل والموازين والأسعار ، وقد أشرف هذا الديوان على صرف استحقاقات رجال البلاط ، ومحاسبة التجار الذين يتعاملون مع قصور الخلافة مثل توريد احتياجات قصور الخلافة ، وكان من اختصاصه الإشراف على أعمال التشييد والتعمير التى يأمر بها الخليفة ومهمة صاحب هذا الديوان مرتبطة ببيت المال العام والخاص ارتباطاً وثيقاً لأنه يتولى بنفسه الحصول على استحقاقات الخليفة

(١) متز : الحضارة الإسلامية جـ١ ص ٢٠٠
(٢) اليعقوبى : البلدان ص ٢٤٠
(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١١٢ .

من بيت المال[١] ، والإشراف على نفقاته ،كان لهذا الديوان مبنى خاصا في بغداد بالقرب من قصر الخليفة ، وتولى الإشراف عليه في عهد المهدي يحيى بن خالد البرمكي ، وفي عهد الرشيد الفضل بن الربيع[٢] .

ديوان الخراج :

يحتفظ ديوان الخراج بسجلات يدون فيها تقديرات الخراج على مناطق الدولة المختلفة ، والتعديلات التي قد تطرأ عليها ، وتحديد أنواع الأراضي في كل منطقة من حيث أرض خراج وأرض عشر وأرض صوافي . . الخ ويرجع إليها صاحب هذا الديوان عند جباية الخراج ، وكان لديوان الخراج المركزي في بغداد فروع في سائر الولايات ، ويشرف صاحبه على مبالغ الخراج الواردة من الولايات إلى ديوان الخراج المركزي في بغداد .

كان يعمل في ديوان الخراج عدد من الكتاب الذين يباشرون أمور السجلات ، وموظفون يقومون بجباية الخراج من نواحي الأقاليم وكان المساحون يقومون بمسح الأرض وتحديد الجزء المزروع منها ، ويقدرون كمية المحصول الناتج منها . وكان عامل الخراج يتبع الخليفة مباشرة وسجلاته التي يدون فيها الخراج وتقديراته ، والجبايات التي ترد إلى ديوانه تسمى قانون الخراج[٣] .

وكان على عامل الخراج أن يراعي الرفق في الاستيفاء ، والصبر على الزراع حتى يتيسر لهم أداء ما عليهم وأعفاء من يستحق الاعفاء ، ويجب على عامل الخراج الدراية التامة بالحساب والمساحة ، وأن يكون معروفا بالعدالة والأمانة ، ولا يخاف من جور في حكم إذا حكم[٤] .

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق ص ١٠٠

(٢) اليعقوبي : البلدان ص ٢٤٠

(٣) الخوارزمي : مفاتيح العلوم ص ٥٤

(٤) أبو يوسف : الخراج ص ٧٠

أسندت إدارة ديوان الخراج إلى خالد بن برمك ، فنظم شؤونه بحنكة ودراية ، وعامل الناس برفق ، وأجرى المهدى - كما أشرنا - تعديلا فى الخراج ، فأحل نظام المقاسمة محل المساحة ، وتطلب ذلك زيادة العمل فى ديوان الخراج ، حيث أصبح على عامل الخراج أن يقدر قيمة المحاصيل ويحدد أماكن خزنها ، ويقدر قيمة المقاسمة على أساس ذلك ، ويحصل منها حصة الحكومة . وقد أنشأ المهدى ديوان زمام الخراج لضبط حسابات الجبايات والإيرادات(١) .

وقد أشرف على ديوان الخراج فى عهد الرشيد يحيى بن خالد البرمكى ، وأجاز الخليفة له أن يكتب إلى عمال الخراج فى الولايات دون الرجوع له ، وحرص الخلفاء العباسيون على إتباع منهج السلف فى تقدير الخراج والجزية وسائر أمور الدولة المالية ، لذلك طلب الرشيد من الفقيه أبى يوسف تصنيف كتاب فى الخراج يحدد فيه ما يجب اتباعه فى الأمور المالية ، فصنف أبو يوسف كتاب الخراج .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٢٢٢

الباب الثانى

الحياة الاجتماعية فى بغداد

فى العصر العباسى الأول

١ — عناصر السكان وأثرها فى الحياة الاجتماعية .

(أ) العرب والفرس والترك .

(ب) أهـــل الذمة .

(جـ) الرقيـــق .

٢ — الحياة العامة فى بغداد .

(أ) القصور والدور فى بغداد فى العصر العباسى الأول .

(ب) المواكب والأعياد والمواسم .

(جـ) الموسيق والغناء وأنواع التسلية .

(د) المرأة فى بغداد وأثرها فى المجتمع .

(هـ) الأخلاق والعادات .

الباب الثانى

الحياة الاجتماعية فى بغداد فى العصر العباسى الأول

١ — عناصر السكان وأثرها فى الحياة الاجتماعية :

(١) العرب والفرس والترك .

العرب :

انقسم شعب بغداد إلى عناصر رئيسية هى العرب والفرس والترك وينقسم العرب إلى قيسيه ويمنية ، وانقسم السكان عموما إلى مسلمين واهل ذمة ، والمسلمون انقسموا إلى سنه وشيعة .

قامت الدولة العباسية على أكتاف الفرس ، وكان من الطبيعى أن ينالوا حظوة فى دولة بنى العباس ، وفعلا اعتمد عليهم العباسيون فى تدبير كثير من أمور دولتهم . ولم يكن الحال كذلك فى العهد الأموى ، إذ اعتمد الأمويون على العرب اعتمادا كاملا فى تدبير ملكهم .

على كل حال ازداد نفوذ الفرس فى بغداد على نفوذ العرب فى بضع سنين من الحكم العباسى فى العصر الأول ، وليس فى كل سنى هذا الحكم ، ذلك أن الخلفاء العباسيين لا يمكنهم بحال من الأحوال أن يتجاهلوا أصلهم العربى ، فهم عرب هاشميون يعتزون بعروبتهم ويفخرون بها ، وحتى الفترات التى طغى فيها نفوذ الفرس على نفوذ العرب فلاحظ أن الخلفاء الذين مكنوهم الفرس من السلطة والسلطان هم أنفسهم الذين يقلبون عليهم ظهر المجن ، ويتخلصون منهم ، كما تخلص المنصور من أبى سلمة الخلال وأبى مسلم الخراسانى ، والمهدى من وزيره يعقوب بن داود ، والرشيد من البرامكة ، والمأمون من الفضل بن سهل .

ويذكر الجاحظ أن دولة بنى العباس أعجمية خراسانية ، ويردد بعض المؤرخين أن العرب ذلوا وضعف شأنهم في العصر العباسي الأول فالمسعودى[١] والسيوطى[٢] يرويان أن المنصور أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه ، وصرفهم فى مهماته وقدمهم على العرب ، فاتخذت ذلك الخلفاء من بعده من ولده سنه ، فسقطت وبادت العرب ، وزال بأسها ، وذهبت مراتبها . ولا يمكن قبول هذه الرواية لأن العباسيين اعتمدوا على بعض رجال من العرب فى إدارة أمور دولتهم ، ووقف بنو جلدتهم من العرب إلى جانبهم فى الشدائد ، فحينما ثار الراوندية الفرس على المنصور ، وكادوا أن يفتكوا به لم ينقذه إلا رجل من سادات العرب هو معن بن زائدة الشيبانى ، لذلك كافأه المنصور وأسند إليه ولاية اليمن[٣] ، وأسند العباسيون بعض مناصب الدولة الكبيرة لرجال من العرب حتى لم يخل عصر خليفة من خلفاء العصر العباسى الأول من عرب يتقلدون فى بغداد مناصب الوزارة والحجابة والكتابة والقضاء ، وفى أشد فترات ازدياد النفوذ الفارسى .

فحينما سيطر البرامكة على أمور الدولة فى عهد الرشيد كان الفضل بن الربيع - وهو عربى - يتقلد منصباً كبيرا ، ويستشيره الرشيد ، ويأنس به ، وولى الرشيد أبا يوسف منصب قاضى القضاة فى مملكته كلها ، وهو أول من شغل هذا المنصب فى الإسلام ، وكان له ابن يسمى يوسف ولى القضاء فى حياة أبيه[٤] وظل يشغله حتى سنة ١٩٢هـ . ومن أشهر رجالات الدولة العباسية المسيب بن زهير بن عمر أبو مسلم الضبى ، ولى شرطة بغداد أيام المنصور حتى عهد الرشيد فى سنة ١٧٥هـ.

(١) مروج الذهب جـ٢ ص٢٢٣

(٢) تاريخ الخلفاء ص١٠٥

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٤٢

(٤) ابن النديم : الفهرست ص٢٨٦

(٥) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢٣٤

لذلك نرى أنه لاصحة لما ذهب إليه بعض المؤرخين من أن الخلفاء تجاهلوا العرب ، واعتمدوا على الفرس اعتمادا كاملا ، بل كان الخلفاء العباسيون يحرصون على رفع منزلة العرب ، ويأنفون من إذلالهم ، فيروى الطبرى[١] أن المنصور رأى خادما له من أصل عربى سبى من اليمن ، وبيع إلى بعض بنى أمية ثم إلى المنصور فاعتقه المنصور وقال : لايدخل قصرى عربى يخدم حرمى ، وأقدم على الهادى شهود على رجل أنه شتم قريشا، فجلس الهادى مجلساً فيه فقهاء أهل زمانه ، ومن كان بالحضرة على بابه وأحضر الرجل ، وأحضر الشهود ، وأقروا بما سمعوا عن الرجل فقال الهادى : إنى سمعت أبى المهدى يحدث عن أبيه المنصور عن أبيه على بن عبد الله بن عباس قال : من أهان قريشاً أهانه الله . وعاقبه الهادى أشد عقاب[٢] . وحتى الخليفة المأمون الذى تأثر كثيراً بالفرس لما اعترضه رجل من العرب وقال له: يا أمير المؤمنين أنظر العرب كما نظرت لأهل خراسان قال المأمون : والله ما أنزلت قيساً عن ظهور الخيل إلا وأنا أرى أنه لم يبق فى بيت مالى درهم واحد[٣] . وحتى الفرس على الرغم مما بلغوه من حظوة فى بعض فترات الحكم العباسى ظلوا يعتقدون أن العنصر العربى أفضل منهم . بدليل أنهم احتاجوا فى كثير من الأحيان إلى الانتماء إلى العرب بالولاء حتى أصحاب المكانة الكبيرة منهم ، فأبو مسلم الخراسانى يزعم أنه من أصل عربى حتى يحظى بتقدير الناس وتأييدهم ، فادعى أنه من ولد سليط بن عبد الله بن عباس[٤] وحمزة بن ميمون ـ أحد المقربين إلى المهدى ـ يغضب ويعاتب الخليفة حينما قدمه إلى أحد جلسائه القرشيين على أنه مولى[٥] . وإسحاق

---

(١) تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥٨ هـ

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية جـ١٠ ص١٦٩

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢١٨ هـ .

(٤) المصدر السابق حوادث سنة ١٣٢ هـ

(٥) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص١٤٧

الموصلي ذهب إلى خازم بن خزيمة - وهو عربي - وطلب منه أن يكون مولى له ، فيقبل ذلك منه[١] .

ومهما يكن من أمر فقد ظهر فى بغداد منذ نشأتها عنصران رئيسيان من سكانها يتنافسان حول الاستئثار بالسلطة والنفوذ فى حاضرة الخلافة ، وكان لا بد للخلفاء من حفظ التوازن بين الفريقين حتى لا يطغى فريق على فريق . ونلاحظ فى دراستنا لهذا الموضوع أن الخلفاء استعانوا بالفرس كما استعانوا بالعرب ، وحينما طغى نفوذ الفرس ، نكلوا بهم وأبعدوهم ، واستعانوا بالعرب ، ومكنوا لهم ، وأدى ذلك إلى صراع مرير بين العنصرين استمر حتى خلافة المعتصم .

حرص الخليفة المنصور على عدم التمكين لأحد العنصرين - العرب والفرس - من ازدياد نفوذه على حساب العنصر الآخر ، فكان للخليفة قواد وولاة من العرب ، وقواد وولاة من الفرس ، وكون جيشه من مضر واليمن وربيعة والخراسانية[٢] ، وكما استوزر المنصور أبا يعقوب الموريانى - وهو فارسى - فقد استوزر الربيع بن يونس - العربى الأصل - وكان جليلا منفذا للأمور فصيحاً حازما ، اصطحب المنصور فى رحلته الأخيرة إلى مكة المكرمة وأوصاه المنصور قبل موته ، وأخذ البيعة لخليفته المهدى ، ولعيسى بن موسى من بعده ، ولما فرغ من بيعة بنى هاشم ، دعا بالقواد فبايعوا ، وبلغ من حرص المنصور على حفظ التوازن بين عنصرى السكان فى بغداد أنه لما شرع فى تأسيس بغداد قسمها - كما قلنا - أربعة أرباض وعهد إلى أربع من كبار رجال دولته بالإشراف على عمارة هذه الأرباض فكما جعل ربضا يشرف على تأسيسه الربيع بن يونس ، عهد إلى أبى يعقوب الموريانى - وزيره الفارسى - بالإشراف على أحد الأرباض[٣] .

---

(١) الاصفهانى : الأغانى ج ٥ ص ٢٦٩ — ٢٧٠

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥١ هـ .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٦٠

سار المهدى على سياسة أبيه فى حفظ التوازن بين عنصرى السكان فى بغداد ، فأسند حجابته إلى الربيع بن يونس ، واختص به كما كان مع أبيه(١) ، واستوزر أبا عبيد الله بن معاوية بن يسار - مولى الأشعريين - وفوض إليه تدبير مملكته ، وعهد إليه بالإشراف على الدواوين ، وتنظيم أمر الخراج ، وصنف فى الخراج كتابا ذكر فيه أحكامه الشرعية ، ودقائقه وقواعده ، وحرص هذا الوزير العربى على إبعاد الفرس عن المهدى ، حتى يصفو الأمر للعرب دون سواهم ، فلما رأى تقرب الفرس إلى الخليفة ، جمع أربعة رجال من قبائل عربية شتى من أهل العلم والأدب فضمهم إلى المهدى ، وصاروا من أصحابه المقربين ، وحالوا بينه وبين الجلوس إلى الفرس(٢) .

وكان المهدى يطمئن إلى العرب ويأنس بهم ، فحينما ذهب إلى الحج سنة ١٦٠ ﻫ أمر باختيار خمسمائة من الأنصار ، ونقلهم إلى بغداد ، ليكونوا حرسا له وأعوانا ، وأجرى عليهم أرزاقا سوى أعطياتهم وأقطعهم عند .. قدومهم معه إلى بغداد قطيعه عرفت بهم(٣) . وكان الخليفة المهدى يجتمع بانتظام فى بغداد مع القرشيين للنظر فى حوائجهم(٤) وكان فى ذلك يسير على سياسة أبيه المنصور(٥) . لكن المهدى عاد فأسند بعض المناصب الهامة إلى الفرس ، فعزل أبا عبيدالله بن معاوية عن الوزارة ، وأسندها إلى يعقوب ابن داود - الفارسى الأصل - ثم الفيض بن صالح(٦) .

إزداد نفوذ الفرس فى عهد الخليفه الرشيد الذى أسند أمور دولته إلى

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٠٠

(٢) الطبرى : حوادث سنة ١٦١ ﻫ .

(٣) المصدر السابق حوادث ١٦٠ ﻫ .

(٤) الدورى : حضارة الإسلام فى دار السلام ص ٤٥

(٥) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥٨ ﻫ

(٦) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٥٦ ، ١٦٤

البرامكة الفرس ، واستبدوا بأمور الدولة دونه ، فالخلافة على الحقيقة كانت لهم ، وليس للرشيد منها شيء إلا أسمها وقد استاء العرب فى بغداد من ذلك وسعوا بهم إلى الرشيد . ومن أبرز من تصدى للبرامكة من العرب الفضل ابن الربيع الذى مازال يحرض الرشيد على التخلص منهم ، ويذكره باستبدادهم بالملك حتى أوغر صدره عليهم ، فأوقع بهم ، وكان لتأثير السيدة زبيدة ـ زوجة الرشيد ـ العربية الهاشمية ـ أثر واضح فيما حل بالبرامكة ، وفى تولية ابنها محمد العهد قبل المأمون ، كذلك حرض بنو هاشم فى بغداد الرشيد على أخذ البيعة لمحمد الأمين قبل أخيه المأمون ، وفيه مافيه من الانقياد لهواه والتصرف مع طويته ، والتبذير لما حوته يده ، ومشاركة النساء والاماء لرأية ، وقالوا : إن ملت إلى عبدالله المأمون ـ وأمه فارسية ـ اسخطت بنو هاشم(١) . وكان الأمين أصغر سناً من المأمون ، وأمه ـ كما قلنا ـ عربية . أما المأمون فأمه فارسية .

وجاءت نكبة البرامكة انتصاراً للعرب على الفرس ، وازداد نفوذ العرب نتيجة لها ، فاسندت الوزارة إلى الفضل بن الربيع بعد البرامكة ـ وكان حاجبا للمنصور والمهدى والهادى ـ ومازال الفضل وزيراً للرشيد حتى توفى(٢) ـ أى الرشيد ـ كذلك أسند الرشيد قيادة الجيش وديوان الجند إلى الشحر الهذلى وعبدالله بن عبده الطائى(٣) .

لما ولى الأمين الخلافة انتعش العرب فى بغداد ، وازداد نفوذهم بينما ضعف شأن الفرس ، وأسندت المناصب الكبيرة إلى العرب فقلد الأمين ، العباس بن الفضل بن الربيع حجابته ، والفضل بن الربيع الوزاره ، وبكر

---

(١) المصدر السابق ص٢٧٨

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٩

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٩٣

ابن المعتمر ديوان الخاتم(١) .

رأى العرب فى بغداد ضرورة تأمين ماحصلوا عليه فى عهد الأمين من مكاسب وامتيازات. فسعوا إلى تحريض الأمين على نقض بيعة أخيه المأمون بولاية العهد ، لأن المأمون تربى منذ نعومة أظفاره فى أحضان الفرس ، لذلك سعى العنصر العربى فى بغداد - وعلى رأسه الفضل بن الربيع - بالأمين لخلع المأمون ، ونقل ولاية العهد من بعده إلى ابنه موسى . والحقيقة أن ذلك لم يكن من رأى الأمين ولا من عزمه ، بل كان عزمه الوفاء لأخويه عبدالله والقاسم بما كان أخذ عليه لهما والده من العهود والشروط ، فلم يزل الفضل بالخليفة يصغر فى عينيه شأن المأمون ، ويزين له خلعه حتى قال له : ماتنتظر يا أمير المؤمنين بعبدالله والقاسم أخويك ، فإن البيعة كانت لك متقدمة قبلهما ، وإنما أدخلا فيها بعدك واحداً بعد واحد(٢) .

على كل حال أفلح العنصر العربى فى إقناع الأمين بخلع أخيه المأمون من ولاية العهد . ومبايعة ابنه موسى ، وسماه الناطق بالحق ، وتسبب ذلك فى حدوث صراع بين الأخوين الأمين والمأمون انتهى بمقتل الأمين . وجاء انتصار المأمون على الأمين انتصاراً للفرس على العرب ، فاستعاد الفرس نفوذهم ، بينما ضعف أمر العرب .

على أن العرب فى بغداد لم يستسلموا لما حل بهم من هزيمة على أيدى المأمون ورفاقه الفرس ، فقد ساءهم وعلى رأسهم أمراء البيت العباسى ازدياد نفوذ الفرس . ووقوع المأمون تحت تأثيرهم . فلما سمع العباسيون فى بغداد مافعل المأمون من نقل الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوى وتغيير لباس آبائه وأجداده من السواد إلى الخضرة . وأنكروا ذلك

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢٨٩

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٤ هـ

وخلعوا المأمون من الخلافة غضباً من فعله ، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى وكان فاضلا شاعراً فصيحاً أديباً حاذقا وقد عبر أحد وجوه العرب عن موقف المأمون المناهض للعرب - ويدعى نعيم بن خازم - بقوله للفضل بن سهل - وزير المأمون الفارسى - إنك إنما تريد أن تزيل الملك من بنى العباس إلى ولد على ، ثم تحتال عليهم ، فتصير الملك كسرويا . ثم أقبل هذا الرجل على المأمون وحذره من عاقبة فعله بأن قال له : لايخدعنك عن دينك وملكك فإن أهل خراسان لايجيبون إلى بيعة رجل تقطر سيوفهم من دمه (١) .

ومهما يكن من أمر فقد خشى المأمون من ثورة أهل بغداد ، فتخلص من وزيره الفضل بن سهل ، وقصد بغداد سنة ٢٠٠ هـ وكان العرب قد سيطروا عليها سيطرة كاملة ، فهرب منها إبراهيم بن المهدى ، والفضل بن الربيع ، ودخل المأمون بغداد ، واسترد نفوذه عليها (٢) . على أن الفرس ظلوا فى عهده يشغلون المناصب الكبيرة فى بغداد إلا أننا نلاحظ أن المأمون لم يغفل العرب نهائياً بل قرب إليه أحمد بن أبى دؤاد ، وكان ضليعا فى الفقه وعلم الكلام والمنطق ومن أبرز العلماء الذين ينعقد بهم مجالس المأمون العلمية ، وبتأثيره أمر المأمون بامتحان الناس فى خلق القرآن ، وبلغ من تقدير المأمون له أن أوصى المعتصم به بقوله : لايفارقك الشركة فى المشورة فى كل أمرك فإنه موضع ذلك (٣) .

عول العرب على استرداد نفوذهم فى بغداد بعد وفاة المأمون وتولية المعتصم ، فالتفوا حول العباس بن المأمون معتزمين توليته الخلافة بدلا من المعتصم الذى يميل إلى الترك ، ولكن هذه المحاولة باءت بالفشل ، وتولى المعتصم الخلافة (٤) ، وجرت على العرب نقمة المعتصم فى كراهيته ، وأهمل

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٨٢

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢٠٠ هـ

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ٤ ص ١٤٢

(٤) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٢١٨

أمرهم ، واستعان بالترك فى أمور دولته ، ورفع شأنهم ، لكن العرب لم يرضخوا لما حل بهم من ضعف ووهن ، بل تآمروا على المعتصم ، وتزعم هذه الحركة العباس بن المأمون ، وحاول العرب تنفيذ هذه المؤامرة أثناء غزو الخليفة لعمورية ، وكان المعتصم قد أظهر انحيازاً واضحاً ضد العرب فحين وجه عجيف بن عنبسه إلى بلاد الروم، لم يطلق يده هذا العربى فى النفقات كما أطلق يد الأفشين ، بل استصغر المعتصم من شأن عجيف ، واستبان ذلك لعجيف ، فحرض العباس بن المأمون على التآمر ضد المعتصم ، والسعى بمساعدة العرب على التخلص من الخليفة وتولية العباس ، وبينما المعتصم يتجه بجيشه إلى عموريه ، حاول العرب التنكيل بقادة الترك ، ولكن المؤامرة باءت بالفشل ، ونكل الخليفة بالمتآمرين ، ويقول المؤرخون إن ذلك أدى إلى إمعان المعتصم فى الاعتماد على الترك ، وأبعاد العرب ، وحذفهم من الديوان(١) ، فضعفت فيهم الروح العسكرية .

إلا أننا نلاحظ أن هذا القول فيه بعض المبالغة ، إذ ظهرت شخصيات كبيرة فى عهده لعبت دوراً كبيراً فى سياسة الدولة فأحمد بن أبى دؤاد ، ولاه المعتصم منصب قاضى القضاة فى الدولة ، وبلغ من تقدير المعتصم له أن قال : هذا والله الذى يتزين بمثله ، ويبتهج بقربه ، ويعتز به ألوف من جنسه . ولما مرض نذر المعتصم إن شافاه الله من مرضه بأن يتصدق بعشرة آلاف دينار(٢) . ولقد استغل هذا الرجل نفوذه فى الرفع من شأن العرب وإبعاد الضر والأذى عنهم ، فالافشين ـ قائد جيش المعتصم ـ كان يكره العرب ويقول : إذا ظفرت بالعرب شدقت رءوس عظمائهم بالدبوس ، وظهرت نواياه الانتقامية ضد أبى دلف ـ أحد القواد العرب سيد قومه

---

(١) Muir : The caliphate. p. 54.

(٢) ابن خلكان . وفيات الأعيان جـ١ ص٣١

كريمـــا شجاعا شاعرا (١) وهم الأفشين بقتله ، فأسرع ابن أبى دؤاد إلى الأفشين ، وأنقذ الزعيم العربى(٢) وشجع هذا الرجل أهل العلم والأدب فالتفوا حوله وأغدق عليهم ، ووقف ببابه الشعراء مثل أبى تمام ، وقرب إليه الجاحظ .

ولم يستسلم العرب لميل المعتصم إلى الترك فنسمع عن كثير من البارزين منهم يطلبون من المعتصم رعاية أصحاب الحاجات من العرب الهاشميين والأنصار (٣) .

ومهما يكن من أمر فقد كانت الحياة الاجتماعية فى بغداد عربية فى روحها وساهم العرب بدور رئيسى فى توجيهها ، فسادت تقاليد العرب وعاداتهم وأساليب حياتهم على نمط المعيشة فى بغداد ، فالدين الإسلامى الذى حمل لواءه العرب ، وبشروا به فى العراق ، كما بشروا به فى غير العراق ، كان من الطبيعى أن يحدد الأسس الاجتماعية لحياة الناس ، كما هو الحال فى المعاملات الشخصية والقضاء واتخاذ الجوارى والغلمان وبناء المساجد ، وغير ذلك من الحدود التى رسمها الشرع ، وظهر أثر الدين فى تعدد المذاهب الفقهية ، فقد شهدت بغداد أئمة المذاهب الرئيسية ، كما أن اللغة العربية — لغة القرآن — واللغة الرسمية للدولة — لها أثرها فى تأكيد مركز العرب ، ونبغ من العرب فى بغداد فى العصر العباسى الأول كثيرون فى علوم الدين واللغة . على كل حال ظل مركز العرب مرموقا فى بغداد بصفة عامة فى العصر العباسى الأول ، فمنهم الخليفة وأمراء البيت الحاكم وسائر بنى هاشم ، والعرب لهم مركزهم أمام

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص ٣٧٢

(٢) التنوخى : الفرج بعد الشدة ج٢ ص٦٨

(٣) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص٣٧٠

العناصر الأخرى فهم الذين مصروا الأمصار ، وبذلوا أموالهم ودماءهم في سبيل رفع راية الإسلام .

الفرس :

قلنا إن الفرس ازداد نفوذهم في بغـــداد في بضع سنى العصر العباسى الأول واستعان بهم العباسيون في بداية حكمهم ، لأنهم أقاموا ملكهم على أكتافهم ، ويتضح لنا ذلك من قول المنصور لأهل خراسان : أنتم شيعتنا وأنصارنا وأهل دعوتنا . كما أوصى ولى عهده بهم بقوله : وأوصيك بأهل خراسان خيراً فإنهم أنصارك وشيعتك ، بذلوا أموالهم في دولتك ودماءهم دونك ، ومن لا تخرج محبتـــك من قلوبهم أن تحسن إليهم ، وتتجاوز عن مسيئهم ، وتكافئهم على ما كان منهم (١) . ولما أسس المنصور مدينة بغداد سمى باب خراسان ، باب الدولة لإقبال الدولة العباسية منه (٢).

على أن الإعتماد على الفرس والرفع من شأنهم في العصر العباسى الأول أثار مشاكل عدة في بغداد ، ذلك أن الفرس طموحون يعملون على إحياء مجدهم القديم ، ويميلون إلى إبراز نحلهم القديمة ، ويناصرون الشيعة . لذلك تصدى لهم الخلفاء وسخطوا عليهم . ولحق بهم من العباسيين الكثير من النكبات ، لأن اتجاهاتهم تهدد أمن الدولة وسلامتها واستقرارها .

أسند العباسيون إلى الفرس في بغداد مناصب كبيرة مثل الوزارة وقيادة الجيش ، لكن كثيراً منهم لم ينج من بطش العباسيين للأسباب التى ذكرناها فالخليفة المنصور قتل وزيره أبا أيوب المورياني ، وقتل أقاربه ، واستصفى أموالهم ، لأنه أساء استغلال نفوذه وثقة الخليفة فيه (٣).

---

(١) عصام الدين عبد الرءوف : تاريخ الإسلام في العصر التركى ص١٣

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص٢٢٢

(٣) ابن طباطبا : الفخرى في الآداب السلطانية ص١٥٦

واستوزر المهدى يعقوب بن داود ، وفوض إليه أمور دولته وسلم إليه الدواوين ، وقدمه على جميع الناس ، حتى قيل إن المشرق والمغرب بيد يعقوب . ولما اتضح للمهدى أن هذا الوزير يتعصب للعلويين ،وأسند إليهم بعض المناصب الهامه ، وأطلق سراح أحد العلويين دون إذن الخليفة ، عزله وزجه فى السجن ، ولم يزل فى سجنه حتى أخرجه الرشيد فاقد البصر(١) .

ازداد نفوذ الفرس فى عهد الخليفة الرشيد ، فقد استوزر كاتبه يحيى بن خالد بن برمك ،وكان البرامكة قديماً على دين المجوس ،ثم دخلوا فى الإسلام وحسن إسلامهم .وقد كان خالد بن برمك من الشخصيات البارزة فى بغداد فى عهد الخليفة المنصور ، ومن أهل الرأى فيها ، وكان سخيا جليلا ، حتى قيل لم يكن يرجلبس خالد دار إلا وخالد بناها له ولا ضيعة إلا وخالد ابتاعها له ،ولا دابة إلا وخالد حمله عليها ويرجع الفضل إلى يحيى بن خالد فى تولية الرشيد الخلافة(٢)ذلك أن الهادى اعتزم خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد وتولية ابنه موسى بدلا منه فتصدى له يحيى بن خالد ، وحذره بقوله : حملت الناس على نكث الإيمان ، ونقض العهود ، وتجرأ الناس على مثل ذلك ، ولو تركت أخاك هارون على ولاية العهد ،ثم بايعت لجعفر بعده كان ذلك أوكد فى بيعته . وحذره من اعتراض بنى هاشم . ولما ولى الرشيد قدر ليحيى بن خالد موقفه ، وعد هذا فضلا كبيراً من يحيى عليه(٣) .

واستوزره الرشيد ، وكان يخاطبه بالابوه ، وبلغ من ثقته به أن قال له : يا أبة أنت أجلستنى هذا المجلس ببركة رأيك وحسن تدبيرك ، وقد قلدتك أمر الرعيه ، وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم بما ترى واستعمل

---

(١) المصدر السابق ص١٦٦ — ١٦٧ — ١٩٩

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٥٠

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٧٩ — ١٨٠

من شئت ، وأسقط من رأيت ، فإنى غير ناظر معك فى شىء(١) .

نهض يحي بن خالد بأعباء الدولة أتم نهوض ، وسد الثغور ، وتدارك الخلل ، وجبى الأموال ، وعمر الأطراف ، وأظهر رونق الخلافة وتصدى لمهمات المملكة ، وكان صائب الرأى حسن التدبير .

على أن نفوذ البرامكة ازداد فى بغداد وطغى على نفوذ الخليفة ، وقد أستاء الرشيد من ذلك وقال : استبد يحي بالأمور دونى ، فالخلافة على الحقيقة له وليس لى منها إلا أسمها (٢) .

كذلك وقف الرشيد على ميل البرامكة إلى التشيع ، وسعى أعداء البرامكة عند الرشيد ، وأوضحوا له استبدادهم بالملك وبأموال الدولة حتى أوغروا صدر الرشيد على البرامكة ، فنكل بهم ، وقد كانت نكبة البرامكة هزيمة للفرس ، وأدت إلى ضعفهم .

ظل الفرس بعيدين عن السلطة والنفوذ فى بغداد بقية عهد الرشيد وطوال عهد الأمين ، ودارت رحى الحرب بين الأخوين الأمين والمأمون انتهت بقتل الأمين وانتصار المأمون وتوليته الخلافة فعاد النفوذ الفارسى إلى قوته ، فقد قرب المأمون الفرس إليه ، وأسند إليهم المناصب الهامة فى الدولة . وجدير بالذكر أن المأمون نشأ وترعرع فى أحضان الفرس ، فأمه فارسية ، وأشرف البرامكة وبنو سهل الفرس على تربيته(٣) .

استوزر المأمون الفضل بن سهل الذى سمى ذو الرئاستين لجمعه بين السيف والقلم ، والفضل بن سهل من أولاد ملوك الفرس المجوس ، وكان

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص١٦٧

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٩٠

Hitti : Hist. of the Arabs. p. 280.

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٧٩

قهرمانا ليحي بن خالد بن برمك ، ولما رأى الفضل نجابة المأمون في صباه لزم ناحيته ، ودبر أموره ، وتنبأ بوصوله إلى الخلافة ، وكان سخياً كريماً يجارى البرامكة فى جوده جليلا عالما بآداب الملوك(١) .

وقع المأمون تحت تأثير وزيره الفارسى ، لذلك أحدث تغييراً جذرياً فى نظام الخلافة ، فعهد إلى على بن موسى ، وكتب بذلك كتاباً بخطه ، وأمر المأمون الناس بخلع لباس السواد ، ولبس الخضرة ، وكان هذا بخراسان فلما سمع العباسيون فى بغداد ذلك آثارهم نقل الخلافة من البيت العباسى إلى البيت العلوى ، وخلعوا المأمون ، وبايعوا عمه إبراهيم بن المهدى ، ولما بلغ المأمون ذلك تخلص من وزيره الفضل بن سهل ، وكان يحجبه فى مرو عن سائر الناس ، ويمنع الأخبار عنه ، وسار إلى بغداد ، وأعاد لباس السواد وأرضى بنى هاشم ، على أنه استمر فى اسناد الوزاره إلى الفرس ، فقلد الحسن بن سهل وزارته ، وتزوج ابنته ، وكان أعظم الناس منزلة عند المأمون(٢) على أن نفوذ الفرس لم يستمر طويلا ، فلما توفى المأمون ، وولى المعتصم الخلافة ، أبعد الفرس كما أبعد العرب ، واستعان بالترك .

وصفوة القول أن الفرس اشتركوا فى الحياة السياسية فى بغداد وكان لهم أثر أوضح فى إدارة أمور الدولة ، واشتركوا فى الجيش ، الذى كان يضم فرقة منهم ، وساهموا بنصيب كبير فى الحياة الفكرية لكن بعضهم لم يصح إسلامه فأظهروا نحلهم القديمة كالزندقة ، وبذل الخلفاء قصارى جهدهم فى تعقبهم واستئصال شأفتهم وكان هؤلاء الفرس قد دخلوا فى الاسلام ظاهراً ليستفيدوا من حقوق المواطن المسلم لكنهم ظلوا يخلصون لعقيدتهم القديمة ، ويعملون على بثها فى العلوم والآداب .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص٣٢٩

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢٠٧

الأتراك :

أستاء المعتصم من الفرس والعرب ، ورأى ضرورة استبدالهم بعنصر آخر ، ليس له مطامع الفرس القومية ، ولا الأهواء السياسية التى للعرب يضاف إلى ذلك أن المعتصم أمه تركيه ،وكان به صفات الأتراك من حيث الشجاعة وقوة البأس ، فضلا عن أن الأتراك يتميزون بالروح العسكرية .

جلب الأتراك إلى بغداد من بلاد ماوراء النهر ، وكانوا رجالا أشداء يعيشون رعاة وصيادين فى هضابهم وجبالهم العالية ، لذلك عرف عنهم خشونة الطبع وقوة الشكيمة ، وأثرت هذه الحياة فى أخلاقهم لذا برعوا فى أساليب الحرب والقتال ، وساعدهم على الاندماج فى مجتمع بغداد ، اعتناقهم الإسلام وتعلمهم اللغة العربية .

توافد الأتراك على بغداد بطرق شتى ، إما عن طريق وقوعهم فى أسر العرب الفاتحين ، وبيعوا فى أسواق الرقيق ، وإما عن طريق إرسال ولاة الأقاليم التركية تركا ضمن الجبايات التى كانت ترسل إلى بغداد(١) . وإما عن طريق هجرة كثير من الأتراك إلى بغداد بعد فتح بلادهم لتحسين أحوالهم المعيشية . وكانت بلاد ماوراء النهر خصوصاً سمرقند أكبر أسواق تجارة الرقيق الأبيض ، وكانوا مدربين تدريباً خاصاً(٢) .

توافد الأتراك بكثرة على مدينة بغداد منذ تأسيسها ، وازداد طلب الخلفاء لهم لأن مميزاتهم العسكرية تؤهلهم - كما قلنا - للعمل فى حراسة الخلفاء ، وكان المنصور أول من استخدم الأتراك كحرس بل واعتمد عليهم كذلك فى الأعمال المدنية ، فالجهشيارى(٣) يذكر أن المنصور أمر

---

(١) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص٢٨٥ — ٢٨٦ .
(٢) ابن حوقل : المسالك والممالك ص٢٦٨
(٣) الوزراء والكتاب ص١٣٤

حماد التركى ـ أحد كبار موظفيه ـ بتعديل نظام الضرائب فى السواد . وكان قصر الرشيد يضم بضعة مئات من الغلمان الترك(١) .

استكثر المعتصم من الترك حتى بلغ عددهم ثمانية آلاف رجل ، وتكون منهم فرق من الجيش يقودها قواد من الترك ، وكانت هذه الفرق فى عزلة تامة عن بقية الجيش . وازداد نفوذ الترك فى بغداد ، وأصبح لهم السلطة والنفوذ فيها ، بينما ضعف أمر العرب والفرس .

وبذلك دخل فى نزاع العصبية عنصر قوى جديد ، فقد كان النزاع من قبل محصوراً بين الفرس والعرب ، فأصبح بين العرب والفرس من ناحية والترك من ناحية أخرى ، ووجه الترك كل جهودهم للنيل من الفرس المستبدين بالسلطان ، وبعد أن كانت الأحداث تتصل بأعلام الفرس كأبى مسلم الخراسانى والبرامكة وبنى سهل ظهر تاريخ مرتبط أحداثه بأشناس وايتاخ ، إذ كانوا القابضين على زمام الدولة والمتصرفين فى شئونها(٢) .

حافظ المعتصم على جنوده الترك ، وحرص على أن تبقى دماؤهم متميزة فجلب لهم نساءاً من جنسهم ، وكان المعتصم ينفق على جنده الترك بسخاء ، وعنى بزيهم وألبسهم أنواع الديباج والمناطق المذهبة واتخذلهم ثكنات خاصة ، يعيشون فيها معيشة كريمة . وقد خص المعتصم الأتراك بالنفوذ ـ كما قلنا ـ وجعل لهم مراكز كبيرة فى مجالات السياسة والحرب ، وأجزل عليهم الهبات والأرزاق وفضلهم على سائر جنوده(٣) .

وكانت الأتراك تؤذى أهل بغداد بجريها الخيول فى الأسواق ومما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك ، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ٥ ص٢٣٠

(٢) أحمد أمين : ظهر الاسلام ص٦

(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٢٦٦

عند صدمه لإمرأة أو شيخ كبير أو صبي أو ضرير (١) وضاقت بغداد بعسكر المعتصم ، فتأذى منهم الناس ، وزاحموهم فى دورهم ، وتعرضوا للنساء فخشى المعتصم من أن تحدث فتنة فى بغداد بين جنده من ناحية وأهل بغداد العرب والفرس من ناحية أخرى . لذلك نقل حاضرة دولته إلى سامرا ، ونقل إليها جنده الترك وقال : إن رابنى من عساكر بغداد حادث كنت بنجوة ، وكنت قادراً على أن آتيهم فى البر وفى الماء (٢) .

يذكر بعض المؤرخين مثل الفخرى والسيوطى أن المعتصم قدم إليه رجل شيخ وقال له : جئتنا بهؤلاء العلوج من غلمانك الأتراك ، والله لنقتلنك بسهام السحر — يعنى الدعاء — فسار المعتصم إلى موضع سامرا فبناها . وهذه الرواية متوخرة لا يمكن قبولها لأن العمل الكبير الذى قام به المعتصم من حيث بناء مدينة جديدة يتخذها حاضرة لدولته لا يمكن القيام به خوفاً من دعاء شيخ وإنما المعقول أن المعتصم رأى بنفسه بذور فتنة تؤدى إلى اضطراب أمور دولته وانقسام جيشه ، وكان يعرف ويدرك جيداً قوة بأس جنده الترك وتهورهم ، بدليل ما ذكره الطبرى من أن المعتصم شكا إلى نديمه إسحاق الموصلى من مغبة أصطناعه للترك (٣) .

وصفوة القول أن عناصر السكان فى بغداد كانت تتكون — كما رأينا — من العرب والفرس والترك ، وأنهكت العناصر العربية والفارسية قواها بالصراع الذى دار بينهما حول الاستئثار بالسلطة والنفوذ ، وظهر الترك أخيرا على مسرح الأحداث ، وحلوا محل العرب والفرس . غير أن أزدياد نفوذهم فى بغداد أدى إلى طغيانهم فنقل المعتصم حاضرة دولته من

---

(١) المصدر السابق ج٢ ص٢٦٦

(٢) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص٢١١

(٣) تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٢٧ هـ

بغداد إلى سامرا، ففقدت بغداد مركز السيادة على العالم الإسلامى ، وتأثرت الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى بغداد نتيجة لذلك ، وزادت نقمة أهل بغداد على الترك ، وتجلى ذلك فى الأحاديث التى وضعها المحدثون فى ذم الترك تعبيراً عن شعورهم وشعور أهل بلدهم .

وكما انقسم أهل بغداد إلى عرب وفرس وترك ، انقسم المسلمون فيها إلى سنة وشيعة : فأما أهل السنة فلهم المركز الأول فى بغداد لأن السنة مذهب الدولة الرسمى ، وعاش فى بغداد كبار أئمة السنة ، وصنفوا فيها التصنيفات القيمة ، مثل أبى حنيفة النعمان وأبى يوسف وأحمد ابن حنبل .

أما الشيعة فى بغداد فعلى الرغم من أن الخلفاء العباسيين كانوا فى عداء مع العلويين - حتى لا يكاد يخلو عهد خليفة منهم من غير أن يثور عليه أحد الشيعة - فقد عاش فى بغداد فريق منهم دون أن يتعرض لاضطهاد العباسيين ، وكان وزراء العباسيين الفرس يميلون إلى العلويين ، ويحاولون أبعادهم عن بطش بنى العباس ، بل ويسعون لدى الخلفاء للنظر فى احتياجاتهم وتلبيتها . وظهر طالبيون فى بغداد وصلوا إلى أعلى المناصب ، فيقطين دخل فى خدمة أبى العباس والمنصور — وكان شيعيا — وكان ابنه على يحمل الأموال إلى أبى جعفر محمد بن على [1]، ووفد على بغداد وأقام بها فترة من الوقت الإمام الشافعى ، وكان شديداً فى التشيع ، وحضر ذات يوم مجلسا فيه بعض الطالبيين . فقال لا أتكلم فى مجلس يحضره أحدهم ، وهم أحق بالكلام ولهم الرياسة والفضل [2]. على أن ازدياد خطر العلويين فى عهد الرشيد دفعه إلى إخراج الطالبيين من بغداد إلى المدينة المنوره [3] .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣١٤

(٢) المصدر السابق ص ٢٩٥

(٣) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٧١

ومما لا شك فيه أن العلويين انتعشوا فى عهد المأمون فقد نقل — كما ذكرنا — ولاية العهد إلى على بن موسى ، وأمر الناس بلبس الخضرة بدلا من السواد . لكن على بن موسى لم يلبث أن توفى . وعاد المأمون إلى بغداد ، وأمر الناس بالعودة إلى لبس السواد . وظهر فى بغداد علويون لهم نشاط علمى كبير مثل الواقدى ، ولى القضاء للمأمون ، وكان عالما بالمغازى والسير والفتوح واختلاف الناس فى الحديث والفقه [١] . وأوصى المأمون أخاه المعتصم بالعلويين خيراً .

ب — أهل الذمة

شكل أهل الذمة فى بغداد فى العصر العباسى الأول عنصراً هاماً من عناصر المجتمع . والواقع كانت معاملة الخلفاء ورجال الدولة لهم تنم عن عدل وتسامح وكرم ، وأطلق الخلفاء لرؤسائهم الروحيين مباشرة أمور وشئون أبناء ملتهم ، وكان رئيس النصارى فى بغداد يسمى الجاثليق ، ويعينه الخليفة بعد استشارة كبار الأساقفة ، ويتم تعيينه بعهد أو منشور يتضمن الحقوق والامتيازات التى تمنحها الدولة له — أى للجاثليق — وتمنحه الحق فى مراجعة حكومة بغداد فى الأمور التى تتعلق بالمسيحيين الرعايا [٢] .

وكان الجاثليق الجديد إذا تم تعيينه ، يسير بحفاوة إلى قصر الخلافة وهناك يمنحه الخليفة عهد توليته ، ويتضمن حقوقه فى مباشرة سلطاته ثم تلقى عليه الخلع الثمينه ، وبعد ذلك يتوجه إلى المدائن ، وتصحبه فرقة من الجنود وجماعة من المطارنة والأساقفه ، وكبار رجال الدولة حيث يزور ضريح مارى فى ديره ، وفقاً للتقاليد المتبعة فى ذلك ثم يعود إلى بغداد ،

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٤٤

(٢) متز : الحضارة الإسلامية ج١ ص٤٧

ويقيم فى كنيسة دار الروم ـ مقره الرسمى ـ (١) .

فلنا إن الجاثليق كان من حقه مباشرة شئون النصارى ، وإصدار قرارات تعيين أفضل القسس والأساقفة وسائر رجال الكنيسة ومن حقه معاقبة النصارى ، وذلك بفرض الغرامات عليهم ، وإصدار قرار الحرمان على من يستحق منهم. غير أن الأحكام الجنائية الكبيرة كالإعدام لا تدخل فى اختصاصاته، إنما كانت من حق الحكومة(٢) ومن أبرز من ولى منصب الجاثليق فى بغداد طيمثاوس الأول(٧٨٠م - ٨٢٣ م) وقد كان على علاقة وثيقة بالخلفاء العباسيين الخمسة الأول الذين عاصرهم ولقى منهم كل رعاية وتقدير ، وكان الخليفة موسى الهادى يستدعيه إلى قصره ويحاوره فى مسائل الدين ، ويجيبه بما يتفق مع وجهة نظره (٣) .

أما اليهود فلهم رئيس خاص ، يلقب أحياناً بلقب ملك ، يدفع له أهل ملته الضرائب ، وكان نصف ما يحصل من اليهود يعطى لرئيسهم ، ويرسل النصف الآخر إلى بيت المال بخلاف ما كان الحال عليه بالنسبة للنصارى الذين كانوا يؤدون الضرائب لبيت المال مباشرة(٤) .

أذن الخلفاء العباسيون للنصارى واليهود بتشييد كنائس ودور عبادة لهم، فوافق الخليفة المهدى على تشييد كنيسة للنصارى فى محلة الروم بالجانب الشرقى من بغداد ـ الرصافة ـ وتقضى القاعدة الفقهية بترك البيع والكنائس لأهل الذمة ، وبخروج النصارى بالصلبان أيام أعيادهم ، ومن حق أهل الذمة على المسلمين حقن دمائهم ، ويقاتل المسلمون من ناوأهم من عدوهم ، ويذبوا عنهم (٥) .

---

(١) روفائيل بابو إسحق : تاريخ نصارى العراق ص٦٧

(٢) متز : الحضارة الإسلامية جـ١ ص٤٧

(٣) المصدر السابق ص ٦٨

(٤) متز : الحضارة الإسلامية جـ١ ص٥٨

(٥) أبو يوسف : الخراج ص٨٠

وبلغ من تسامح بعض الخلفاء أن يحضر مواكبهم وأعيادهم . ويأمر بصيانتها ، ففي أيام الرشيد كان النصارى يخرجون في بغداد يوم عيد الفصح في موكب كبير وبين أيديهم الصليب، إلا أنهم كانوا يخرجون بلا رايات(١)، وكان أهل الذمة يقيمون حفلاتهم الدينية بحرية تامة يظهر فيها اللهو والطرب، ويبلغ السرور أقصاه ، ويشاركهم المسلمون في هذه الاحتفالات . وكان الخليفة المأمون يهتم بالنظر في أمور أهل الذمة ، ويعقد مجلساً استشارياً يتألف من ممثلي جميع الطوائف ، ويستمع إلى مطالبهم ، ويعمل على تحقيقها(٢) .

ولا أدل على تسامح الخلفاء من أنهم تركوا أرقاءهم وجواريهم على ملتهم ، وكان للمهدي جارية نصرانية ، ترتدي رداءها القومي وتعلق في صدرها صليباً من ذهب(٣) .

وكانت الأديرة المسيحية منتشرة في جميع أنحاء بغداد حتى لم تخل منها ناحية ، ويقيم فيها النصارى شعائرهم الدينية في أمن وطمأنينة ، وتحاط بالأسوار العالية والأبواب الحديدية وتأوي اللاجيء إليها والمجتاز بها ، وأقام رهبانها دور ضيافة لمبيت الزوار، وعابري السبيل ، ويقضي النصارى في بغداد أعيادهم في ديارات معروفة ، ولا يبق أحد ممن يحب اللهو إلا تبعهم، والواقع أن الديارات كانت أماكن مناسبة جداً للنزهة والترفيه ، فكانت تقع في أماكن غاصة بالبساتين والشجر والنخل والرياحين ، لذلك حرص المسلمون من أهل بغداد على قضاء أوقات فراغهم بها ، وعقد مجالس اللهو هناك(٤) ومن أقرب الديارات إلى مدينة بغداد دير قوطا في قرية البردان

---

(١) روفائيل بابو إسحق : تاريخ نصارى العراق ص٧٠

(٢) المصدر السابق .

(٣) ابن رستة : الأعلاق النفيسة ص٢١٣

(٤) الشابشتي : الديارات ص٢ ، ٩ ، ١٦ ، ١٨ ، ٢٠

على شاطىء دجلة ، ويفصله عن بغداد بساتين ومنتزهات متتابعة(١) .

ومن أشهر بيع بغداد بيعة سمالو وبيعه درب دينار ، وبيعة درب القراطيس ، وبيعة سوق الثلاثاء(٢) على أن الحرب بين قوات الأمين وقوات المأمون قد ألحقت الكثير من التخريب والتدمير بكنائس بغداد وأديرتها(٣) .

ساهم أهل الذمة فى بغداد فى إزدهار الحركة العلمية فى العصر العباسى الأول ونشر المعرفة ، فأسسوا المدارس وقاموا بالتدريس لأبناء كبار رجال بغداد ، وترجموا الكتب من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية ذلك أن الخلفاء العباسيين الأوائل عنوا بترجمة الكتب العلمية واستعانوا بأهل الذمة فى حركة الترجمة هذه ، وقدر الخلفاء جهودهم ومنحوهم الرواتب الجزيلة ، وكان الخلفاء يرسلون العلماء الموثوق بهم من أهل الذمة إلى الدولة البيزنطية لابتياع طرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب ويعهدون إلى التراجمة من أهل الذمة بنقل هذه الكتب إلى العربية(٤) .

ومن أشهر من ساهم فى حركة الترجمة بنصيب موفور من أهل الذمة ، حنين بن اسحاق ، نشأ على حب العلم ، وتتلمذ على الطبيب الحاذق يوحنا ابن ماسوية ، وتوجه إلى الدولة البيزنطية وأقام بها فترة من الوقت درس خلالها اللغة اليونانية ، وعاد إلى العراق ودرس اللغة العربية دراسة مستفيضة على الخليل بن أحمد ، ثم عاد إلى بغداد ، ومكنته معرفته القوية باللغتين اليونانية والعربية من القيام بنشاط كبير فى حركة الترجمة ، فنقل

---

(١) المصدر السابق ص ٤١

(٢) روفائيل بابو اسحق : تاريخ نصارى العراق ص٦٩

(٣) ابن النديم : الفهرست ص٣٣٩

(٤) Hitti ; Hist. of the Arabs. P. 327.

كتاب أقليدس وكتاب المجسطي لبطليوس وكتاب أبولونيوس في المخروطات ولخص مؤلفات أفلاطون وسقراط وجالينوس ، ونقلها إلى العربية ، ولم يكن مجرد مترجم للكتب التي أشرنا إليها ، بل كان يعلق عليها ، ويوضح مافيها ، ويلخص ما يحتاج إلى تلخيص ، ويبوبها ، وبالجملة كان خير ما قدم خلاصة الفكر اليوناني إلى المثقفين العرب ، وبالإضافة إلى ما قام به من ترجمة ، فقد صنف أكثر من خمسة وعشرين كتاباً(١) .

ومن أبرز مترجمي المأمون من أهل الذمة يوحنا بن البطريق ، وكان أميناً على ترجمة الكتب العلمية حسن التأدية للمعاني ، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب(٢) وعني المأمون بعقد مجالس علمية في قصره يناظر فيها العلماء على اختلاف تخصصاتهم ، وكان أغلب علماء العلوم العقلية من أهل الذمة(٣).

من أبرز المهن التي عمل بها أهل الذمة في بغداد ـ لاسيما النصارى ـ مهنة الطب ، فقد برعوا في تشخيص الأمراض ، ووصف العلاج الناجع لها ونقلوا الكتب الطبية من اللغة اليونانية إلى العربية ، وانكبوا على دراستها ، وإضافة الجديد لها مما يتمشى مع خلاصة تجاربهم وقراءاتهم . ومن أشهر أطباء المنصور جيورجيس بن بختيشوع استدعاه المنصور لما ألم به مرض شديد ، وكان رئيساً لمستشفى جنديسابور فحضر إليه مع تلميذه عيسى بن شهلاثا ، ودعا للمنصور بالفارسية والعربية ، فأعجب المنصور من حسن منطقه ، وعالج المنصور وأحسن علاجه ، فأمر له بخلعة جليلة ، وأمر بإنزاله في أجمل موضع وأكرمه كما يكرم أخص الأهل(٤) وجدير بالذكر أن المنصور ، دعا طبيبه إلى اعتناق الإسلام ،

---

(١) القفطي : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص١٨٤
(٢) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص٢٣٦ ، ٢٣٩
(٣) المصدر السابق ٢١٤
(٤) Hitti ; Hist, of the Arabs P. 363.

فرفض الطبيب وقال : أنا على دين آبائى أموت ، وحيث يكون آبائى أحب أن أكون إما فى الجنة أو فى جهنم(١) .

على كل حال قدر المنصور طبيبه أحسن تقدير ، وأهداه ثلاث جوار روميات مع منحة قدرها ثلاثة آلاف دينار ، ولما مرض هذا الطبيب زاره المنصور ، وأمر بحمله إلى دار العامة ، ووافق على رغبته فى العودة إلى بلده، وأنفذ معه خادماً ، ومنحه عشرة آلاف دينار واتخذ المنصور من بعده عيسى بن شهلاثا طبيباً خاصاً له بعد أن وقف على مهارته(٢) لكن هذا الطبيب استغل صلته الوثيقة بالخلافة ، وآذى بنى قومه من النصارى ، فلم يقبل المنصور منه ذلك ، وعاقبه ونفاه(٣) .

ووفد على الرشيد الطبيب بختيشوع بن جيورجيس من أطباء جنديسابور، فأكرمه وخلع عليه خلعة سنية ، ووهب له مالا وأخيراً جعله رئيس الأطباء ، ودخل ابنه جبريل فى خدمة البرامكة ، ومما يجدر ذكره أن جبريل هذا عالج الأمين والمأمون ، وكانت رواتبه سبعمائة ألف وأربعة وثلاثين درهم سنوياً ، وأحصى ما ربحه من الرشيد فكان ثلاثمائة ألف وثمانين مليوناً من الدراهم(٤) .

ومن أساتذة الطب فى عهد الرشيد يوحنا بن ماسوية النصرانى السريانى ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة ، وكان موضع تقدير الناس فى بغداد ، وله مصنفات قيمة ، وكان يعقد مجالس علمية يتداول فيها خلاصة معرفته ، وقد وفد إليه طلاب العلم للاستفادة من علمه ، والاستزادة من معرفته(٥) .

(١) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء فى طبقات الأطباء جـ١ ص١٢٥
(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٢١٥
(٣) المصدر السابق ص٢١٥
(٤) المصدر السابق ص٢٢٦
(٥) القفطى : إخبار العلماء بأخبار الحكماء ص٧١ — ٧٢

كما عالج بختيشوع بن جبريل المأمون والمعتصم والواثق(١) وجالسهم ونادمهم ونال منهم العطايا السنية، وصنف كتباً فى الطب.

ومن أبرز الأطباء النصارى فى بغداد سهل بن سابور، ومن أطباء المأمون جبريل الكحال، وكان يتقاضى راتباً شهرياً قدره ألف درهم، وكان أول من يدخل إليه فى كل يوم(٢)، كان سلموية عالماً بصناعة الطب وعالج المعتصم فى مرضه، وبلغ من اعتزاز المعتصم به أن هذا الطبيب لما توفى قال المعتصم: سألحق به لأنه كان يمسك حياتى، ويدبر جسمى. وامتنع عن الطعام فى ذلك اليوم بل أمر بإحضار جنازته إلى قصره، وأن يصلى عليه بالشمع والبخور وفقاً للرسوم الجنائزية المتبعة عند المسيحيين(٣).

كذلك شغل أهل الذمة فى بغداد، وظائف التنجيم لمعرفتهم بأمور الكواكب والنجوم، ومن أبرز من عمل فى هذا المجال، ما شاء الله اليهودى الذى كان منجما للمنصور، وكان أوحد زمانه فى رصد النجوم(٤) وكان للخليفة المهدى منجم نصرانى يسمى توفيل بن توما، وبلغ من ثقته به أن جعله رئيس منجميه، وصنف وترجم بعض الكتب فى هذا المجال(٥)، وكان سند بن على - وهو يهودى - منجما للمأمون، ودخل فى الإسلام، وهو فى جملة الراصدين، ثم أهلته كفاءته إلى أن أصبح على الأرصاد كلها(٦).

اندمج أهل الذمة فى المجتمع العربى فى بغداد ولم يقتصر نشاطهم على

---

(١) المصدر السابق ص٩٩ — ١٠٠
(٢) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٢٣٩
(٣) المصدر السابق ٢٤٠، ٢٤٣
(٤) ابن النديم: الفهرست ص٣٣٢
(٥) ابن العبرى: تاريخ مختصر الدول ص٢٢٠
(٦) ابن النديم: الفهرست ص٣١١

الترجمه أو الاشتغال بالطب والفلك بل انكبوا على دراسة اللغة العربية وآدابها ، وصنف رجال منهم كتباً أدبية مثل حبيب أبو رائطة التكريتي والجاثليق طيماوس . وعرف أيضاً من شعراء وأدباء النصارى أبو قابوس، وانقطع إلى البرامكة ، واشتهر كذلك عيسى بن فرخنشاه ـ وكان من أهل بغداد ومن كتاب الدواوين(١) وكان إتقان أهل الذمة للغتين العربية واليونانية سبباً فى إسناد الخلفاء لهم السفارات الدبلوماسية إلى الدولة البيزنطية وغيرها(٢) .

كذلك اشتغل أهل الذمة فى الدواوين ، وكان لعدم إخلاص بعضهم فى تأدية واجباته أثره فى ارتياب الخلفاء فى اخلاصهم فموسى ـ وهو ذمى ـ أحد اثنين كلفهما المنصور بجباية الخراج ـ ولما ساءت سيرته ، غضب منه المنصور وعزله . وأمر بمعاقبة كل عامل أو وال يستعمل كاتباً من أهل الذمة(٣) وعلى الرغم من أن الرشيد عرف بتسامحه مع أهل الذمة إلا أنه أمرهم بألا يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم وركوبهم(٤) ومما لاشك فيه أن هذا الإجراء ليس اضطهاداً من الخليفة لأهل الذمة ، أو امتهاناً لهم ، بدليل أن القاضى أبا يوسف الذى حث الرشيد على اتخاذ هذا الإجراء هو نفسه الذى حث الرشيد على حسن معاملة أهل الذمة فقال للخليفة : ينبغى أن تتقدم بالرفق بأهل الذمة والتفقد لهم حتى لايظلموا أو يؤذوا ، ولا يكلفوا فوق طاقتهم ، ولا يؤخذ شىء من أموالهم بحق يجب عليهم(٥)

ومهما يكن من أمر فقد كان عدد النصارى فى بغداد أكثر بكثير من

---

(١) روفائيل بابو إسحق : تاريخ نصارى العراق ص٨٤ — ٨٥

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص١٣٤

(٣) الخراج ص٧٢

(٤) المصدر السابق ص٧١

(٥) Hitti ' Hist. of the Arabs P. 352.

عند اليهود ، واشتغل اليهود بالتجارة والصناعة ، ونبغ بعضهم فى الطب ، كما كانوا على صلة وثيقة بالخلافة وكبار رجال الدولة لاشتغالهم بتجارة الجوهرات .

انفصلت الطوائف الدينية عن بعضها تمام الانفصال ، فلم يقع زواج بين المسلمين وغير المسلمين ، ولا يمكن للمسيحى أن يعتنق اليهودية ، ولا يستطيع اليهودى أن يدخل فى المسيحية ، واقتصر التغيير فى الدين على الدخول فى الإسلام فقط . ولا يجوز للمسيحى أن يرث اليهودى ، ولا اليهودى أن يرث المسيحى ، ولا يرث المسيحى واليهودى المسلم ، والمسلم لا يرث المسيحى أو اليهودى وفى ذلك قال الرسول : لا يتوارث أهل ملتين(١) .

(ح) الرقيق :

كثر الرقيق فى بغداد فى العصر العباسى الأول ، وساعد على كثرته الانتصارات الكثيرة التى كانت تحرزها الدولة الإسلامية على أعدائها وما يتبع ذلك من استحواذها على مغانم كثيرة ، ومن بين هذه الغنائم الأسرى(٢) ، وكانت بعض الولايات الإسلامية ترسل إلى بغداد رقيقاً كجزء من الأتاوة المفروضة عليها(٣) . فضلا عن أن الرقيق كان يجلب من الأسواق .

كذلك امتلأت قصور الخلفاء وكبار رجال الدولة بالرقيق من أجناس مختلفة منها الأبيض والأسود والأصفر تختلف فى لغاتهـــا وعاداتها وتقاليدها(٤) ، ولم ينظر الخلفاء العباسيون إلى الأرقاء نظرة امتهان وازدراء ، ولا أدل على ذلك من أن كثيراً منهم كانوا أبناء أمهات وقعن فى أيدى آبائهن

---

(١) متز : الحضارة الإسلامية ص٥٦ — ٥٧

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٣٨ .

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٨٣ .

(٤) الدور : حضارة الإسلام فى دار السلام ص٩٨

عن طريق الأسر أو الاسترقاق ، بل إن بعض كبار رجال الدولة كانوا يتخذون الإماء من غير العرب ، ويفضلونهن على العربيات الحرائر(١) .

ومما يجدر ذكره أن الخليفة المنصور أمه أم ولد يقال لها سلامة البربرية(٢) كذلك كان الهادى والرشيد والمأمون والمعتصم من أمهات أولاد ولم يكن من خلفاء العصر العباسى الأول من أم عربية حرة سوى المهدى والامين وقد ينجب الرجل ذرية بعضها من أولاد الجوارى والبعض الآخر من أولاد الحرائر . فيفخر أولاد الحرائر على أولاد الجوارى ، فالامين كان يفخر على المأمون بأنه لم يجر فى عروقه دم رقيق(٣) .

على أن الجارية أو الأمة قد أتيحت لها الفرصة للانتقال إلى مرتبة أعلى من مرتبة الرق . فإذا أنجبت من سيدها سميت أم ولد وصارت فى وضع أرفع شأناً من وضع الامة ، فلا يجوز لسيدها أن يبيعها أو يهبها وإنما تبقى حلاله ، وإذا توفى سيدها ، صارت حرة ، ينطبق عليها أحكام الميراث ، والطفل الذى يولد من أمة يكون حراً .

انتشرت تجارة الرقيق فى بغداد ، فكان بها محلة تسمى دار الرقيق(٤) وكان بالرصافة ـ الجانب الشرقى من بغداد ـ محلة دار الروم نسبة إلى سكانها الذين قدموا إليها فى عهد المهدى أسرى من بلاد الروم ، واشتهر كثير من تجار الرقيق فى بغداد من النخاسين ، وسبب شهرتهم كثرة ما كان يفد عليهم من الشعراء والادباء لابتياع الجوارى الحسان ، وكان بالكرخ نخاس يسمى أبو عمير له جوار قيان لهن ظرف ، وكذلك أبو خطاب النخاس ، ومنهم حرب بن عمير ، وله جارية مغنيه يفد إليها الشعراء وأهل الادب

---

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق ص ١٩٤
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص٢٢٣
(٣) المصدر السابق ج٢ ص٢٤٣
(٤) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك ج ٨ ص ٤٧ .

في بغداد للاستماع إليها[1] .

والنخاس ينادي لمن حوله من الراغبين ، ويصف لهم الجارية بعد الجارية بأحسن ما يكون من أوصاف الحسن والجمال ؛ ومن بينهن جوار عليهن اللباس الفاخر ويتخذن العصائب المحلاة بالدر والجوهر[2] ، وكان على تجار الرقيق عامل من قبل الحكومة يشرف على أعمالهم ، ويراقب تجارتهم ، يسمى قيم الرقيق .

قلنا إن الرقيق تنوعت أجناسه وألوانه ، وأحسن أنواع الرقيق ، النوع الابيض . وكان من الترك أو الصقالبة ، والصقالبة يفضلون على الترك ويقول الخوارزمي[3] : ويستخدم التركي عند غيبة الصقلبي . وأكثر ما يجلب من بلاد البلغار ، وكانت سمرقند أكبر مراكز تجارة الرقيق الابيض ، وخير رقيق بلاد ما وراء النهر من تربيتها ، وكان أهلها يتخذون من تهذيب وتربية الرقيق صناعة يعيشون منها .

ولقد كان لكل نوع من أنواع الرقيق صفات خاصة، فالهنديات عرفن بالطاعـــة والهدوء وإتقان مباشرة الشؤون المنزلية والاشغال اليدوية ، واشتهرت مولدات المدينة بالمرح والميل إلى اللهو ، وعرفت السودانيات بالميل إلى الرقص وألوان الطرب ، والمغربيات والتركيات عرفن بإتقان الشؤون المنزلية ، والعبد الرومي يجيد تدبير المنزل ، ويحب النظام ، ويميل إلى القصر في الانفاق ، ويجيد الفنون الجميلة ، والارمن فيهم خشونة في الطبع . على أن الرقيق المجلوب من بلاد السند كثرت جرائمهم مع سادتهم ، فقل إقبال الناس على شرائهم ، لذلك رخص سعرهم[4] .

(١) الاصفهاني : الأغاني . ج١٤ ص ١٩٩ .
(٢) متز : الحضارة الإسلامية ج١ ص ٢٢٧ .
(٣) متز : الحضارة الإسلامية ج١ ص٢٢٩.
(٤) المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٢٠٨

انتشرت فى بغداد ظاهرة تعليم الجوارى الغناء ، وكانت الجارية إذا أتقنت الغناء تباع بثمن مرتفع جداً ، وأول من عنى عناية كبيرة بتعليم الجوارى الغناء ، إبراهيم الموصلى ، فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ ورفع من أقدارهن ، وكان بعض الناس يبعثون بجواريهم إلى إبراهيم وابنه اسحاق لتعلم الغناء ، فإذا برعت فيه ، استطاع سيدها أن يبيعها بثمن مرتفع[١] وكان عند إبراهيم الموصلى العديد من الجوارى يتقن الغناء من ألحانه ، فبيعت جارية هندية تعلمت الغناء على أيدى إبراهيم الموصلى بمائتى ألف درهم[٢].

وبلغ من حرص الناس على تعليم الجوارى الغناء أن بعض وجوه أهل خراسان كانوا يرسلون غلمانهم إلى إسحاق الموصلى ليعلمهم الغناء وكان يعلم الغلام منهم اللحن بألف درهم[٣] .

وجدير بالذكر أن إبراهيم الموصلى وابنه اسحاق علما جارية مولدة صفراء تسمى قلم الصالحية الغناء ، وبرعت فيه حتى ابتكرت حوالى عشرين لحناً ، واشتراها الواثق بعشرة آلاف دينار[٤] وكانت شارية جارية تعلمت الغناء حتى أتقنته ، فاشتراها إسحاق الموصلى بثلاثمائة دينار ، ولما تدربت على الغناء اشتراها ، إبراهيم بن المهدى بعد سنة بثلاثمائة ألف دينار ، واشتراها المعتصم بعد ذلك بخمسة آلاف وخمسمائة دينار[٥] .

وكان للمهدى جارية من أصل فارسى ، تعلمت فى الطائف وتثقفت وأنجبت إبراهيم بن المهدى وكان رجلا أديباً ديناً شاعراً راوية للشعر وأيام

---

(١) الاصفهانى : الأغانى جـ٧ ص ١٧٠ — ٢٩٤
(٢) المصدر السابق جـ٥ ص١٧٧
(٣) المصدر السابق جـ٥ ص٢٧٩
(٤) المصدر السابق جـ١٣ ص٣٤٧
(٥) المصدر السابق جـ ٤ ص ٢٦٩

العرب فصيحاً خطيباً(١) ، وكانت مكنونة من أبرز الجوارى فى الغناء ، نشأت فى المدينة ، وأتقنت الغناء ، واشتراها بمائة ألف درهم(٢) ، فغلبت عليه ، وأنجبت علية ، وكانت شاعرة أيضاً تتقن الغناء ولها ألحان كثيرة(٣) .

والواقع أن كبار الموسيقيين فى بغداد قد تخرج على أيديهم الكثير من الأرقاء والجوارى ، ومن أبرز هؤلاء الأرقاء عبد أسود يقال له زرياب ، كان مطبوعاً على الغناء ، وعلمه إبراهيم الموصلى ، وربما حضر به مجلس الرشيد يغنى فيه ، ثم انتقل إلى خدمة بنى الأغلب فى القيروان ، وغضب عليه زيادة الله فغادر القيروان ، وقصد الأندلس ودخل فى خدمة الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، وذاع صيته(٤) .

ومن الجوارى ظهرت شاعرات يتقن الشعر ، وأول من اشتهر منهن بقول الشعر فى الدولة العباسية عنان بيعت بمائة ألف درهم ، ولم يزل فحول الشعراء فى عصرها يلتقون بها فى منزل مولاها فيتقارضونها الشعر وتنتصف منهم(٥) .

اشتغل الرقيق والجوارى عند سادتهم فى جميع الأعمال التى تدر عليهم الربح ، فمنهم من عمل فى زراعه أرض سيده ، ومنهم من اشتغل بالصناعة، ومنهم من عمل فى الحراسة أو فى الخدمة المنزلية ، على أن أهم الأعمال التى أسندت إليهم كانت الجندية ، فقد اشترى الخليفه المعتصم الرقيق الأبيض ، وأدخله فى جيشه ، وعنى به حتى بلغ عددهم بضعة آلاف(٦) .

قلنا إن الرقيق كثر فى بغداد حتى كانت قصور الخلفاء والأمراء ورجال

---

(١) الأصفهانى : الأغانى ج ١٠ ص ١١٢ .
(٢) المصدر السابق ج ١٠ ص ١٦٢ .
(٣) المصدر السابق ج ١٠ ص ١٩٤
(٤) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٤ ص ١١٠
(٥) المصدر السابق
(٦) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٢١ هـ
John Glubb. The Empire of the Arabs p. 343.

الدولة تضم الألوف منهم ، ولقد رغب الإسلام فى عتق العبيد . لذلك أقبل الناس على ذلك تقرباً إلى الله ، فكانت ريطة ابنة أبى العباس تشترى رقيقاً للعتق(١) وأوصى الخليفة المعتصم قبل وفاته بعتق ثمانية آلاف من مماليكه(٢) بل كان العبد يستطيع أن يشترى حريته ، بدفع قدر من المال .

أثر الجوارى تأثيراً كبيراً فى ازدهار الفنون الجميلة فى بغداد ، لأن الناس حرصوا على أن تجمع الجوارى بين الجمال الخلق والجمال الفنى ، فأخذوا يعلمون الجوارى فنون الرقص واللبس إلى غير ذلك من ضروب الفن ، وسرعان ماالقن المغنون جواريهم ألحانهم ، وطريقة غنائهم(٣) .

وظهرت جوار أتقن كتابة الأشعار الرقيقة والعبارات اللطيفة تطريزاً على الثياب ، وبعضهن أحب الأزهار وتغنى بها فقلدهن فيها الناس(٣) .

وكان للجوارى فضل آخر ، إذ أنهن - كما رأينا - من بلاد مختلفة روميات وتركيات وهنديات وصقلبيات وغير ذلك ، وحاولن إدخال عاداتهن ، وأدى ذلك إلى انقسام الناس إلى طائفتين ، طائفة تتعصب للقديم ، وأخرى تعضد الجديد الذى أدخل عليه نغمات رومية أو تركية أو هندية أو نحو ذلك(٤) .

وقد تأثر الإنتاج الأدبى بكثرة الرقيق ، فألف بعض الكتاب كتباً فى تجارة الرقيق ، وذكر أوصاف الرقيق من كل جنس وحاول بعضهم وضع قواعد للجمال ، كما تكلم بعضهم فى الألوان وحسنها(٥) .

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢١٦
(٢) متز : الحضارة الإسلامية جـ١ ص ٢٧٢
(٣) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ١ ص ٩٤
(٤) المصدر السابق
(٥) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ١٧٠

٢ — الحياة العامة فى بغداد

(أ) القصور والدور فى بغداد فى العصر العباسى الأول :

عُنى الخلفاء والأمراء العباسيون ومن يلوذ بهم من الوزراء والأدباء والعلماء بتشييد القصور الفخمة فى مدينة السلام . وبلغت درجة من الاتساع جعلتها أشبه بمدن كبيرة ، واشتملت على دور واسعة وقاعات ذات قباب وأروقة وبساتين(١) .

وأول القصور التى شيدت فى بغداد قصر باب الذهب ذى القبة الخضراء، وارتفاعها ثمانون ذراعاً ، ويمكن منها الإشراف على نواحى بغداد المختلفة، وما يحيط بها من حدائق وبساتين ، وبدت كأنها « إكليل من نور قد تدلى على مدينة السلام(٢) » وعلى رأس القبة ظهر تمثال على صورة فارس فى يده رمح ، وتحت القبة مجلس بمستوى سطح الأرض مساحته عشرة أمتار فى مثلها . وفى صدر المجلس إيوان عظيم على الطراز الفارسى ، وكان يسمى قصر السلام(٣) .

على أن المنصور شيد قصراً آخر على أطراف بغداد وسماه الخلد نسبة إلى حدائقه الواسعة(٤) ويقع على دجلة تجاه باب خراسان وتأنق فى بنائه وتجميله ، وبنيت حوله الدور حتى أصبح القصر وما حوله من عمائر يعرف بالخلد(٥) وكان بهذا القصر قباب بديعة الشكل وبأبوابه مسامير من ذهب وفضة ، كما تخللته العمد الكثيرة الفخمة ، التى زينها المنصور بالرسوم البديعة ، والصور الجميلة وكان مجلسه فى هذا القصر مفروشاً

(١) محمد جمال الدين سرور : تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ١٧٥

(٢) المدور : حضارة الإسلام فى دار السلام

John Glubb , The Empire of the Arabs. P. 243

(٣) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٢١

(٤) Hitti ; Hist. of the Arabs. p. 293

(٥) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ ١ ص ٧٥

بالرخام يتوسطه قضبان ذهبية ، وفرش بالبسط والديباج الى نقش عليه أبيات شعرية فى مدح الخليفة ، وفى المجلس كراسى فخمة مرصعة باللؤلؤ معدة لجلوس كبار رجال الدولة الذين يحظون بالجلوس فى مجلس الخليفة ، أما الخليفة نفسه فيجلس فى قبة مفروشة بأفخر أنواع الحرير المنسوج بالذهب (١) .

حذا الخلفاء العباسيون حذو المنصور فى العناية بتشييد القصور الفخمة فشيد الخليفة المهدى قصرا بعيسى باذ شرقى بغداد ، وسماه قصر السلامة(٢).

كما شيد الرشيد قصرا على دجلة تأنق فى تجميله وزينه بأبهى معالم الزينة وأقام فيه أساطين الرخام (٣) وقام الأمين بتوسيع قصر باب الذهب ، بأن أضاف إليه مبانى جديدة . وكانت قصور الخلافة تكتنفها حدائق غناء تبلغ مساحتها مايعادل مسيرة عدة ساعات ، ويطل القصر على ميدان فسيح يعرض فيه الجنود الذين كانت ثكناتهم تطل على الضفة اليسرى للنهر (٤).

كذلك تعددت قصور أمراء البيت العباسى وتميزت بفخامة بنائها واتساعها مثال ذلك قصر عيسى بن على بن عبد الله بن العباس ، وكان يقع على أحد فروع نهر دجله ، وهو أول قصر بناه الهاشميون فى أيام المنصور ببغداد ، ولا أدل على سعته من أن المنصور زار عيسى بن على فى قصرة ومعه أربعة آلاف رجل ، وكان عيسى بن على يقيم فيه ومعه عدة آلاف من عياله ومواليه (٥).

وكان لكل هاشمية من بنات البيت العباسى قصر منفرد ، وأعظم هذه

---

(١) Hitti; Hist. of the Arabs. p. 293.

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ٦ ص١٦٥

(٣) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ١ ص٧٥

(٤) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص٢٨٣ — ٢٨٤

(٥) ياقوت : معجم البلدان جـ٧ ص١٠٧

القصور قصر السيده زبيده ، وكانت هذه القصور تضم من الخدم والغلمان أعداداً كبيرة مما يدل على حياة الترف والنعيم وجمال السلطان بالبهاء والإشراق (١).

لم يقتصر تشييد القصور الفخمة على بنى العباس ، لكن سار على منوالهم الوزراء وكبار رجال الدولة وأهل الثراء ، فشيد البرامكة فى الجانب الشرقى من بغداد قصورا منيفة لهم بالشماسية فكان جعفر بن يحيى البرمكى يحب حياة اللهو لذا نصحه والده يحيى بن خالد بأن يتخذ لنفسه قصراً فى الرصافة يجمع فيه ندماءه وقيانه ، ويقضى معهم أوقات فراغه بعيداً عن الأعين ، لذلك شيد قصراً بالشماسية ، وأحاطه ببساتين ذات أرياض خصبة مربعة وفرش به من أنواع الأشجار مايأتى بأطيب الثمار ، واتخذ لكل مقصورة فرش على مقدار أبنيتها ، وكان هذا القصر من أحسن القصور وأبهاها وأحب المواقع إليه وأشهاها لاطلاله على نهر دجله ، وكماله فى النظر واشتماله بالروض والشجر ، وزين هذا القصر بالرسوم والزخارف البديعة من الداخل والخارج ، وعليه صور من الجص المجسم (٢) ، وقد حث يحيى بن خالد البرمكى ابنيه الفضل وجعفر على البناء فقال : لا شىء أبقى ذكراً من البناء ، فاتخذوا منه مايبقى لكم ذكراً ، فشيد الفضل قصراً كذلك (٣).

ولقد اتصلت عمائر البرامكة فى حى لا يخالطهم فيه أحد فى الشماسية بالرصافة ، وبرز فيها قصر يحيى المعروف بقصر الطين ، الذى أنفق فى بنائه أموالا طائلة ، وحى البرامكة هذا كان قريباً من قرية البردان ، ولقد اشترى البرامكة الدور من أهل هذه القرية ، ووهبوها لمن يلوذ بهم من أهل العلم والأدب (٤).

---

(١) الدور : حضارة الإسلام فى دار السلام ص ١٧٣
(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢١٧
(٣) ابن الساعى : نساء الخلفاء ص ٩٠ — ٧١
(٤) المصدر السابق .

ظل قصر جعفر بن يحي - الذى سبقت الإشارة إليه - قائماً حتى قتل الامين وولى المأمون الخلافة ، فأقام المأمون بمرو فى بداية خلافته ، وعهد إلى الحسن بن سهل بحكم العراق نيابة عنه ، ونزل فى القصر الجعفرى وأقام به ، ولما قدم المأمون من خراسان ، وأقام فى بغداد ، بقى الحسن مقيما فى القصر المشار إليه ، وقام بتوسيعه ، وكتب اسم الحسن عليه ، وعرف بالقصر الحسنى بدلا من الجعفرى . على أن الحسن بن سهل خصص هذا القصر لابنته بوران بعد زواجها بالمأمون ، وأضاف إليه المأمون عددا من المبانى المجاورة [١].

ويذكر ابن طيفور [٢] أن الفضل والحسن ابنى سهل عنيا بالعمارة وكان لاينزلان من المنازل إلا أطراف البلدان ، وقد أوضح الحسن السبب فى ذلك فقال - الاطراف منازل الاشراف ، يتناولن ما يريدون بالقدرة ، ويتناولن مايريدون بالحاجة .

عنى شعب بغداد بتشييد الدور الفخمة خصوصاً أهل اليسار منهم وكانت تشتمل فى الغالب على طابقين ومبنية بالجص والآجر ، وتحاط بأسوار ، وأقاموا فيها أحواض ماء ، زرعوا حولها بعض الأشجار والزروع ، وأقاموا على الأحواض عمداً مزخرفة من الرخام ، معقودة بقباب من فوقها ، نقش عليها آيات قرآنية . أما العوام فكانت منازلهم بلا أسوار وتتكون فى الغالب من طابق واحد وتطل نوافذها على الشوارع مباشرة (٣) .

أخذ العباسيون عن الفرس العمل على تخفيف حرارة الشمس صيفاً فكانوا يغطون بيوتهم بطبقة من الطين ، تجدد فى كل يوم ، يقضى أهل

(١) سيد أمير على : مختصر تاريخ العرب ص٣٨٣ — ٣٨٤
(٢) ص ١٣٠
(٣) الطبرى . تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥٨ ه

المنزل وقت الظهيرة فيه ويرصف حول البيت كميات كبيرة من القصب(١).

كذلك يسر الخلفاء وصول المياه إلى القصور والدور، فأنشأوا جداول في بغداد تأخذ من دجلة والفرات، وكانت الرحاب والشوارع تكنس وترش بأحسن نظام، ولم يكن يسمح قط بالقاء القاذورات على جانبي الشوارع والأزقة، وكانت الشوارع تضاء بالمصابيح ليلا(٢).

حرص أهل بغداد على تزيين مجالسهم بالفرش الفاخرة والأثاث وكانوا يكسون حيطان بيوتهم بالديباج، ويعنون بغرس الأشجار والأزهار في حدائق منازلهم، ويجلبون الرياحين من بلاد الهند.

والخلاصة أن مدينة بغداد عظم فيها العمران في العصر العباسي الأول حتى أن ضفتي دجلة أقيمت فيها القصور الفخمة والحدائق والمتنزهات البديعة، والأسواق العامرة والحمامات الجميلة والمساجد الفخمة.

(ب) المواكب والأعياد والمواسم

فاقت مواكب العباسيين مواكب الأمويين، وتميزت بالروعة والبهاء، وكان رجال الحرس يصحبون الخليفة المهدي في موكبه مرتدين الأزياء الفخمة وبأيديهم الأسلحة، ولكن الرشيد والمأمون كثيراً ما كانا يفضلان البساطة(٣).

تجلت روعة مواكب الخلفاء العباسيين في الجمع والأعياد، فكان موكب الخليفة يتقدمه الغلمان - أي رجال الحرس على اختلاف طبقاتهم - يحملون الأعلام والمقارع وآلات الموسيقى المحلاة بالذهب، ثم يليهم أمراء البيت العباسي على الخيول المطهمة، ثم الخليفة ممتطياً جواداً ناصع

---

(١) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٣

(٢) سيد أمير علي: مختصر تاريخ العرب ص٣٨٣ — ٣٨٤

(٣) سيد أمير علي: مختصر العرب ص٣٨٦ — ٣٨٧

البياض وبين يديه الأشراف وكبار رجال الدولة، ويأتى بعدهم بقية الغلمان، وكان الخليفة فى تلك المواكب يلبس القباء الأسود الذى يصل إلى الركبه، ويتمنطق بمنطقة مرصعة بالجواهر، ويتخذ عباءة سوداء ويلبس قلنسوة، وقد زينت بجوهرة ثمينة، وبيده قضيب رسول الله والخاتم. وتتدلى على صدره سلسلة ذهبية مرصعة بالجواهر الثمينة. أما القباء فكان مفتوحاً عند الرقبة(١).

وتجلت مظاهر الخلفاء العباسيين الخاصة التى تدل على سيادتهم الروحية فى مواكبهم المتجهة من بغـــداد إلى الحجاز للحج، فحينما خرج المنصور فى إحدى السنوات للحج، اجتمع حشد كبير من أهل العراق وخراسان وغيرهم من المتجهين لأداء فريضة الحج فى باب الكوفة، وكل معه إبله ومؤونته ومتاعه، واجتمع هناك فريق من الجند لحراسة الحجيج فى حلهم وترحالهم، وسار الموكب وفى طليعته هوادج تظللها قباب من الديباج، وفيها يقيم أمين الحج، ثم أذن للحج بالمسير، فضرب بوق إيذاناً بركوب الخليفة، وجلس فى هودج، وفى يده قضيب الخلافة، وفى الاخرى الخاتم، وعليه جبه وشى من فوقها بردة خضراء للرسول، ويصحبه جماعة من الامراء ورجال الدولة، ومن خلفهم الإبل التى يركبها أهل بيته، ولهم حرس خاص بهم يحملون الرايات السود، فلما وقف الامراء ورجال الدولة لوداع الخليفة، أوصاهم بالسهر على الرعية، ثم نفخ فى البوق إيذانا بالنفير، وزحف الحجيج وفى مقدمتهم هودج الخليفة(٢).

ويصف لنا ابن قتيبة(٣) أحد مواكب الرشيد فى رحلة الحج فيقول: لما اعتزم الرشيد الحج أمر بتمهيد طريق الحج، وذلك بإزالة العوائق

---

(١) سيد أمير على: مختصر تاريخ العرب ص٢٨٧

(٢) الدور: حضارة الإسلام فى دار السلام ص٥٣ — ٥٥

(٣) الأمامه والسياسة ص٢٢٣

من الطريق ، ولذلك حولت بعض القنوات - التى تعترض الطريق - عن مجراها ، وأزيلت المرتفعات والآكام التى تعرقل الطريق ، وردمت الخنادق ، حتى صار الطريق من بغداد إلى مكة المكرمة ممهداً وأمر بعمل محطات فى الطريق تبعد الواحدة عن الاخرى مسافة إثنى عشر ميلا ، وفى كل محطة دار فرشت بالبسط الفاخرة ، ونصبت لها جدار بالستور وسمكها بأكسية الخز الرفيع الملون، وعلى كل فرسخ من الطريق أقيمت قبة مفروشة، وقد أحاط بها الاشجار التى تظللها ، وأقيمت الرواقات الكثيفة بها أنواع الطعام والشراب والفاكهة ، فكان يمشى ثلاثة أميال ثم ينزل فى قبة أمامها رواق فينال راحته ، ويصيب ما اشتهى من ألوان الطعام ، ورافقه فى طريقة الوزراء والقواد وأمراء الاجناد والاعلام والفقهاء والعساكر قد صاروا منه بمعزل يحاذونه فى طريقه إذا نزل ، وكان فى توقفه يتابع أمور دولته ، فيأتيه البريد بأخبار الامصار والبلدان ، ويصدر أوامره وتعليماته إلى بلدان دولته .

لم تقتصر مواكب الخلفاء على الخروج للصلاة أو الحج ، وإنما اشتملت أيضاً رحلات الخليفة إلى الصيد . فحينما كان يخرج الخليفة المهدى للصيد يحاط بفرسان من الحرس متقلدين سيوفهم ، يتبعهم عدد من الجند وطائفة من الغلمان(١) .

وكانت نساء الخلفاء يتنقلن فى مواكب خاصة بهن، فالخيزران- أم الهادى والرشيد - كانت تنتقل فى موكب عظيم من الغلمان المزينة ، والخيل عليها كسوة من الديباج والحلية الثقيلة من الفضه(٢) .

اهتم الخلفاء العباسيون بالاحتفال بالأعياد فى شىء كثير من الإبهة ،

---

(١) Gohn Glubb: the Empire of the Arabs. P. 264.

(٢) الدور : حضارة الإسلام فى دار السلام ص٢٢

والاعياد نوعان دينية وتشمل عيد الفطر وعيد الأضحى وأعياد كان يحتفل بها أهل العراق قبل الإسلام.

كان الخلفاء يحتفلون بعيدى الفطر والأضحى احتفالا دينيا فيؤدون صلاة العيد فى المسجد الجامع، ويؤمون الناس فى الصلاة، ويلقون خطبة العيد عليهم، وفى ليالى هذا العيد تضاء الأنوار فى المدينة، وفى العيد يركب الناس نهر دجله فى زوارق مطلية بأبهى الأصباغ والألوان، ويتلألأ قصر الخلافة بضوء باهر، ويلبس الناس الطيالس السود، وتقام الولائم للناس على مراتبهم(١).

أما الأعياد التى كان يحتفل بها أهل العراق من قبل الإسلام مسيحية تماما، وكان أهل بغداد مسيحيين ومسلمين يحتفلون فى الأديرة بأعياد القديسين، ويوم أحد الشعانين عيد كبير للعامة، ويبدو أنه كان عيدا قديما من أعياد الأشجار، والوصائف فى هذا العيد يظهرن فى قصر الخلافة مرتديات أنفر أنواع الثياب، وفى أعناقهن صلبان من ذهب، وبأيديهن قلوب النخل وأغصان الزيتون(٢).

وفى يوم عيد الفصح، يقصد النصارى دير سمالو شرق بغداد بباب الشماسيه على نهر المهدى، ويشاركهم احتفالهم أهل اللهو من المسلمين حيث تحف به المتنزهات(٣) ويحتفل النصارى بأحد أعيادهم فى دير الثعالب بالجانب الغربى من بغداد، ويشاركهم المسلمون أيضا الاحتفال بهذا العيد، ويشمل المكان الذى يقع فيه الدير البساتين التى تضم أنواع الأشجار والرياحين، وهذا العيد كان فى آخر سبت من أيلول. (سبتمبر)(٤).

(١) المصدر السابق.
(٢) متز: الحضارة الإسلامية جـ٢ ص٢٧٨
(٣) الشابستى: الديارات ص٩
(٤) المصدر السابق ص١٦

أما عيد دير أشمونى فكان فى اليوم الثالث من تشرين الأول ، (أكتوبر) وهو من الأيام العظيمة فى بغداد ، يجتمع أهلها فيه وخصوصا أهل الطرب واللهو ، ويتنافسون فيما يظهرونه هناك من زيهم ، ويباهون بما يعدونه لقصفهم ، ويعمرون شطه وديره وحاناته ويضرب لذوى البسطة منهم الخيم والفساطيط ، ويعزف القيان ويتمتع الناس هناك باللهو والطرب ، ويكثر الغناء(١) .

وأعياد النصارى ببغداد يقسمونها على أعياد معروفة فالاحد الأول منه عيد دير العاصية ، وهو على ميل من سمالو والأحد الثانى دير الزريقية والأحد الثالث دير الزندورد والأحد الرابع دير درمالس ، هذا وعيده أحسن عيد ، يجتمع نصارى بغداد اليه ، ولا يبقى أحد ممن يحب اللهو والطرب إلا تبعهم ، ويقيم الناس فيه الأيام الطوال(٢) .

وكان هناك مواسم أخرى يحتفل بها العباسيون منها النوروز وهو أول أيام السنة عند الفرس ، وأحد مواسمهم القديمة ، وقد نهى العرب أهل فارس بعد الفتح - عن الاحتفال بهذا العيد ، غير أن العباسيين فى عصرهم الاول أباحوا الاحتفال به(٣) ، وكان الناس يتبادلون فيه الهدايا ، والخليفة يوزع على الناس أشياء منها صور مصنوعة من عنبر (٣١٠) .

ويأتى بعد عيد النوروز بمائة وأربعة وتسعين يوما عيد المهرجان ويعتبر أول أيام الشتاء ، وظل إلى جانب النوروز أكبر الأعياد ، وكان الناس يتهادون فيه ، وتخلع فى هذا العيد على القواد وكبار رجال الدولة ملابس الشتاء ، وكان العامة يغيرون فيه الفرش والثياب ، وكثيراً من الملابس ،

---

(١) الديارات للشابشتى ص٣٠

(٢) المصدر السابق ص٣

(٣) متز . الحضارة الإسلامية ص٢٨٧

وكان هذا العيد يمتاز خاصة بأن الرعية يهدون فيه السلطان (١) .

(ج) الموسيقى والغناء والمجالس الاجتماعية

كانت مجالس الخلفاء العباسيين والآمراء والوزراء وكبار رجال الدولة تضم الندماء والمغنين ، فالندماء يقصون النوادر الأدبية ويروون الأشعار . أما المغنون فيؤدون أغانيهم . وقد يكون النديم مغنياً فى نفس الوقت مثل اسحاق بن ابراهيم الموصلى .

وصناعة الغناء هى تلحين الأشعار الموزونة بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة يوقع كل صوت منها توقيعاً عند قطعه ، فيكون نغمه ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها إلى بعض على نسب متعارفة فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب ، وما يحدث عنه من الكيفية فى تلك الأصوات .

انتشر الغناء فى بغداد فى العصر العباسى الاول ، وأقبل أهل بغداد عليه - على اختلاف مستوياتهم - بشغف شديد ، وزاد من شغف الناس به ، إقبال الكثير من أهل الطرب واللهو من بلاد الإسلام على بغداد ، وإقامتهم بها ، وعرض فنهم فيها ، وكان بعض الخلفاء فى العصر العباسى الأول يتحرج من الظهور للمغنين ، فلما ولى المنصور الخلافة شغل بإقرار الأمور فى دولته ، والقضاء على أعدائها ، لذلك لم يكن له فى اللهو والطرب مجال ، ولم ير فى دار المنصور لهو ولا غناء ، ولم يظهر لنديم قط . وكان بينه وبين الستارة عشرون ذراعاً ، وبين الستارة والندماء مثلها (٢) . أما المهدى فكان فى أول الامر لا يحتجب عن الندماء ، تشبها بأبيه المنصور ، وظل على ذلك نحواً من سنة ، ثم ظهر لهم فأشار عليه أحد خاصته بأن يحتجب عنهم تشبهاً

---

(١) الجاحظ : التاج ص١٤٦

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٤٢٣

(٣) الجاحظ : التاج ص٣٤

بأبيه فرفض وقال . إنما اللذة فى مشاهدة السرور ، وفى الدنو ممن سرنى .
وكان محباً للمنادمة لا يترك جليسه إلا عن ضرورة[١] ومن أشهر ندمائه مروان بن أبى حفصة ، كان يأتى باب المهدى على برذون قيمته عشرة آلاف دينار والسرج واللجام المزينين ، ولباسه الخز والوشى ورائحة المسك والطيب تفوح منه [٢].

والحقيقة أن المهدى شجع أهل بغداد على الإقبال على الغناء واللهو ، إلا أنه رفض أن يتجاوزوا باللهو حدود ما أمر به الله ، ولكن الامور سارت على غير مارسمه ، فقد شاع شعر بشار بن برد فى عهد المهدى بما فيه من مجون وعبث وغزل مكشوف حتى ضج رجال بغداد من شعره ، وشكوا إلى المهدى لانهم خافوا على نسائهم وبناتهم ، فتدخل المهدى ونهى بشار عن الغزل بالنساء [٣].

وكان الهادى يستمع إلى الغناء ، ويجزل عليه العطاء [٤] . أما الرشيد فقد شغف بمجالس الطرب والغناء ، ولم يجتمع على باب خليفة من العلماء والشعراء والفقهاء والقراء والقضاة والكتاب والندماء والمغنين مااجتمع على باب الرشيد ، وكان يصل كل واحد منهم بأجزل صلة ، ويرفعه إلا أعلى مرتبه ، وكان فاضلا شاعراً راوية للأخبار والآثار والاشعار [٤] وكثيراً ما يتلثم فيحضر مجالس العلماء وهو لا يعرف ، ولقد قسم الايام والليالى فليلة للوزراء يذاكرهم أمور الناس . ويشاورهم فى أمور الدولة الداخلية والخارجية ، وليلة للكتاب يتفقد أعمالهم ، ويرتب للناس ماظهر من صلاح

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤ — ٣٥
(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ ١٠ ص ٧٧
(٣) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ ١ ص ١١١
(٤) الجاحظ . التاج ص ٣٥

أحوال المسلمين وليلة للقواد وأمراء الاجناد يذاكرهم أمر الامصار ويسألهم عن الاخبار ، ويذاكرهم العلم ويدارسهم الفقه — وكان من أعلمهم — وليلة للقراء والعباد يتصفح وجوههم ، ويتعظ برؤيتهم ، ويستمع لمواعظهم ، ويرقق قلبه بكلامهم ، وليلة لاهل بيته يأنس بهم ويباشرهم ، وليلة يخلو فيها بنفسه لا يعلم أحد قرب أو بعد ما يصنع ، ولا يشك أحد أنه يخلو فيها بربه يسأله خلاص نفسه وفكاك رقه(١) .

وجعل الرشيد للمغنين مراتب وطبقات ، فكان إبراهيم الموصلي وابن جامع وزلزل في الطبقة الأولى ، والطبقة الثانية سليم بن سلام وعمرو الغزال ، والطبقة الثالثة أصحاب المعازف والطنابير وعلى قدر ذلك كانت تخرج جوائزهم وصلاتهم ، وإذا أجاد أحد المغنين والموسيقيين الأداء أمر الخليفة بترقيته إلى المرتبة التي تعلو مرتبته فرقى الرشيد برصوما الزامر من الطبقة الثانية إلى الطبقة الأولى بعد أن أطرب الرشيد(٢) .

ومن أبرز ندماء الرشيد الشاعر أبو العتاهيه ، كان لا يفارق الرشيد في سفر ولا حضر ، إلا في طريق الحج ، وكان يجرى عليه في كل سنة خمسين ألف درهم سوى الجوائز والصلات ، وقد أعجب بشعره اللطيف المعانى السهل الألفاظ ، القليل التكلف ، وكثر شعره في الزهد والأمثال(٣)

ولا أوافق الأستاذ أحمد أمين فيما ذهب إليه (٤) من أن ازدياد ونفوذ الفرس في عهد الرشيد ، وما عرف عنهم من ميل إلى اللهو والسرور ، نشروا مع نفوذهم حياة الأكاسرة وما كان فيها من حضارة ولهو وعبث ، لأن

---

(١) ابن قتيبة : الأمامة والسياسة جـ١ ص٢٩٧
(٢) الجاحظ : التاج ص٤١
(٣) الأصفهاني : الأغاني جـ١٠ ص٦٣
(٤) ضحى الإسلام جـ١ ص١١٩

الغناء كان منتشراً قبل عهد الرشيد فى بغداد ، وفى دمشق إبان الحكم الأموى[١] ، حقيقة بلغ الترف والنعيم فى بغداد فى عهد الرشيد أقصاه ، إلا أن الفضل فى ذلك يرجع إلى ما بلغته الدولة العباسية من سعة وغنى واستقرار ، ومساهمة عناصر السكان على اختلاف أجناسهم فى ازدهار الحياة العامه[٢]

وكان الأمين لا يحتجب عن الندماء ، ويجزل عليهم العطايا ، ويقضى جل أوقاته فى الاستمتاع بضروب اللهو ، وعلى الرغم من أن أخباره وضع أكثرها فى عهد المأمون للإساءة إليه ، والحط من قدره ، فإننا لا نستطيع أن ننكر ميله إلى اللهو ، يؤيد ذلك ما ذكره الطبرى[٣] من أن الأمين لما ولى الخلافة وجه إلى جميع البلدان فى طلب الملهين ، وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ، كما أمر ببناء مجالس لمتنزهاته ، ومواضع لهوه وخلوته بقصر الخلد وقصور اللهو ، واقتنى الوحوش والسباع والطيور وأنفق أموالا طائلة فى بناء سفن على شكل بعض الحيوانات ، كالأسد والفيل والعقاب وغير ذلك ، وقسم ما فى بيوت الأموال من الجوهر على جلسائه ومحدثيه[٤] .

كانت شخصية المأمون تخالف شخصية الأمين ، فقد عرف المأمون منذ حداثته بالجد والحرص على طلب العلم والتفقه فيه حتى أصبح حجة فى المسائل العلمية والفلسفية ، ولما قدم بغداد ظل بها ما يقرب من عشرين شهراً لا يستمع إلى الغناء ، ثم سمعه من وراء ستار متشبها بالرشيد، واستمر كذلك سبع سنين ثم ظهر للمغنين والملهين[٥] .

---

(١) انظر الكتاب الباب الثالث من القسم الأول .

(٢) Gohn Glubb ; The Empire of the Arabs. p. 279

(٣) تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٨ هـ

(٤) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص١٠٨

(٥) الجاحظ : التاج ص٤٣

ويجدر بنا أن نشير هنا إلى أشهر المغنين فى بغداد فى العصر العباسى الأول . وذكرنا أن ابراهيم الموصلى كان من المقربين إلى الرشيد لبراعته فى الغناء ، وأصله فارسى ، تعلم الغناء فى الموصل ، ثم صار إلى الرى ، وتعلم فيها أيضا ، وتعلم الغناء العربى والفارسى ، وأعجب به كثير من الناس ، والتفوا حوله حتى أن الرشيد قال : ما أعرف أحدا أكثر أصدقاء من إبراهيم[1] يصنع فيحسن ، وكان بمنزلة خطيب أو شاعر أو كاتب يتقن مهنته ، فضلا عن أنه كان شاعرا وأديباً حتى قيل إن إبراهيم بستان فيه جميع الثمار والرياحين[2] .

ولم يكن الناس يعلمون الجوارى الغناء ، وأول من علمهن إبراهيم فإنه بلغ بالقيان كل مبلغ ، ورفع من أقدارهن ، وكان يضع اللحن ، ويكرره لتستوى له أجزاؤه ، وجواريه يضربن عليه ، صنع إبراهيم الموصلى تسعمائة لحن ، تفوق فى ثلاثمائة منها على جميع الموسيقيين المعاصرين والسابقين عليه (٣) .

لما ولى الرشيد الخلافة وجلس بعد فراغه من إحكام الأمور ، دخل عليه المغنون ، وأول من غناه إبراهيم الموصلى ، فشغف به ، وكان الرشيد يعقد مجالس المغنين ، ويطلب منهم أن يبرز كل واحد منهم ألحانه ، وفضل إبراهيم الموصلى على غيره ، وبلغ من محبته لأغانيه ، أنه كان يذهب إليه فى منزله ، ويطلب منه أن يغنيه من ألحانه[4] وكان لكل واحد من المغنين مذهب فى الألحان التى يختارها لأغانيه ، ولم يكن أحد يتصرف فى مذاهب الأغانى مثل إبراهيم الموصلى وأبنه إسحاق وترك إبراهيم الموصلى

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ٥ ص١٦٩
(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد جـ٤ ص١٠٨
(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ٥ ص١٨٧
(٤) المصدر السابق جـ٥ ص٢٣٠

بعد وفاته ثروة قدرت بأربعة وعشرين ألف ألف درهم سوى أرزاقه الجارية وهى عشرة آلاف درهم وسوى غلات ضياعه(١) .

كذلك اشتهر فى الغناء فى بغداد إسحاق بن إبراهيم الموصلى والرشيد شغف به لأنه كان على جانب كبير من المقدرة العلمية والأدبية والرواية ، وكان شاعرا مجيدا ، وعلى ذلك نقول إنه لم يكن مغنياً بارعا فحسب بل عالماً وأديباً وشاعرا ، ويذكر صاحب كتاب الأغانى أن إسحق لم يكن له نظير فى الغناء ، فإنه لحق من مضى فيه، وسبق من بقى ، فهو إمام أهل صناعته جميعاً ورأسهم ومعلمهم ، يعرف ذلك عنه الخاص والعام ، وكان إسحاق الموصلى يحدث الرشيد بأحاديث القيان والمغنين تارة وبأخبار العرب وأيامها تارة أخرى ، ويتفوق على غيره من المغنين فى مجالس الغناء(٢) .

كان إسحاق رغم تفوقه فى الغناء لايحب أن يوصف بأنه مغن وبلغ من تقدير الخليفة المأمون له أن قال . لولا ماسبق على ألسنة الناس وشهر به عندهم من الغناء لوليته القضاء، فإنه أولى به وأحق ، وقد روى الحديث ولقى أهله مثل مالك بن أنس ، وهو الذى صحح أجناس الغناء وطرقه ، وميزه تمييزا لم يقدر عليه أحد قبله ، ولا تعلق به أحد بعده ، وصنف كتابا فى الألحان رتب فيه جميع طرقه والأجناس ، وجمع الغناء القديم وألحق به الغناء الحديث إلى آخر أيامه بما فى ذلك أقوال العلماء الأقدمين من اليونان مثل أقليدس وغيره من أهل العلم بالموسيقى ، وتفهم ما أفنوا فى بحثه الأيام والليالى ومن أقوال إسحاق فى الغناء :إن الإيقاع من الغناء بمنزلة العروض من الشعر ، « والمغنى الحاذق من تمكن من أنفاسه ، وتلطف فى اختلاسه وتفرع فى أجناسه(٣) .

---

(١) المصدر السابق جـ٥ ص١٦٤

(٢) الأصفهانى : الأغانى جـ٥ ص٢٦٧ — ٢٦٩

(٣) ابن خرداذبه · مختارات من كتاب اللهو والملاهى ص٥٥

وكان الخليفة الواثق من أكثر العلماء تقديرا لاسحاق ، وكان إذا صنع شيئاً من الألحان عرضه على إسحاق فيصلحه . وقال إسحاق : ما وصلني أحد بمثل ما وصلني به الواثق(١) ، وبلغ من تقدير الواثق لاسحاق أنه قال : ما غناني إسحاق قط إلا ظننت أنه قد زيد في ملكي(٢) وكان الواثق أعلم الخلفاء بالغناء ، وصنع مائة لحن ، وهو أحذق من غنى بضرب العود(٣) .

ومما لاشك فيه أن إسحاق الموصلي لم يبلغ ما بلغه من اتقان للغناء إلا بفضل دراسته لهذا الفن دراسة واعية ، فقد تتلمذ على أبيه ، وعلى منصور زلزل - المغني المشهور - وأنفق على تعليمه مائة ألف درهم(٤) . ونبغ في الغناء - كما ذكرنا - ، وبمجالس المنادمة فكان « لايمل جليسه مجلسه ، ولا تمج الآذان حديثه ، إن حدثك ألهاك وإن ناظرك أفادك ، وإن غناك أطربك » .

تتلمذ في مدرسة إبراهيم وإسحاق الموصلي الموسيقية كثير من هواة الغناء ، نخص بالذكر منهم علويه ، كان مغنياً حاذقا صانعاً متقنا ، برع في الغناء ، وغنى للأمين ، وعرفت ألحانه بالجودة وحسن السبك(٥) .

وكذلك نبغ محمد الزف ، وكان إسحاق الموصلي يرفع من قدره ويبرزه في مجالس الخلفاء(٦) .

كذلك حرص كبار رجال الدولة على عقد مجالس الغناء ، وتقريب المغنين لهم أسوة بالخلفاء ، فكان جعفر بن يحيى البرمكي - وزير الرشيد - له ظرف وأدب وحسن غناء وضرب بالطبل ، وكان يأخذ بأجزل حظ

---

(١) المصدر السابق ج٩ ص٢٨٢
(٢) المصدر السابق ج٥ ص٢٨١
(٣) المصدر السابق ج٩ ص٢٩٣
(٤) المصدر السابق ج٥ ص٢٦٩
(٥) الأصفهاني : الأغاني ج١٤ ص١٧٨
(٦) ابن خرداذبه : مختارات من كتاب اللهو والملاهي ص٥٥

من كل فن من الأدب ، ويأمر الجوارى بالمثول بين يديه فى الغناء ، ويغنى فى مجالس لهوه وطربه[1] . وجعفر من ندماء الرشيد ، وكان أبوه ينهاه عن منادمته ، ويأمره بترك الأنس به ، لأنه كان لا يأمن أن ترجع العاقبة عليه منه[2] .

بلغ الشغف بالغناء فى بغداد حداً جعل العمل به لا يقتصر على عامة الناس بل تجاوزه إلى أمراء البيت العباسى ، وكان أولهم وأتقنهم صنعة فى الغناء إبراهيم بن المهدى ، فإنه كان لايستتر منه ، وفى أول أمره كان يغنى من وراء ستار إلا إذا جلس مع الرشيد والأمين من بعده فى خلوه ، ولما أمنه المأمون ظهر بالغناء ، وكان من أعلم الناس بالنغم والوتر والإيقاعات وأطبعهم بالغناء وأحسنهم صوتاً ، وهو من المعدودين فى طيب الصوت خاصة ، وأصبح الناس ينقسمون فى الغناء طائفتين، فمن كان منهم على مذهب اسحاق وأصحابه يفضل الغناء القديم ويعظم الإقدام عليه[3] ومن اعتز بمذهب ابراهيم بن المهدى مثل مخارق إنما يغنى الغناء الجديد[4] . وكان أديباً شاعراً راوية للشعر وأيام العرب فصيحاً ، فكان يغنى طربا لا تكسبا ، ويغنى لنفسه لا للناس . وقد شغف به الناس فى بغداد حتى قال بعضهم : لم ير فى جاهلية ولا إسلام أحسن غناءاً من ابراهيم بن المهدى[5] وكان يحتفظ بدفاتر للغناء[6] وتجلت مقدرة ابراهيم فى مجالس الخلفاء ، ففى مجلس المأمون والمعتصم يغنى المغنون ، ويغنى هو ، فإذا ابتـــدأ

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ٥ ص٤٠٧
(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٩٣ هـ
(٣) الأصفهانى : الأغانى جـ١٠ ص١١١
(٤) الأصفهانى : الأغانى جـ٦ ص١٧٥
(٥) المصدر السابق جـ١١ ص١٢٦
(٦) المصدر السابق جـ١١ ص١٤٠

لم يبق من الغلمان وخدم القصر وأصحاب الصناعات والمهن الصغار والكبار أحد إلا ترك ما في يده ، وقرب من أقرب موضع يمكنه أن يسمعه ، فلا يزال مصغياً إليه لاهياً عما كان فيه ما دام يغني حتى إذا أمسك وتغنى غيره رجعوا إلى التشاغل بما كانوا فيه(١) .

وكان صالح بن الرشيد يحتفظ بدفاتر للغناء ، ويطرحها على جواريه وغلمانه لغناء ما يستجيده منها(٢) أما أبو عيسى الرشيد فكان من أحسن الناس غناء وقيل انتهى جمال ولد الخلافة إلى أولاد الرشيد ، ومن أولاد الرشيد إلى محمد وأبي عيسى . وكان أبو عيسى إذا عزم على الركوب جلس الناس له حتى يروه أكثر مما يجلسون للخلفاء(٣) . وكان عبد الله ابن موسى الهادي من أضرب الناس بالعود وأحسنهم غناءاً(٤) .

واشتهر في الغناء بعض أميرات البيت العباسي مثل عليه بنت المهدي ، وأمها أم ولد مغنية . وكانت من أحسن الناس وأظرفهم ، تقول الشعر الجيد وتلحنه أحسن تلحين ، وبلغ من ولعها بالشعر أنها كانت تراسل من تختصه بالأشعار(٥) .

كذلك ظهر مغنون من كبار البيوتات في بغداد ، فقد كان عبد الله بن العباس بن الفضل بن الربيع مغنيا ماهراً وماجنا يعيش عيشة لهو وخلاعة(٦) .

وعلى الرغم من انتشار الغناء في بغداد في مجالس الخلفاء والأمراء

---

(١) المصدر السابق ج١١ ص١٦٢
(٢) المصدر السابق ج٧ ص١٠٦
(٣) المصدر السابق ج١٠ ص١٨٧
(٤) المصدر السابق ج١٠ ص١٩٤
(٥) المصدر السابق ج١١ ص١٦٢
(٦) الأصفهاني : الأغاني ج١٠ ص ١٩٤

ورجال الدولة وسائر الأهلين إلا أنه لقي معارضة من العناصر المحافظة وخصوصا أصحاب الطيالس من رجال الدين ، بل إن الخلفاء المحبين للهو ، كرهوا أن ينشأ أبناؤهم على محبته ، فالخليفة المهدى عاقب ابن جامع والحرانى — المغنين — لانقطاعهما إلى ولى عهده الهادى ، ولما ولى هذا الخليفة استدعى إليه ابن جامع ، وضمه إلى مجلس منادمته(١) .

وظهر ندماء انقطعوا لبعض الأسر الكبيرة مثل الفضل الرقاشي الذى اقتصر على انشاد البرامكة الشعر دون غيرهم ، وكانوا يفضلونه على سائر الشعراء ، ويروون أولادهم أشعاره ، ويدونونها تعصبا له ، وحفظا لخدمته ، وتنويها بإسمه ، وتشجيعا له على الاستمرار فى نشاطه فحفظ ذلك لهم ، فلما نكبوا صار إليهم فى حبسهم ، وأقام معهم بقية أيامهم ينشدهم ويسامرهم ، ثم رثاهم فأكثر فى الإشادة بمحاسنهم وجودهم ومآثرهم ، فأذاع منها ما كان مستوراً(٢) .

ولقد رأينا أن الجوارى فى بغداد اشتغلن بالغناء ، وبرز منهن كثيرات مثل عاتكة ، وبلغ من شهرتها وحسن غنائها أن المغنين فى مجلس الرشيد كانوا يغنون من ألحانها ، وكانت عاتكة تتقن الضرب بالعود ، ومن أحسن المغنيات غناءاً وأروجهم ، وكان مخارق مملوكا لعاتكة ، وهى علمته الغناء ، ودربته على استعمال العود ثم باعته ، فانتقل من رجل إلى رجل حتى صار إلى الرشيد وكان حسن الأداء طيب الصوت(٣) .

وكانت متيم صفراء مولدة من مولدات البصرة ، وبها نشأت وتأدبت وغنت ، وأخذت عن اسحاق الموصلى وعن أبيه وعن المغنية المشهورة

---

(١) الأصفهانى : الأغانى جـ٦ ص٢٩٢

(٢) المصدر السابق جـ٦ ص٢٤٥

(٣) المصدر السابق جـ٦ ص٢٦٠ — ٢٦٢

بزل ، وبلغ من شهرتها بالغناء أن الخليفة المأمون كان يبعث اليها فتجيئه وتغنيه ، فلما انتقل الخليفة المعتصم إلى سامرا أرسل إليها ، وأنزلها فى دار سميت الدمشتى ، ولكنها كانت ترفض الابتعاد عن بغداد طويلا ، فكانت تستأذنه فى الذهاب إلى بغداد فيأذن لها ، وتقضى بمدينة السلام بعض الوقت ثم تعود إلى سامرا(١) .

من هذا نرى أن الموسيقى والغناء انتشرا فى بغداد انتشاراً واسعا وأقبل كثير من الناس عليهما من طبقات مختلفة حتى أن شعر الشعراء كان إلا النزر اليسير ، داعرا ، ولم يقاس أهل بغداد من البؤس والشقاء إلا إبان الفتنة بين الأمين(٢) والمأمون .

اهتم الخلفاء العباسيون بعقد مجالس الغناء بمظاهر البذخ والروعة فيتخذ الخليفة مجلسه فى صدر الإيوان فى القصر وبين يديه الحرس فى أثواب زاهية ، ويقف حوله عن يمين ويسار كبار رجال الدولة وكثيراً ما كانت الأميرات وسيدات الطبقة الراقية فى بغداد يشتركن فى حفلات موسيقية خاصة ، وأحيانا يحضر نساء قصر الخلافة مجلس غناء الخليفة . وفى هذه الحالة يجلسن خلف الستارة(٣) وكان مجلس الرشيد فى بعض الأحيان يضم ألف جارية فى أحسن زى من كل نوع من أنواع الثياب ، يتخذن الحلى والجواهر(٤) .

كذلك عنى كبار رجال الدولة وسائر أفراد الشعب بعقد مجالس للطرب والغناء ، وبعض هذه المجالس يعقد فى الحدائق والبساتين يجتمع فيها أهل

الطرب ، ويقضى الناس وقتا ممتعا . بل كان الملاحون يغنون فى الزلالات ؛ وأعجب الرشيد بغنائهم ، وأمر الشعراء بأن يقولوا شعراً يغنيه هؤلاء الملاحون[١] وبالجملة كانت أيام الرشيد من حسنها كأنها أعراس . وكان الأمين يعقد مجالس غنائه فى قبة اتخذ لها فراشا مبطنا بأبدع الحرير والديباج المنسوج بالذهب[٢] .

قلنا إن حياة الناس فى بغداد فى الفتنة التى حدثت بين الأمين والمأمون قد عمها البؤس والشقاء حتى خربت الديار ، وعفت الآثار ، وارتفعت الأسعار ، وقاتل الأخ أخاه والإبن أباه وهدمت المنازل ، وأحرقت الديار وانتهبت الأموال ، فلما عادت السكينة ، وعم الأمن والسلام ربوع بغداد ، شعر الناس أنهم فى حاجة أن يعوضوا مافقدوا ، فلهـوا ، وأفرطوا فى اللهو والطرب .

وقد لعب المال دوراً كبيراً فى ازدهار الفنون فى بغداد ، فتنوعت مصادر الثروة ، والمال خير وسيلة لازدهار اللهو ويسير جنباً إلى جنب مع الترف ، فيكون الترف حيث يكون المال وكل نابغ فى فن أو مذهب ، يذهب إلى بغداد لعرض شعره أو غنائه ، فقصدها أناس كثيرون من بلدان مختلفة من بلاد الفرس وبلاد الهند والروم وغيرهم . ومن هؤلاء كثيرون نبغوا فى مجالات مختلفة فى اللهو والغناء ، ووجدوا الحياة فى بغداد حقلا خصبا تبرز فيه مواهبهم ، ويقدرون فنهم أحسن تقدير ، فعرضت كل أمة فنها وأنواع حضارتها فكان فى ذلك معرض عام ، وأخذ أهل بغداد من كل لون

من ألوان الفنون بحظ وافر ، وأخذت البلاد الأخرى تقتبس الفن من بغداد (١).

على أن ماتحدثنا عنه من شغف أهل بغداد باللهو والمجون لايمنع من ابراز حقيقة ، أن هذا اللهو لم يكن إلا جانبا من حياة الناس فقط المعقدة ، حقيقة كثر الغناء والطرب في بغداد لكن الناس جميعاً لم يكن كلهم يحيون هذه الحياة . لايغيب عن أذهاننا أن الأخبار التي أوردها صاحب كتاب الأغاني في كتابه لاتخلو من مبالغة ظاهرة ليكتسب من وراء أخباره مالا أو جاها أو تشويقاً لسامعيه . وكان هناك تفاوت كبير بين طبقات الناس ، لذلك انقسم السكان في بغداد إلى فريقين ، فرقة يتمثل فيها نزعة اللهو ، وفرقة تفضل الزهد ، ويمثل الأولى أبو نواس ، والثانية أبو العتاهية ، ذلك أن قوماً يئسوا من الغنى ورأوا أن نفوسهم لاتطاوعهم في القرب من ذوى الجاه ، أو حاولوا ذلك وفشلوا ، فلجأوا إلى القناعة يروضون أنفسهم عليها ، وكثيرون زهدوا تدينا(٢).

على كل حال أدى الإفراط في اللهو إلى ظهور عناصر مفسدة للاخلاق في بغداد ، ذلك أن فساق الحربية والشطار الذين كانوا ببغداد والكرخ آذوا الناس إيذاءاً شديداً ، وأظهروا الفسق وقطع الطريق ، وأخذوا النساء والغلمان علانية من الطرق فكانوا يختطفون الطفل من أبيه ولايردوه إليه إلا إذا أدى لهم كثيراً من المال . وكانوا يجتمعون فيأتون القرى ويرهبون أهلها ، ويأخذون مااستطاعوا من ممتلكاتهم لاسلطان يمنعهم ولايقدر على ذلك ، لأن أمير بغداد ، كان يعتز بهم ، وكانوا بطانته ، ولايمنعهم من فسق يرتكبونه ، وكان الناس منهم في بلاء عظيم ، وازداد نهبهم لقرى بغداد .

---

(١) أحمد أمين . ضحى الإسلام ج١ ص١٢٥

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج١ ص١٢٥ — ١٢٦

ولم يستجب أمير بغداد لنداء أهلها بحمايتهم ، وظلت الفوضى سائدة ببغداد لذلك لم يكن هناك بد من أن يعتمد أهل بغداد على أنفسهم فى حماية ممتلكاتهم ونسائهم وأبنائهم ، فقام صلحاء كل ربض وكل درب ، وتدارسوا وسائل القضاء على المفسدين ، ونهض نفر منهم يدعو الناس إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والعمل بكتاب الله وسنة رسوله ، وتزعم هذه الحركة سهل بن سلامة الأنصارى الذى علق مصحفاً فى عنقه ، واجتمع حوله الناس ، وبايعوه على ما اعتزم عليه ، وطاف ببغـــداد وأسواقها وأرباضها وطرقها يتصدى للشطار ، ويقاتل المفسدين(١).

نخلص من ذلك إلى القول بأن الحياة فى بغداد لم تكن كلها مجون ولهو كما يصور ذلك بعض الأدباء ، بل كان اللهو والطرب جانباً من جوانب الحياة الإجتماعية ، وعرف طريقه فى قصور الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة وفى بيوت تجار الرقيق والقيان وغير ذلك ، وكره فريق من أهل بغداد هذا النوع من الحياة واستنكروه ، وعكفوا على المساجد يقضون فيها أوقات فراغهم حيث يستمعون إلى الفقهاء ورجال العلم ، ويستفيدون منهم ، وفريق من الناس زهد فى الدنيا والحياة المترفه التى نعم بها الكثير من البغداديين ، ولا يغيب عن الأذهان أن طبقة رجال الدين والأدب كانت تأتى فى المحل الأول من الأهمية والإعتبار قبل طبقة المغنيين والموسيقيين ، ومن ثم نظر الناس إلى رجال الدين والأدب نظرة تختلف كل الإختلاف عن نظرتهم إلى أهل اللهو والطرب ، بل نرى بعض الفقهاء يتجنب الحديث مع الموسيقيين والمغنيين ، ويتحرج منهم ، واسحاق الموصلى يكره أن يوصف بأنه مغنى .

وبهذه المناسبة نذكر أن بعض الكتاب قد أفرط فى وصف حياة

---

(١) الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢٠١

الرشيد كانت فى معظمها لهو وطرب ، وهؤلاء الكتاب إعتمدوا فيما كتبوه على كتب الأدب التى لا تخلو من مبالغة - كما ذكرنا - ذلك أن الرشيد كان يغزو سنه ويحج سنه فى الغالب ، ويقود الجيوش للقضاء على الفتن الداخلية وكان رجلا عملياً فى حياته ، وأبعد ما يكون عن الاستهتار ، بدليل أنه لم يقبل أن يبقى مسلوب السلطة ، وأمور الدولة فى أيدى البرامكة ، لذا نراه ينكل بهم ويسترد سلطانه . ولو كان - كما صوره بعض الكتاب - لعكف على اللهو والطرب - تاركا أمور الدولة فى أيدى البرامكة . ولم تكن حياة اللهو والطرب سوى جانبا من حياة الرشيد ، ولم تحل بينه وبين تأدية مهماته وأعبائه .

على كل حال تطوع بعض الرجال فى بغداد للقضاء على المفاسد ، فأمروا الناس بالمعروف ، ونهوهم عن المنكر ، فسالم بن سالم البلخى لم يخش فى دعوته أحد ، حتى أنه أنكر على الرشيد وشنع عليه ، فحبسه وقيده(١) كذلك نقم أسد بن يزيد على الأمين لعبه وتهاونه فى أمر الرعية ، وارتكابه للصيد وغيره فى هذا الوقت(٢)

* * *

وينبغى أن نشير هنا إلى أن المنصور - مؤسس الدولة العباسية لم يهتم بمجالس اللهو والطرب لأن شغله الشاغل انحصر فى توطيد الأمن والنظام فى ربوع دولته ، فكان فى أول النهار يتصدى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والولايات والعزل والنظر فى مصالح العامه ، فإذا صلى الظهر دخل منزله واستراح إلى العصر ، فإذا صلاه جلس لأهل بيته ، ونظر فى مصالحهم الخاصة ، فإذا صلى العشاء نظر فى الكتب والرسائل الواردة من الآفاق ، وجلس عنده من يسامره إلى ثلث الليل ، ثم يقوم إلى أهله فينام

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١ ص١٥٦

(٢) المصدر السابق ج١٠ ص ٢٣٥

فى فراشه إلى الثلث الأخير ، ليقوم فى وضوئه وصلاته حتى يتفجر الصباح ثم يخرج فيصلى بالناس ، ثم يدخل فيجلس فى إيوانه (١).

أما الرشيد فقد اجتمع له من الجد والهزل مالم يجتمع لغيره من بعده ؛ كان أبو يوسف قاضيه ، والبرامكة وزراءه ، وحاجبه الفضل بن الربيع من أنبه الناس وأشدهم تعاظما ، وشاعره مروان بن أبى حفصة ، ونديمه عمر ابن العباس ، ومغنيه إبراهيم الموصلى ، ومضحكه ابن أبى مريم ، وزامره برصوما ، وزوجته أم جعفر - زبيده - وكانت أرغب الناس فى كل خير وأسرعهم إلى كل بر ومعروف(٢) .

أما الأمين فكان ينفق على مجالسه أموالا جزيله ، وتفرش بأنواع الحرير ، والآنية من ذهب وفضة ، كان كثير الأدب فصيحاً يقول الشعر ، ويعطى عليه الجوائز الكثيره ، وكان شاعره أبو نواس ، وقد قال فيه مدائح حسانا ، وقد وجده مسجونا فى حبس الرشيد ، فأطلقه ، وأطلق له مالا ، وجعله من ندمائه(٣).

كان الناس يقضون أوقات فراغهم فى بغداد فى الاستماع إلى الحكايات القصيره والنوادر الهزلية والأحاديث التى تتجلى فيها اللباقة والذكاء وذلك فى المجالس الخاصة ، أما المجالس العامه فكان يجتمع فيها كثير من الناس يستمعون إلى القصاص يروى لهم الحكايات الطوال(٤).

ومن أحسن من حدث الرشيد ، ابن عطاء الليث ، صاحب أخبار وأسمار فضلا عن علمه بالأنساب ، وكان من أظرف الناس وأحلاهم(٥) .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١ ص ٢٢٥
(٢) المصدر السابق ج ١٠ ص ٢١٧
(٣) المصدر السابق ج ١٠ ص ٢٤٢
(٤) متز : الحضارة الإسلامية ج ٢ ص ٢٤٦
(٥) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص ٣٤٤

فأمر له المهدى بثلاثين ألف درهم ، وتوفى أبو دلامه سنة ١٦١ هـ(١)

ومن وسائل التسلية فى بغداد لعب الشطرنج . وقد أدخلها الرشيد وانتشرت هذه التسلية بين أهل بغداد ، وكان يلعبون بها على رقعة مربعة حمراء من أدم ، والرشيد أول خليفة لعب بالصولجان فى الميدان ، ورمى بالنشاب ، ولعب بالأكرة والطبطاب وقرب إليه الحذاق فى ذلك ، وقرب إليه هواة الشطرنج والنرد وأجرى عليهم الرزق ، فسمى الناس أيامه لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها أيام العروس(٢) .

ويذكر المسعودى(٣) أن الخليفة المأمون كان من هواة لعب الشطرنج وقد وجه اللوم إلى الذين يلعبون معه ، لأنهم كانوا يتوقرون بين يديه، وقال لهم : إن الشطرنج لا يلعب مع الهيبة .

كذلك انتشر لعب النرد فى بغداد ، ويلعب على رقعة بها اثنى عشر أو أربعة وعشرون منزلا بثلاثين حجر أو فصين . وشبه بعض الحكماء رقعة النرد بالأرض الممهدة لساكنيها ، ومنازل الرقعة وهى أربعة وعشرون بساعات الليل والنهار ، وحجارتها وهى ثلاثون بعدد أيام الشهر ، واختلاف ألوانها باختلاف بياض النهار وسواد الليل(٤) .

كان سباق الخيل من أجمل أنواع التسلية عند الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة فى بغداد فى العصر العباسى الأول ، وبلغ من شغفهم به وتقديرهم له أن للسابق كان يأخذ حصان المسبوق ، واشترط الفقهاء فى هذه الرياضة التى أباحوها ألا تلعب طلبا للمال . وتنافس هواة سباق الخيل بتربية خيل السباق . وجدير بالذكر أن الرشيد كان يسابق بالخيل فجاءه فرس يقال

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص٢٤٣

(٢) المسعودى : مروج الذهب ج٢ ص٥٥٥

(٣) مروج الذهب ج٢ ص٥٥٦

(٤) متز : الحضارة الإسلامية ج٢ ص٢٥٣

له المشمر سابقا ، والرشيد أعجبه ذلك الفرس ، فأمر الشعراء أن يقولوا فيه شعراً ، فقال أبو العتاهية (١) :

جاء المشمر والأفراس يقدمها – هونا على رسله منها وما انبهرا .

ومن وسائل التسلية الصيد ، وكان الخليفة المهدى شغوفا بالصيد ومطاردة الظباء ، وكان يقوم برحلات منظمة لهذا الغرض ، يصحبه فرسان يتقلدون السيوف ، ويتبعهم طائفة الجند والغلمان ويسير الخليفة محاذيا لنهر دجلة ارتياداً للخضرة التى تجنح اليها الطيور ، وتجذب إليها الغزلان ، وقد عنى غيره من الخلفاء والأمراء بالصيد حتى أنهم أخذوا يصنعون نصال سهامهم من الذهب كما عنوا باستخدام الصقر وغيره فى الصيد ، وحرصوا كذلك على تربية الكلاب السريعة العدو(٢) وكان الأمين يصارع الأسود ويخرج إلى الصيد ومعه أصحاب البابيد والحراب على البغال ، وهم الذين كانوا يصطادون السباع .

ووجد المتمسكون بتعاليم الدين والمعادين لمجالس اللهو والطرب فى الإمام أحمد بن حنبل ضالتهم المنشودة ، فالتفوا حوله واعتنقوا مذهبه ، ومن هنا ظهرت فى بغداد طائفة الحنابله التى اشتدت وطأتها على الناس ، فكسروا آلات الموسيقى ، وضيقوا الخناق على أهل الطرب واللهو والعابثين والخارجين على الدين وتجولوا فى شوارع بغداد يأمرون الناس بالمعروف وينهون عن المنكر .

(هـ) المرأة فى بغداد وأثرها فى المجتمع

شاع الحجاب بين نساء بغداد الحرائر ومع ذلك لم ينعزلن عن الحياة العامة ، بل شاركن فى أمورها بنصيب كبير . على أن الجوارى كان لهن

الأصفهانى : الأغانى جـ ١٠ ص٣١٢

(٢) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٢٤٦

نشاط ملموس فى الحياة الاجتماعية أكثر من الحرائر ، ذلك أن الناس حرصوا على حجاب الحرائر ، أما الجوارى فكان الحجاب لا يفرض عليهن ما لم ينجبن . وقد يتزوج الرجل والمرأة الحرة دون أن يراها ، وإذا أراد الرجل أن يستمع إلى الغناء أو يلهو يذهب إلى بيوت تجار الرقيق حيث القيان يقمن بالغناء له دون حرج .

لذلك كان من الطبيعى أن يلقن الأدباء والشعراء أدبهن وشعرهم للجوارى دون الحرائر . فلا عزو أن يحرص الرجال على تعليم الجوارى أكثر من حرصهم على تعليم الحرائر(١) .

وأدى اهتمام رجال بغداد بالجوارى إلى ظهور تنافس بين الحرائر والجوارى ، فكانت أم موسى الحميرية ـ زوجة المنصور ـ اشترطت عليه ألا يتخذ سرية ، وكتبت عليه بذلك كتاباً أكدت عليه فيه رغبتها هذه ، وأشهدت عليه الشهود والثقات المعتدلين .

على أن الحجاب الذى فرض على المرأة الحرة فى بغداد لم يمنعها من ممارسة النشاط فى الحياة العامة ، فكانت ابنة الخليفة المهدى تسير راكبة بين يديه على هيئة الجند(٢) .

ومن أبرز سيدات بغداد فى العصر الذى نكتب عنه :الخيزران زوجة الخليفة المهدى وأم الهادى والرشيد ، فقد أتيحت لها الفرصة لإظهار مواهبها وفرض إرادتها(٣) .

زاد نفوذ الخيزران فى بغداد ، وتدخلت فى أمور الدولة السياسية وشؤون الحكم ، وحرص المهدى على رفع مستواها الاجتماعى ، فأمرها بأن تلزم زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن العباس ، لتقتبس من

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ١ ص ٩٨ .

(٢) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٦٩ هـ .

John Glubb : The Empire of the Arabs . p. 265 .

آدابها ، وتأخذ من أخلاقها فهى على حد قول المهدى « عجوزلنا قد أدركت أوائلنا »(١) والواقع أنها كانت جليلة القدر مثقفة واسعة الاطلاع .

وكان الهادى كثير الطاعة لأمه الخيزران مجيب لها فيما تسأل عن حوائج الناس ، وموا كب ذوى الحاجات لا تخلو من بابها . على أن تدخلها فى شؤون الدولة واستبدادها بالأمر والنهى - كما كان حالها أيام المهدى أغضب الهادى ، فنهاها بقوله : « إنه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك » وأمرها بألا تستمع لذوى الحاجات ، وألا تأذن لأحد برفع مطلبه إليها ، ونصحها بالتفرغ . للصلاة والتسبيح(٢) .

على أن الخيزران لم تستجب لمطلب ابنها الهادى ، فاستمرت فى مزاولة نشاطها فى الحياة العامة ، فلما اعتزم الهادى خلع أخيه هارون من ولاية العهد ومبايعة أبنه بدلا منه ، تصدت له الخيزران ، وانضم إليها يحى بن خالد بن برمك فى دحض محاولة الهادى(٣) .

ظل نفوذ الخيزران فى عهد الرشيد على ما كان عليه فى عهد أخيه الهادى وأبيه المهدى ، فكان يحى بن خالد بن برمك - وزير الرشيد - ويأخذ برأيها وتوفيت فى عهد الرشيد ، وقدرت ثروتها يوم وفاتها بمائة ألف ألف وستين ألف ألف درهم ، ووجد فى منزلها من ثياب الوشى ١٨ ألف (٤)

من ذلك نرى أن الخليفة المهدى قد أتاح للمرأة فرصة إظهار مواهبها ، ولم يعزلها عن الحياة العامة ، ولا أدل على ذلك من أن ابنته عليه ذاعت شهرتها على اعتبار أنها من أرباب الفنون الرفيعة ، وزاد فى شهرتها ولعها بالشعر والغناء والأدب ، وبلغت فى الغناء درجة كبيرة من الاتقان ، بل

(١) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٤٨

(٢) الطبرى : تاريخ الامم والملوك ، حوادث سنة ١٧٠ هـ

(٣) الاغانى ج ٨ ص ٢٣٤

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٦٧ .

وضعت الحانا قيمه ، وكانت واسعة الاطلاع ، ومن أحسن النساء وأظرفهن، ومما شجعها على الغناء إقبال أخيها ابراهيم بن المهدى عليه ، وتوفيت سنة ٢١٠ هـ . وبلغ من تفوقها الأدبى أنها كانت تراسل بالشعر(١). واشتغال هذه السيدة بالغناء دليل على أن المرأة كانت تتاح لها مواهبها الأدبية والفنية .

ومن أشهر نساء بغداد فى العصر العباسى الأول السيدة زبيده أم جعفر - زوجة الرشيد - ساهمت مع زوجها مساهمة كبيرة فى إصلاح أحوال البلاد، وتخفيف أعباء الحياة عن الأهلين، ومن أفضالها أنها سقت أهل مكة المكرمة الماء ، بعد أن كانت القربة من الماء عندهم بدينار ، فأسالت الماء عشرة أميال من المرتفعات القريبة من مكة حتى نقلته من الحل إلى الحرم ، وكان لها بجوار الكعبة دار عرفت باسمها ، وقامت بإصلاحات جليلة فى المدينة المنورة ، ومهدت طريق الحج بين بغداد ومكة ، وأقامت البرك والآبار والمنازل ، ولولا أصلاحاتها الجليلة لتعذر المسير فى هذا الطريق(٢) .

وعرف عنها الخير والفضل على أهل العلم والبر بالفقراء والمساكين وحرصت على تربية أولادها وجواريها تربية دينية ، فكان لها مائة جارية يحفظن القرآن ، ولكل واحدة ورد عشر القرآن ، ويسمع فى قصرها كدوى النحل من قراءة القرآن(٣) .

لعبت السيده زبيده أم جعفر دوراً كبيراً فى تطور الحياة السياسية فى بغداد فيذكر المسعودى(٤) أنها ما زالت بالرشيد حتى أقنعته بأخذ البيعه

(١) الأصفهانى : الاغانى ج ١٠ ص ١٦٢
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٥٥٦
(٣) ابن خلكان · وفيات الأعيان ج ٢ ص ٧٠
(٤) مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨

لابنها الأمين قبل المأمون على الرغم من أن المأمون أكبر سنا من الأمين ، فوافق الرشيد وهو يعلم أن المأمون أكثر كفاءة من المأمون ، بدليل أن الرشيد قال لها : ليس ابنك أهلا للخلافة ولا يصلح للرعايا(١) .

ولما ولى الأمين الخلافة ، ونشبت الفتنة بينه وبين أخيه المأمون شجعت السيده زبيده أم جعفر قواد بغـــداد على الدفاع عن الحاضرة الإسلامية الكبرى ، وقهر المأمون . فدفعت إلى على بن عيسى بن ماهان - قائد جيش الأمين - بقيد ، وطلبت منه أن يقيد المأمون به ، ولكن لا يعنف عليه فى السير حتى ولو أساء إليه(٢) .

وكانت تحيا حياة مترفه فى قصرها المنيف ، وتمتلك ثروة ضخمة وهى أول من اتخذ الآله من الذهب والفضه المكالة بالجوهر وصنعت لها ثياب من الوشى بلغ ثمن الثوب منه خمسين ألف دينار ، واتخذت الخدم والجوارى يذهبون على الدواب فى حوائجها ، وهى أول من اتخـذ القباب من الفضة والأبنوس والصندل واتخذت الخفاف المرصعة بالجوهر واتخذت شمـــع العنبر ، وتشبه الناس فى سائر أفعالهم بها(٣)

ولما قتل الأمين وولى المأمون الخلافة تضاءل نفوذ أم جعفر لأن المأمون لم يغفر موقفها منه فى ولاية العهد ، فى الفتنة التى حدثت بينه وبين أخيـه الأمين ، وظلت مقيدة الحركة حتى تزوج المأمون من بوران ، وكان لا يرد لها طلبا ، فسألته العفو عن ابراهيم بن المهدى والاذن للسيدة زبيده أم جعفر بالحج . فوافق على ذلك(٤) .

ولم تكن السيده بوران وحدها صاحبة النفوذ فى عهد المأمون بل كانت

---

(١) ابن قتيبه : الإمامة والسياسة ج ٢ ص ٣٢٤
(٢) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٢٧٨
(٣) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٥٥٦
(٤) ابن الساعى : نساء الخلفاء ص ٧٠

السيده زينب بنت سليمان بن على بن عبد الله بن العباس ـ التى سبقت الإشارة إليها ـ فتمتع بنفوذ كبير ، وكان بنو العباس يعظمونها وإليها ينسب الزينبيون ولا أدل على قوة تأثيرها من أن بنى العباس طلبوا منها أن تطلب من المأمون ترك لباس الخضرة ، والعودة إلى لبس السواد ـ شعار العباسيين ـ فقالت له : يا أمير المؤمنين ما الذى دعاك إلى نقل الخلافة من بيتك إلى بيت على . قال : يا عمه إنى رأيت عليا حين ولى الخلافة أحسن إلى بنى العباس، فولى عبد الله البصره وعبيد الله اليمن . وما رأيت أحداً من أهل بيتى حين أفضى الأمر إليهم كافأوه على فعله فى ولده ، فأحببت أن أكافئه على إحسانه . ثم سألته تغيير لباس الخضرة . فأجاب إلى ذلك ، وأمر الناس بتغييره ، والعودة إلى لباس السواد(١) .

وكانت عائشه بنت الرشيد من أفضل نساء عصرها تشجع الشعراء والأدباء ، وتجزل الصلاة لهم ، وكذلك عاليه بنت الرشيد كانت من الشعراء ومن ربات الرأى ، وعرف عنها الحزم ، لذلك كان أبوها يعتمد عليها فى مهام أموره ، ويفضى إليها بأسراره(٢) .

أما العباسة بنت المهدى فكانت سيدة أديبة فاضلة ، وكان الرشيد يشركها فى مجالسه مع وزيره جعفر بن يحيى البرمكى حينما ينظر فى الأمور الهامة لأنه ، يأنس برأيها ، ويطمئن إليها (٣)

ومن أسباب غزو المعتصم لعموريه أن الإمبراطور البيزنطى تيوفيل هاجم زبطره ونهبها ، وقتل من بها من الرجال وسبى الذرية والنساء وقيل إنه كان فى جملة السبى امرأة فسمعت وهى تقول : وامعتصماه فبلغ المعتصم ما فعله امبراطور الروم ، فكبر عليه ذلك وأنكره ، وبلغته ما قالته

(١) ابن طبا طبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٠٠

(٢) عمر كحالة : أعلام النساء ج ٣ ص ١٣٣ .

(٣) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ١٩٠

الهاشمية ، فقال وهو فى مجلسه : لبيك لبيك ، ونهض من ساعته ، وصاح فى قصره : الرحيل الرحيل ، وسار على رأس جيش كبير وهاجم عموريه ، ودمرها تدميرا (١) .

هـ — الأخـــلاق والعادات

عرفنا أن العناصر الرئيسية فى بغداد كانت العرب والفرس والترك ويغلب على كل عنصر من هذه العناصر عادات وصفات معينة ميزتهم عن غيرهم ، فكان العرب يميلون إلى البداوة ، ويتعصبون لبنى جنسهم وهم سريعوا التأثر بالحضارة ، فإذا تحضروا انغمسوا فى البذخ والترف . أما الفرس فقد ورثوا مدنية قديمة ، فعملوا على نقلها ، ولهم مقدرة إدارية كبيرة ومهارة فى إدارة الشؤون الاقتصادية وتنمية موارد الثروة ، وعنوا عناية شديدة بالحياة الثقافية ، فقاموا بدور كبير فى رواج الحياة العلمية فى بغداد ، لكنهم كانوا يميلون إلى إظهار نحلهم القديمة ، والإنتقام من العرب لما لحقهم منهم من سوء معاملة فى العهد الأموى ، وكانوا يميلون إلى التشيع : على أن الترك خالفوا الفرس فى الاهتمام بالحياة الثقافية بل كانوا أشبه بالبدو لأنهم لم يكونوا أهل مدنية وحضارة ، وقد أكسبتهم البداوة قوة فى البدن وخشونة فى الطبع والإعتداد بقوة الجسم وعرف عنهم الشجاعة وحب الفروسية (٢) ، ويسميهم الجاحظ أعراب العجم .

غلبت على أهل بغداد صفات الخلفاء ، والناس كما يقولون على دين ملوكهم ، فالمنصور أول خليفة قرب المنجمين ، وعمل بأحكام النجوم ، وقد نظر فى العلم ، وقرأ المذاهب ، وارتاض فى الآراء ووقف على النحل ،

---

(١) ابن طباطبا : الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢١٠

John Glubb : The Empire of the Arabs. p. 345.

(٢) محمد جمال الدين سرور — تاريخ الحضارة الإسلامية فى الشرق ص ١٩٣

وكتب الحديث ، فكثرت فى أيامه روايات الناس واتسعت عليهم علومهم (١)

وكان المهدى سمحاً كريماً جواداً ، فسلك الناس فى عصره سبيله وذهبوا فى أمرهم مذهبه ، حتى كان لا يسؤل أحد فى أيامه إلا وأعطى ، أما الهادى فأول من مشت الرجال بين يديه بالسيوف والقسى ، فسلك عماله طريقته ، وكثر السلاح فى عصره . (٢)

وكان الرشيد مواظباً على الحج متابعاً للغزو ، واتخاذ القصور وتمهيد الطرق فى طريق مكة فعم الناس إحسانه مع ما اقترن به من عدله واقتدت به رعيته فظهر الحق وخفق الباطل (٣) .

أما المأمون فكان أكثر الناس عفواً وأشدهم احتمالا وأحسنهم مقدرة، وأجودهم بالمال الرغيب وأبذلهم بالعطايا ، واتبعه وزراؤه وأصحابه فى فعله، وسلكوا سبيله وذهبوا مذهبه . (٤) على أن المعتصم غلب عليه حب الفروسية والتشبه بالملوك الأعاجم فى ملبسه ومظهره ، فاقتدى بفعله الناس، وعم الناس أفضاله ، وأمنت السبل فى أيامه ، وشمل الناس إحسانه(٥) .

ظهرت نزعة فى بغداد تدعو إلى الزهد ، وذلك أن بعض الناس يئسوا من الثراء وعفت نفوسهم عن التزلف والتقرب للأغنياء ، أو لم تمكنهم ظروفهم من ذلك ، وقوم خلصت نواياهم نحو الله واتجهوا إليه بكل ما استطاعوا ، وصفت نفوسهم ، ورأوا أن النفس إذا نالت ما أرادت انقادت إلى المعاصى ففضلوا التغلب عليها ، وقوم لجأوا إلى الزهد بعد أن

---

(١) المسعودى - مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٥٤
(٢) المصدر السابق جـ ٢ ص ٥٥٥
(٣) المسعودى - مروج الذهب جـ ٢ ص ٥٥٥
(٤) المصدر السابق جـ ٥٥٦
(٣) المصدر السابق ص ٥٥٧
(٥) أحمد أمين - ضحى الاسلام جـ ١ ص ١٣٥

فشلوا فى الحصول على المال والحياة وكثيراً زهدوا تقرباً إلى الله لأن الزهد يعصمهم من الوقوع فى المعاصى حتى قال محمد بن واسع : يعجبنى أن يصبح الرجل ، وليس له عشاء وهو مع ذلك راض عن الله ، صرفوا نفوسهم عن الشهوات ، وأكثروا من ذكر الموت والحياة الأخرة . وتعففوا عن محاولة طلب المال من ذويه ، وقنعوا بالقليل (١) ، وكان الشاعر أبو العتاهية يمثل نزعة الزهد فى بغداد ، وظهر ذلك جلياً فى أشعاره ، كقوله :

لا تأمن الموت فى طرف ولا نفس   إذا تسترت بالأبواب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة   لكل مدرع منا ومترس (٢)
ترجو النجاة ولم تسلك طريقتها   إن السفينة لا تجرى على اليبس

ودخل بعض الزهاد على المنصور فقال : إن الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك ببعضها ، واذكر ليلة تبيت فى القبر لم تبت قبلها ليلة . فأفحم المنصور قوله وأمر له بمال ، فرفض الزاهد صلة الخليفة ، وقال زاهد آخر للمنصور : إن هذا الأمر كان لمن قبلك ثم صار إليك ثم هو صائر لمن بعدك ، واذكر ليلة تسفر عن يوم القيامة .

وكان صالح بن بشير المرى أحد العباد الزهاد جلس إلى المهدى فوعظه حتى أبكاه ، ثم قال له : إعلم أن رسول الله خصم من خالفه فى أمته ومن كان محمد خصمه فالله خصمه ، فأعد لمخاصمة الله ومخاصمة رسوله حججاً تضمن لك النجاة ، وإلا فاستسلم للهلكة ، واعلم أن الله قاهر فوق عباده ، وأن أثبت الناس قدماً ، آخذهم بكتاب الله وسنة رسوله (٣) .

والإمام أحمد بن حنبل خير من مثل نزعة الزهد فى بغداد فكانت غلته

(١) الاصفهانى — كتاب الأغانى جـ٤ ص ١٠٦
(٢) ابن كثير — البداية والنهاية جـ١٠ ص ١٢٤
(٣) المصدر السابق جـ ١٠ ص ١٧٩

من ملك له فى كل شهر سبعة عشر درهما ينفقها على عياله ، ويقنع بذلك صابراً محتسباً ، ولم يزل كذلك حتى ولى المتوكل الخلافة ، فأرسل إليه عشرة آلاف درهم نفقة له ، ففرقها الإمام أحمد على المحتاجين من أهل الحديث ، وغيرهم من أهل بغداد والبصرة ، حتى لم يبق منها درهما . (١)

وروى عن الرشيد أنه طلب من الزاهد ابن السماك أن يعظه ، فقال له : اعلم أنك واقف بين يدى الله ربك ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لاثالثة لهما جنة أو نار ، فبكى الرشيد حتى اخضلت لحيته(٢) .

وقالوا عن الزاهد من لم يغلب الحرام صبره ولا الحلال شكره(٣) . وقال بعض الزهاد : يا ابن آدم بع دنياك بآخرتك تربحهما جميعاً ، وإذا ما رأيت الناس فى الخير فنافسهم فيه ، وإذا رأيتهم فى الشر فابتعد عنهم (٤).

ولم يقتصر الزهد على أفراد الشعب بل تعداه إلى بعض أمراء البيت العباسى ، فكان أحمد بن هارون الرشيد أميراً صالحاً ، ترك الدنيا فى حياة أبيه مع القدرة ، ولم يتعلق بشىء من أمورها ، وأبوه خليفة الدنيا وآثر الانقطاع والعزلة بل كان يتكسب من عمل يده بعمل يؤديه يوم السبت من كل أسبوع ، وينفق ما اكتسب فى احتياجاته بقية الأسبوع ، ويتفرغ للاشتغال بالعبادة وتوفى سنة ١٨٤ هـ .(٥).

وفى مقابل نزعة الزهد ظهرت نزعة أخرى فى بغداد تدعو إلى اللهو والمجون ، انغمس فيها المترفون من أهل بغداد ، وكان يمثل هذه النزعة بشار وأبو نواس . على أن الفترة التى قام فيها الأمين لم ينعم الناس فيهما بالحياة

---

(١) المصدر السابق جـ ١٠ ص ٣٣٨

(٢) الطبرى . تاريخ الامم والملوك حوادث سنة ١٩٣ هـ

(٣) الجاحظ . البيان والتبيين جـ ٣ ص ١٥٤ .

(٤) المصدر السابق جـ ٣ ص ١٣٢ .

(٥) ابن كثير . البداية والنهاية جـ١٠ ص ١٨٤ .

الآمنة بسبب الفتنة وحصار بغداد وأعمال التخريب والتدمير التي نجمت عن ذلك ، لذا حاول أهل المجون تعويض ما أصاب الحياة من بؤس وشقاء بعد تولية المأمون الخلافة ، واستقرار الدولة .

كان التنجيم شائعاً في بغداد في العصر العباسي الأول ، حتى أن الخليفة المنصور استشار المنجمين بشأن مشروعه في تأسيس مدينة بغداد ، فبشروه بعمرانها وطول بقائها ، وكان أول خليفة قرب المنجمين وعمل بأحكام النجوم[1] .

ويلغ من اعتقاد الخليفة المنصور بالتنجيم أن نوبخت - منجم المنصور - بشر المنصور أثناء الحرب بينه وبين إبراهيم بن الحسن العلوى. بأن إبراهيم يُقتل ، وتصادف وقوع هذا الحدث ، فأقطع المنصور منجمه ألفى جريب ، ويذكر صاحب كتاب البداية والنهاية أن هذا المنجم إن كان قد أصاب في قضية واحدة فقد أخطأ في أشياء كثيرة ، وقد كان المنصور في ضلال مع منجمه هذا ، وقد ورث الملوك اعتقاد أقوال المنجمين ، وذلك ضلال لا يجوز ، [2].

وكان يحيى بن خالد البرمكى من أعلم الناس بالنجوم[3] ، ولما خص الفضل بن سهل بالمأمون ، وتبين نجابته ودلته النجوم - طبقاً لما ذكره الجهشيارى[4] - على أنه يلي الخلافة لزم جانبه ، حتى صار أقرب الناس إليه ، فلما ولى المأمون الخلافة استوزر الفضل بن سهل ، وفوضه أمور دولته حتى غلب عليه [5] .

---

(١) المسعودى . مروج الذهب حـ٢ ص٥٥٤ .
(٢) ابن كثير . الوزراء والكتاب ص ٢٤٩ .
(٣) ابن كثير . البداية والنهاية حـ١٠ ص ٩٤ .
(٤) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٤٩ .
(٥) الوزراء والكتاب ص ٢٧٩ .
(٦) المصدر السابق ص ٢٨٠

وكانت احتفالات الزواج فى بغداد تتم فى شىء كثير من الأبهة والعظمة، فحينما تزوج الرشيد من السيدة زبيدة أعد لها صناديق الجوهر والحلى والتيجان والأكاليل وقباب الفضة والذهب والطيب والكسوة ، وأعطاها ثوباً منقطع النظير فى الفخامة ، وفى صدرها وظهرها قصبان ياقوت أحمر وباقيها من الدر الكبار الذى ليس مثله ، ودخل الرشيد بها فى قصره المعروف بالخلد سنة ١٦٥ ﻫ ، وأتاه الناس من الآفاق لتهنئته ، وفرق فيهم من الأموال شيئاً عظيما ، فكانت الدنانير تحمل فى كؤوس فضة والدراهم فى كؤوس ذهب ، والمسك والعنبر فى أوعية زجاج ، ويفرق ذلك على الناس ، ويخلع عليهم خلع الوشى المنسوجة ، وأوقد بين يديه فى تلك الليلة شمع العنبر ، وأحضر نساء بنى هاشم ، فكان يؤدى إلى كل واحدة منهن كيس فيه دنانير وكيس فيه دراهم وصينية كبيرة فضة فيها طيب ، ويخلع عليها خلع وشى ، وبلغت النفقة فى هذا العرس خمسين ألف ألف درهم(١) .

ولما دخل المأمون ببوران أمهرها بمائة ألف دينار وخمسة آلاف ألف درهم ، وفى احتفال العرس نثرت عليها جدتها ألف درة فى صينية ذهب ، فأمر المأمون أن تجمع ، فجمعها فى الطبق ، ووضعها فى حجر بوران ولبى جميع طلباتها ، وألبستها السيدة زبيدة قميصاً مرصعاً باللؤلؤ (٢) ، وأوقد فى تلك الليلة شمعة عنبر فيها أربعون مناً فى إناء ذهب ، وأقام المأمون عند الحسن بن سهل سبعة عشر يوماً يعد الحسن له فى كل يوم ولخاصته ما يحتاجون إليه ، وخلع الحسن على القواد على مراتبهم ، ووصلهم وكانت النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم وأمر المأمون بعد انصرافه أن يدفع للحسن عشرة آلاف دينار من مال فارس ، وأقطعه الصلح ، ففرق الحسن

---

(١) الشابشتى . الديارات ص ١٠٠ .

(٢) ابن طيفور : مناقب بغداد ص ١٠٢ .

الأموال على قواده وأصحابه وخدمه وحشمه ، ولما انحدر المأمون ناحية واسط فرش له حصير من ذهب ، ونثر عليه جوهر كثير ، فجعل بياض الدر يشرق على صفرة الذهب ، ولم يمسسه أحد ، فوجه الحسن إلى المأمون هذا النثار ، فدعا المأمون من حوله من بنات الخلفاء إلى أخذ هذا النثار ، فأخذت كل واحدة منهن درة ، وبقى من بقى من الدر على الحصير الذهب(١)،! ونثر الحسن فى ذلك من الأموال - كما يقول المسعودى (٢) - مالم ينثره ولم يفعله ملك قط فى جاهلية ولا إسلام ، وذلك أنه نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار ، فكانت البندقة إذا وقعت فى يد الرجل فتحها فقرأ ما فيها فيجد على قدر إقباله وسعوده فيها ، فيمضى إلى الوكيل الذى نصب لذلك ، فيقال له ضيعة يقال لها فلانة فى ناحية كذا وجارية يقال لها فلانة ، ودابة صفتها كذا ، ثم نثر بعد ذلك على الناس الدنانير والدراهم وبعض العنبر .وعاد المأمون إلى بغداد وأقام مع زوجته فى القصر الحسنى الذى كان لأبيها(٣) .

* * *

كان لباس العباسيين منذ قيام دولتهم اللون الأسود ، فلما ولى المأمون الخلافة ، أمر الناس بلبس اللون الأخضر ولم يكن أحد يدخل عليه إلا فى الخضرة ، على أن بنى هاشم عارضوا هذا العمل ، وقالوا له : يا أمير المؤمنين : تركت لباس أهل بيتك ودولتهم . ولبست الخضرة ، وتكلم فى ذلك قواد أهل خراسان والناس جميعاً . فاستجاب المأمون لهذه النداءات ، ودعا بخلعة سوداء ولبسها ، وكساها لطاهر بن الحسين ، وخلع على

---

(١) ابن الساعى . نساء الخلفاء ص ٦٧ — ٧٠ ،
(٢) مروج الذهب حـ ٢ ص ٢٤٤ — ٢٤٥
(٣) ابن طيفور . مناقب بغداد ص ١٠٢ .

عدد من قواده أقبية وقلانس سوداء ، فلما خرجوا من عنده مرتدين السواد طرح سائر القواد الخضرة ولبسوا السواد(١) .

كان المنصور يأمر أهل بيته بحسن الهيئة وإظهار النعمة وبلزوم الوشى والطيب ، فإن رأى أحداً لا يلتزم بذلك عاتبه ، وكان يشدد عليهم بضرورة الإكثار من الطيب(٢) وشابه المهدى أباه فى الحرص على حسن مظهر رجاله حتى أن سلم كان يأتى بابه على برذون قيمته عشرة آلاف درهم والسرج واللجام المزينين وعليه لباس الخز والوشى ورائحة المسك الغالية والطيب تفوح منه ، ويجىء مروان بن أبى حفصة - من رواد المهدى - إليه وعليه فرو كبش وقميص صوف وعمامة صوف وكساء غليظ(٣) .

ودخل العمانى الراجز على الرشيد لينشده شعراً وعليه قلنسوة طويلة ولباس بسيط ، فقال الرشيد : إياك أن تنشدنى إلا وعليك عمامة عظيمة الكور ، وخفان مستديران أملسان(٤) .

وفى سنة ١٤٩ هـ أخذ المنصور الناس بلبس القلانس الطوال المفرطة الطول كما أدخل الملابس المحلاة بالذهب ، وغدا خلعها على الناس من حق الخليفة ، وكان اللباس العادى للطبقة الراقية يشتمل على سروال فضفاض وقميص ودراعة وستر وقفطان وقباء وقلنسوة أما لباس العامة فيشمل على إزار وقيص ودراعة وستر طويلة وحزام وكان لباس الخليفة العباسى فى المواكب القباء الأسود أو البنفسجى الذى يصل إلى الركبة ، ومفتوح عند الرقبة بحيث يظهر القفطان زاهياً من تحته ، وأكمامه ضيقة حتى عهد المعتصم حيث جعلها فضفاضة ويتمنطق الخليفة بمنطقة مرصعة بالجواهر ، ويتخذ

---

(١) المصدر السابق ص ١٠
(٢) الطبرى . تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ١٥٨ هـ
(٣) الاصفهانى - كتاب الاغانى حـ ١٠ ص ٧٠
(٤) الجاحظ - البيان والتبيين حـ ١ ص ٩٥

عباءة سوداء ويلبس قلنسوة طويلة مزينة بجوهرة عالية(١) .

وكان الكتاب يلبسون الدراعات وهى ثياب مشقوقة من الصدر، ويلبس القواد الأقبية الفارسية القصيرة، والرجال والنساء يلبسون الجوارب المصنوعة من الحرير أو الصوف أو الجلد، وكان ثمة فروق ملحوظة فى ملابس أصحاب المهن المختلفة ، فالعمائم التى حرصوا على اتخاذها اختلفت تبعاً للسن والمركز الاجتماعى والعلمى ، وقد حافظ العرب على لبس العمائم ، وكانوا يقولون : مازالت العرب عرباً مالبست العمائم وتقلدت السيوف(٢)، ويقول الجاحظ(٣): وللخلفاء عمة وللفقهاء وللأبناء عمة وللنصارى عمة ولأهل التشاجى عمة وللصوص عمة ...

اتخذ الخلفاء ومن يلوذ بهم وكبار رجال الدولة فى بغداد الطراز على ملابسهم ، ويشمل اسم الخليفة ، وبقصر الخلافة يقوم دار الطراز بهذه المهمة(٤) .

وكان لباس المرأة يتكون من ملاءة فضفاضة وقميص مشقوق عند الرقبة عليه رداء قصير ضيق يلبس عادة فى الشتاء ، واتخذت سيدات الطبقة الراقية غطاء الرأس مرصعاً بالجواهر محلى بسلسلة ذهبية مطعمة بالأحجار الكريمة(٥) وكان للسيدة زبيدة تأثير كبير فى تطور الزى وإدخال تيسيرات على ملابس السيدات فى عصرها ، فيعزى إليها اتخاذ المناطق والنعال المرصعة بالجواهر، ولقد اتخذت ثوبا من الوشى الرفيع يزيد ثمنه على خمسين ألف دينار(٦) .

---

(١) سيد أمير على ــ مختصر تاريخ العرب ص ٣٨٨ — ٣٨٩ .

(٢) الجاحظ ــ البيان والتبيين جـ ٣ ص ٦٠ .

(٣) البيان والتبيين جـ ٣ ص ٦١

(٤) مقدمة ابن خلدون ص ٢١٠ — ٢١١

(٥) سيد أمير على ــ مختصر تاريخ العرب ص ٣٩٠

(٦) المدور ــ حضارة الاسلام فى دار السلام ص ٥٥

Hitti, Hist. of the Arabs. p, 342.

كما أن سيدات الطبقة المتوسطة لم يجهلن فن التجميل ، فكن يتخذن اللؤلؤ والزمرد على عصائبهن ، ويلبسن الخلاخل فى أرجلهن (١) .

وجدير بالذكر أن الناس فى بغداد كانوا يلبسون الملابس البيضاء عند العزاء ،

حرص الخلفاء على تعليم أبنائهم مكارم الأخلاق ، ويتضح ذلك مما ذكره الرشيد لمؤدب ولده ، إذ يقول : امنعه الضحك إلا فى أوقاته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم إذا دخلوا إليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن بك ساعة إلا وأنت مغتنم فيها فائدة تفيده إياها من غير أن تحزق به فتميت ذهنه ، ولا تمعن فى مسامحته فيستحلى الفراغ ويألفه وقومه ما استطعت بالقرب والملاينة ، فإن أباهما فعليك بالشدة والغلظة(٢).

وقد قال المنصور لابنه المهدى : إن الخليفة لا يصلحه إلا التقوى والسلطان لا يصلحه إلا الطاعة ، والرعية لا يصلحها إلا العدل ، وأولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة ، وأنقص الناس عقلا من ظلم من هو دونه .. استدم النعمة بالشكر ، والقدرة بالعفو ، والطاعـــة بالتأليف ، والنصر بالتواضع والرحمة للناس ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ونصيبك من رحمة الله.

---

(١) المسعودى — مروج الذهب ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق

النهضة الثقافية فى بغداد

١ - عوامل النهضة الثقافية .

٢ - العلوم النقلية .

٣ - حركة الترجمة وأثرها فى ازدهار الحياة الثقافية .

٤ - العلوم العقلية .

الباب الثالث

النهضة الثقافية

عوامل النهضة الثقافية فى بغداد فى العصر العباسى :

ازدهرت الحياة الثقافية فى بغداد فى العصر العباسى الأول نتيجة لعوامل متعددة منها أن نظرة الخلفاء العباسيين إلى الموالى الفرس كانت تختلف كل الاختلاف عن نظرة الأمويين لهم ، فقد حقق العباسيون لهم مطالبهم التى نادوا بها ، وأقبلوا على بغداد فور تأسيسها وأقاموا واستقروا بها ، ومما لا شك فيه أن الفرس كانوا قد بلغوا درجة كبيرة من التقدم فى مضمار الحياة الثقافية ، ودفعهم اعتناق الإسلام والاندماج فى الحياة العامة فى بغداد إلى تعلم اللغة العربية ، فنقلوا خلاصة معارفهم من الفارسية إلى العربية وصنفوا مصنفات قيمة فى العلوم العربية والدينية ، أدت إلى ازدهار الحياة الثقافية .

يقول ابن خلدون[1] : أن حملة العلم فى الملة الإسلامية أكثرهم العجم لا من العلوم الشرعية ولا من العلوم العقلية إلا فى القليل النادر ، وإن كان منهم العربى فى نسبه فهو أعجمى فى لغته ونشأته وثقافته ، والسبب فى ذلك أن العرب فى بداية الإسلام كانوا أهل بداوة وسذاجة وليسوا أهل علم ، وكانت أحكام الشريعة - التى هى أوامر الله ونواهيه - ينقلها الناس فى صدورهم وقد عرفوا أنها مأخوذة من القرآن الكريم والسنة بما تلقوه من الرسول صلى الله عليه وسلم وصحبه ، والعرب لم يعرفوا أمر التدوين والتأليف ، وجرى الأمر كذلك على يد الصحابة والتابعين ويتابع ابن خلدون كلامه فيقول : لقد قام العجم بدور فعال فى ذلك ، ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه

(١) المقدمة ص ٥٤٣ — ٥٤٤

إلا الأعاجم(١) وقد أيد بعض الباحثين رأى ابن خلدون .

والواقع أن ابن خلدون وغيره أغفلوا دور العرب تماماً في ازدهار الحياة الثقافية مثل الأصمعى والإمام الشافعى والقاضى ابى يوسف وحنين ابن إسحاق والإمام أحمد بن حنبل الفقيه والمحدث ، وأحمد بن أبى دؤاد العالم بالكلام والكندى فيلسوف العرب - كما أن النهضة الثقافية لم تبلغ ما بلغته من تقدم إلا بفضل تشجيع الخلفاء العباسيين ، وحتى الأعاجم الذين ساهموا فى تقدم الحركة العلمية ، كانوا عرباً مربى ونشأة ، وغلبت عليهم الحياة العربية وتأثروا بها ، وكانت الثقافة العربية هى محور دراساتهم وأبحاثهم .

ومن أسباب تقدم الحياة الثقافية فى بغداد أن أهل الذمة - كما قلنا - حظوا برعاية الخلفاء العباسيين ، وقدروا ذوى المواهب منهم ، وبذلك أتيحت لهم الفرصة لإبراز مقدرتهم العلمية ، وكان لمعرفتهم باللغات الأجنبية - خصوصا اليونانية والسريانية سببا فى اعتماد الخلفاء العباسيين عليهم فى حركة الترجمة إلى اللغة العربية .

ظهرت الحاجة إلى الاستفادة من العلوم التى توصل اليها الناس فى العصر العباسى الأول، فقسم العلماء المسلمون العلوم إلى نقلية تتصل بالقرآن الكريم وتشمل علوم التفسير والقراءات وعلم الحديث والفقه وعلم الكلام وعلوم اللغة العربية كالنحو والصرف والبيان والشعر ، ويطلق عليها أحيانا العلوم الشرعية والنوع الثانى العلوم العقلية وتشمل الفلسفة والطب وعلوم النحو وعلوم النجوم والكيمياء والتاريخ والجغرافيا والموسيقى ، ويطلق عليها أحيانا العلوم الحكمية أو علوم العجم أو العلوم القديمة .

---

(١) ابن كثير — البداية والنهاية جـ ١٠ ص ١٢٢

والعلوم العقلية يهتدى إليها الإنسان بفكره ، ويهتدى بمداركه البشرية إلى موضوعاتها ومسائلها حتى يعرف الخطأ من الصواب ويصيب الحقيقة. أما العلوم النقلية فهى مستندة إلى الخبر عن الواضع الشرعى ولا مجال فيها للعقل إلا بإلحاق الفروع من مسائلها بالأصول (١) .

لذلك ظهر فى هذا العصر نوعان من العلماء ، الأول يغلب على ثقافتهم النقل والاستيعاب ، ويسمون أهل علم ، والثانى هم الذين يغلب على ثقافتهم الإبتداع والاستنباط ، ويسمون أهل حكمة ، والعرب لم يدونوا علوم الدين ، وجرى الأمر كذلك على يد الصحابة والتابعين ، فكان الذى يتحمل نقل الشريعة القراء أى قراء كتاب الله سبحانه وتعالى والسنة المأثورة ، لأنهم لم يعرفوا الأحكام الشرعية إلا منه ومن الحديث ، الذى هو فى الغالب تفسير وشرح له ، ثم احتيج إلى وضع التفاسير القرآنية وتدوين الحديث مخافة ضياعه ، واحتيج إلى معرفة الأسانيد والتأكد من صحتها ، ثم احتيج إلى استنباط الأحكام من القرآن والسنة ، يضاف إلى ذلك فساد اللسان ، فظهرت الحاجة إلى وضع القوانين النحوية ، وصارت العلوم الشرعية كلها مادة للإستنباط والإستخراج والقياس والتنظير (٢) ، ولذلك كان لابد من تدوين العلوم الدينية والعربية وتم تدوين العلوم فى مستهل العصر العباسى فى كتب تدولها الناس .

والورق الذى استعمل فى الكتابة فى بغداد ، البردى ، وكان فى بغداد درب يسمى القراطيس ، وكان هذا الورق يجلب من مصر ، وفى بغداد كميات هائلة منه ، فيحدثنا الجهشيارى (٣) أن المنصور وقف على كثرة القراطيس

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٤٣ — ٥٤٤

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٨٤

(٣) الوزراء والكتاب ص ١٣٨

فى خزائنه فدعا أحد أعوانه وقال له : إنى أمرت بإخراج حاصل القراطيس فى خزائننا ، فوجدته شيئاً كثيراً جداً ، فتولى بيعه ، وأن لم تعط بكل دينـــار إلا دانقا ، فإن تحصيل ثمنه أصلح منه ، وكان الطومار فى ذلك الوقت بدرهم .

ولكن المنصور عاد فتدارك ما قد ينجم عن ذلك ، فدعا الرجل وقال له : فكرت فى كتبنا ، وأنهـا قد جرت فى القراطيس ، وليس يؤمن من حادث بمصر ، فتنقطع القراطيس عنا بسببه ، فنحتاج إلى أن نكتب فيما لم تعوده عمالنا . فدع القراطيس على حالها .

ويقول الجهشيارى: ولهذه العلة كانت الفرس تكتب فى الجلود والرق، ويرفضون الكتابة على الورق حتى ولى الفضـل بن يحيى البرمكى الوزارة فأدخل صناعة الكاغد ، وكتب فيه رسائل الخليفة وصكوكه ، واتخذه الناس فى مكاتباتهم وتصنيفاتهم وكانت سمرقند قد اشتهرت بصناعة الكاغد ، وانتقلت هذه الصناعة منها إلى بغداد ، وكانت الكتب فى بيت الحكمة من الكاغد ، على أن استعمال ورق البردى والورق المصنوع من الخز ظل قائماً طوال العصر العباسى الأول .

ويذكر الثعالبى (١) أن كواغيد سمرقند خير أنواع الورق لأنها أنعم وأحسن وأرفق . وأنشىء أول معمل لصناعة الورق فى بغداد سنة ١٧٨هـ.

وتقدم فى بغداد فن الوراقة ، ويقصد به نسخ الكتب وتصحيحها ، وتجليدها وكل ما يتعلق بإخراج الكتاب ، وكان الوراقون يبيعون هـذه الكتب فى دكاكينهم ،(٢) والمهتمون بالحياة الثقافية يترددون على هـــذه الدكاكين للقراءة أو لشراء ما يلزمهم من الكتب والمصنفات ، وكان ببغداد نحو مائة وراق(٣) ودكاكينهم أشبه بالمكتبات العامة فى يومنا هذا ، واهتم

(١) مراد كامل : بيت الحكمة ص ٧٥
(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٢٤١
(٣) اليعقوبى : البلدان ص ٢٣٥

الخلفاء بإسناد الوراقة إلى رجال من ذوى الدراية والمعرفة فكان علان الشعوبى راوية عارفا بالانساب والمناظرات . ينسخ فى بيت الحكمة للرشيد والمأمون (١) .

ولا يغيب عن أذهاننا أن من أسباب ازدهار الحياة الثقافية فى بغداد تحسن أحوال الناس الاقتصادية ، فكان طلاب العلم يفدون إلى بغداد لطلب العلم على علمائها أو الاستفادة منهم ، ومن ينبغ منهم يصنف المصنفات فى مختلف التخصصات (٢) .

لم تكن فى بغداد مدارس يتلقى فيها الطلاب تعليمهم ، وإنما كانت بها كتاتيب يثقف فيها الصبيان ثقافة عامة يحفظون فيها القرآن الكريم ويتعلمون الكتابة والحساب ، ويتقاضى المعلم أجراً على عمله (٣) .

والدراسة فى الكتاتيب أشبه بالدراسة فى المدارس الابتدائية فى يومنا هذا ، أما الدراسة المتخصصة ، فكان مقرها المسجد وضمت المساجد حلقات يدرس فيها مختلف العلوم ، ويقوم بالتدريس فيها رجال العلم من المشايخ ، فهناك حلقة للفقه وحلقة للتفسير ، وحلقة للحديث ، وحلقة لعلم الكلام ، وكان الطالب يتردد على الحلقة التى تتناسب مع ميوله للون معين من العلم ، وشيخ الحلقة يتقاضى أجراً نظير مهمته ، والدولة لا تتدخل فى هذه الدراسة ، واقتصر إشرافها على عدم تعارض الدراسة وما يجرى فيها من مناقشات مع تعاليم الدين أو مع سياسة الدولة العامة ، وإذا كان المعلم ميسوراً فإنه يؤدى مهمته بدون أجر إبتغاء مرضاة الله ، وكان أبو حنيفة النعمان يعمل بزازا ، وفى نفس الوقت يقوم بالتدريس ، والطلاب الذين يترددون على هذه الحلقات لا يستمرون فيها إلا إذا تأكد الشيخ من جديته وإقباله على الدراسة ، وذلك من خلال مناقشته له ، ولقد

---

(١) Noldeke A literary Hist of Persia p-28:

أظهرت هذه الحلقات مواهب كبيرة ، فنبغ من حلقة الإمام أبى حنيفة القاضى أبو يوسف ، ولم يكن الطالب يتفرغ للدراسة إنما يعمل ويدرس فى نفس الوقت (١) . والشيخ يحدد المنهج الذى يدرسه لطلابه فى المسجد إلا أن هذه الدراسات كانت تدور حول علوم الدين واللغة ، وكان الفراء يجلس فى المسجد ، والقارىء يقرأ وهو يفسر لطلابه (٢) .

اهتم العلماء فى مختلف أنحاء الدولة الإسلاميه بالرحيل إلى المدن الكبرى للاتصال بالعلماء المشهورين للاستفادة من علمهم وفضلهم ، والسبب فى ذلك «أن الناس يأخذون معارفهم تارة علما وتعليما وإلقاء ، وتارة محاكاة وتلقينا بالمباشرة ، فعلى قدر كثرة الشيوخ يكون حصول الملكات ورسوخها .. وهذا لمن يسر الله عليه طرق العلم والهداية فالرحلة لا بد منها فى طلب العلم ، واكتساب الفوائد(٣)» .

وكان الخلفاء يشجعون أهل الذمة المثقفين على الرحيل إلى الدولة البيزنطية لقراءة كتب الحكمة وترجمتها(٤).

أما الخلفاء والأمراء وكبار رجال الدولة فكانوا يستعينون بمعلمين لتعليم أبنائهم فى قصورهم ، وقد حدد الرشيد لمؤدب ولده الأمين المنهج الذى يجب أن يعلمه وينشىء عليه ابنه الأمين فقال : أقرئه القرآن ، وعرفه الآثار ، وروه الأشعار ، وعلمه السنن ، وبصره مواقع الكلام وبدئه ، وامنعه من الضحك إلا فى وقته ، وخذه بتعظيم مشايخ بنى هاشم ، إذا دخلوا عليه ، ورفع مجالس القواد إذا حضروا مجلسه ، ولا تمرن عليك ساعة إلا وأنت مغتنم فائدة تفيده إياها من غير أن تحزنه ، فتميت قلبه ولا تمعن فى مسامحته

---

(١) Hitti ; Hist. of the Arabs. p. 363.

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٥٠

(٣) مقدمة ابن خلدون ص٥٤١

(٤) ابن النديم : الفهرست ص ٣٤١

فيستحلى الفراغ، وعليك بالرفق به، فإن لم يأت بالرفق فخذه بالغلظة[١] وكان الفراء — وهو من أعلم الكوفيين بالنحو واللغة وفنون الأدب — يؤدب ولدى المأمون، وأجزل صلته على حسن تأديبه لهما [٢].

انتشرت المجالس العلمية فى بغداد التى تضم العلماء فى الدور والقصور والمساجد، ويتناظرون فيها فى فروع العلم المختلفة، وقد حرص الخلفاء على عقد هذه المجالس، ومما لا شك فيه أن هذه المناظرات أدت إلى رواج الحركة العلمية لأن المتناظرة إذا كانت تتم أمام خليفة أو أحد كبار رجال الدولة، فإن المشتركين فيها يحرصون على إتقان مادتها العلمية حتى يدعم رأيه بالأسانيد المعقولة والمقبولة، ويحظى بتقدير الحاضرين، وكان للخلافات فى الرأى التى تحدث بين رجال العلم أثر كبير فى تقدم الحركة العلمية، ذلك أنها شجعت العلماء على مواصلة البحث والدرس، وإعداد أنفسهم حتى لا يخذلوا فى مجلس المناظرة مما يسىء إلى سمعتهم ومكانتهم[٣].

والواقع أن الخلفاء العباسيين لم يألوا جهدا فى سبيل تشجيع الحركة العلمية فكان الرشيد من أبلغ الناس كلاما، وأحسنهم نطقا وأكثرهم علما وفهما، كتب إلى ولاة الأمصار كلها وإلى أمراء الأجناد يطالبهم بتشجيع العلم وأهله فقال: فانظروا من التزم الأذان عندكم فاكتبوه فى ألف من العطاء، ومن جمع القرآن وأقبل على طلب العلم، وعمر مجالس العلم ومقاعد الأدب، فاكتبوه فى ألف دينار من العطاء، ومن جمع القرآن وروى الحديث وتفقه فى العلم فاكتبوه فى أربعة آلاف دينار من العطاء واسمعوا قول فضلاء عصركم وعلماء دهركم، وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم — وهم أهل

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٢٧٨
مقدمة ابن خلدون ص٥٤١
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٥ ص٥٢٥
(٣) ابن طيفور : مناقب بغداد ص٣٦
John. Glubb ; The Empire of the Arabs. p 319

العلم — وبلغ من تشجيع الرشيد للعلم والتعليم أن الغلام كان يحفظ القرآن الكريم وهو ابن ثمان سنين ويتبحر فى الفقه ويروى الحديث ، ويناظر المعلمين وهو ابن أحد عشر عاماً[1] .

وكان المأمون أعلم الخلفاء بالفقه والكلام وله عدة رسائل[2] لذلك شجع العلماء على مواصلة البحث والدرس ، وعنى بمجالس المناظرة ، فكان يدخل عليه من العلماء الفقهاء والمتكلمين جماعة يختارهم لمجالسته ومحادثته واختير له من الفقهاء لمجالسته مائة رجل ، وناظرهم وناقشهم كثيراً ، حتى وقع اختياره على أفضلهم فكانوا عشرة فقط[3] .

على أن مجالس المناظرة احتدت فيها المناقشات بين المتكلمين حول مسألة خلق القرآن ، وكان المأمون يميل إلى المعتزلة لأن آراءهم تتفق مع العقل والمنطق .

ويرتبط بظهور الحركة العلمية ونشاطها فى بغداد الحاجة إلى المحافظة على الكتب والمصنفات . ومن هنا أقيم فى بغداد بيت الحكمة ، وهو مكتبة كبيرة فيها مختلف الكتب ، وسميت خزانة الحكمة وبيت الحكمة وخزانة كتب الحكمة - ويحيط الغموض بتأسيس هذا البيت فلا نعرف على وجه التحديد متى تم تشييده ولا مكان موضعه ، وكل ما نعرفه أن المنصور نقل الخزائن إلى بغداد بعد تشييدها ، والكتب كانت جزءاً هاما من محتويات هذه الخزائن ، وجمع فيها الكتب من مختلف أنحاء مملكته ، وأضاف اليها المصنفات التى صنفت فى عهده ، والتى شجع أصحابها على التأليف ، ولما ولى الرشيد أضاف إلى بيت الحكمة كثيراً من الكتب ، وأضاف

---

(١) ابن قتيبة : الإمامة والسياسة ج١ ص٩٩ .
(٢) [illegible]
(٣) [illegible]

البرامكة إلى هذه الخزائن الكثير من الكتب وخصوصاً الفارسية ، وفى أواخر عهد الرشيد ضمت خزانة بيت الحكمة كثيراً من الكتب بلغات متعددة منها العربية واليونانية والفارسية والسريانية وبعض اللغات الهندية[١] .

وازدهر بيت الحكمة فى عهد الخليفة المأمون لميله إلى الفلسفة والعلوم العقلية وأنفق أموالا طائلة فى نقل الكتب إلى بيت الحكمة من الدولة البيزنطية وغيرها ، وكان يعمل فى بيت الحكمة علماء تنوعت ثقافتهم ومعارفهم، فسهل بن هارون صاحب خزانة الحكمة للمأمون كان حكيما شاعراً ، وجدير بالذكر أنه فارسى شعوبى المذهب شديد العصبية على العرب ، ويصف الجاحظ براعته وفصاحته وله عدة كتب[٢] .

وازداد عدد الكتب فى عهد الخليفة المأمون ، ولم تكن الكتب اليونانية هى التى حرص المأمون على نقلها إلى بيت الحكمة ، بل نجد المأمون يطلب من يحيى بن البطريق إحضار كتب لاتينية إلى بغداد ، وقد كان يحيى يعرف اللغة اللاتينية ، وضمت هذه الكتب إلى بيت الحكمة وبذلك ضم بيت الحكمه كتباً فى مختلف اللغات ، ومختلف العلوم[٣]

وكان العلماء فى الدولة الإسلامية يودعون نسخا من مؤلفاتهم فى بيت الحكمة . على أن بيت الحكمة ضعف شأنه فى عهد الخليفة المعتصم ، لعدم اهتمامه بالنواحى الثقافية .

وكان يلحق ببيت الحكمة علماء لهم رواتب محددة ، وتنوعت اختصاصاتهم ، ومن بين هؤلاء العلماء ، علماء فلكيون ، ذلك لأن المأمون ألحق ببيت الحكمة مرصداً لإصلاح آلات الرصد ، وكانت أعمال

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣٤١
(٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٧٤
(٣) ابن القفطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء جـ١ ص ٢٨٠

بالضرورة من بيت الحكمة ، بل كان بعضهم من خارجه .

وصاحب بيت الحكمة يشرف على العاملين فيه . وعليه أن يرتب الكتب ويعد فهارسها ، ويصنفها ، وضم بيت الحكمة عدة طوائف ، طائفة النساخ ، وطائفة المترجمين ، وطائفة المفسرين ، وطائفة المنجمين ، وطائفة الكتبة وطائفة المجلدين ، وكان الناسخ ينسخ ما يطلب منه نظير أجر . وعليه أن يرتب أوراق كل نسخة بعد جمعها ، وإصلاح ما قد يظهر فيها من أخطاء[1] .

وكان الخليفة يعين المترجمين فى بيت الحكمة ، ويعين لهم رئيساً يتفقد أعمالهم ويراجعها ويصححها مثل يوحنا بن ماسويه ، كان نصرانيا سريانياً ، ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة التى وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم التى فتحها المسلمون[2] ، وعينه أمينا على الترجمة ، ورتب له كتاباً يكتبون بين يديه ، وظل يباشر مهامه حتى أيام المأمون ، وقام بالترجمة أيضا يوحنا بن البطريق ، وحنين بن إسحاق[3] .

وبذلك ساهم بيت الحكمة فى ترجمة كتب فى علوم مختلفة وبلغات متعددة إلى العربية ، وكان المترجم يملى كتابه المترجم على عدد من الكتاب أو النساخ ، حتى تتعدد نسخ الكتاب الواحد ، وتجلد هذه الكتب ، وتودع نسخ منها فى بيت الحكمة[4] حيث تتاح الفرصة للقراء للاطلاع عليها ، والاستفادة منها .

ظهر فى بغداد علماء عنوا بتأليف الكتب واقتناء النفيس منها ، فمحمد ابن عمر الواقدى خلف بعد وفاته ستمائة قمطر كتبا كل قمطر منها حمل

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ص٤٢١

(٢) القفطى : اخبار العلماء باخبار الحكماء ص٣٨٠

(٣) المصدر نفسه .

(٤) ابن النديم : الفهرست ص١٠

رجلين ، وكان له غلامان مملوكان يكتبان له الليل والنهار[١] وله عـــدة مصنفات ، ويذكر ابن خلكان[٢] أن إسحاق بن ابراهيم الموصلى كان عنده ألف جزء من لغات العرب .

كان مركز الحركة الثقافية قبل تأسيس بغداد فى البصرة والكوفة ، ثم شيدت بغداد ، فغلبت على المدينتين ، ويقول اليعقوبى[٣] ليس لها نظير فى مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه ، وصحة هواء ، ولأنه سكنها من أصناف الناس وأهل الأمصار والكور وانتقل إليها من جميع البلدان القاصية والدانية وآثرها جميع أهل الآفاق على أوطانهم .. وهى مع هذا مدينة بنى هاشم ودار ملكه ومحل سلطانهم .. واعتدال الهواء وطيب الثرى وعذوبة الماء حسنت أخلاق أهلها ، ونضرت وجوههم وانفتقت أذهانهم حتى فصلوا الناس فى العلم والفهم والأدب .. فليس أعلم من عالمهم ، ولا أروى من راويتهم ، ولا أجدل من متكلمهم ولا أحذق من مفتيهم ولا أعرب من نحويهم ولا أصح من قارئهم ، ولا أمهر من متطبيبهم ، ولا أكتب من كاتبهم .. ولا أشعر من شاعرهم ..

العلوم النقلية :

قلنا إن العرب قسموا العلوم إلى نقلية وعقلية ، والعلوم النقلية هى علوم الدين واللغة ، ولقد لزدهرت هذه العلوم فى بغداد فى العصر الذى نؤرخ له ، وعلم القراءات من بين العلوم التى عنى المسلمون به لأنه علم قراءة القرآن ، ولقد كان للقراءات سبع طرق ، كل طريقة تستند فى قراءتها إلى أحاديث ، إطمأن شيخها إلى صحتها ودعا أصحابه إلى القراءة بطريقته

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص١٤٤
(٢) وفيات الأعيان جـ ١ ص٩٢
(٣) البلدان ص٢٣٣

ومن أشهر قراء بغداد الكسائى ، وهو من القراء السبعة توفى سنة ١٧٩ هـ ، وكان يتنقل فى البلدان ويقرأ بقراءة حمزة ، ثم اختار لنفسه قراءة ، فأقرأ الناس بها وذلك فى خلافة الرشيد ، وألف العلماء فى قراءته كتبا من بينها كتاب « ما خالف الكسائى فيه » لأبى جعفر بن المغيرة(١) .

قدم الكسائى إلى بغداد فضمه الرشيد إلى ولديه المأمون والأمين ، وللكسائى عدة كتب ، منها كتاب معانى القرآن ، وكتاب مختصر النحو ، وكتاب القراءات ، وكتاب النوادر الكبير ، والنوادر الأوسط ، والنوادر الأصغر ، وكتاب مقطوع القرآن وموصوله(٢) .

ومن أشهر القراء يحى بن الحارث الدمارى توفى سنة ١٤٥ هـ روى عن جماعة من الصحابة(٣) ومن القراء المشهورين حمزة بن الزيات ، توفى فى خلافة المنصور سنة ١٥٦ هـ(٤) .

ومن العلوم الدينية التى عنى بها الناس فى بغداد بصفة خاصة علم التفسير ، ولقد اتجه المفسرون إلى اتجاهين ، يعرف أولهما باسم التفسير بالمأثور ، ويعرف الثانى باسم التفسير بالرأى .

نزل القرآن الكريم بلغة العرب . وعلى أساليب بلاغتهم ، فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه فى مفرداته وتراكيبه ، وكان ينزل جملا جملا وآيات آيات ، فكان الرسول يوضح لأصحابه سبب نزول الآيات ، ومعانيها فكان ذلك ينقل عن الصحابة ، وتداول ذلك التابعون من بعدهم ، ونقل عنهم ، ولم يزل متناقلا ، حتى صارت المعارف علوما فدونت هذه الأقوال

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص٤٤
(٢) المصدر السابق ص٩٧
(٣) ابن النديم : الفهرست ص٤٣
(٤) ابن قتيبة : كتاب المعارف ص٢٣٠

وهذا هو التفسير بالمأثور ، وكان المفسرون إذا احتاجوا إلى معرفة شيء عن بدء الخليقة والكون وأسرار الوجود يسألون عنه أهل الكتاب ، ويأخذون برواياتهم ، فامتلأت التفاسير بالأخبار التي نقلت عنهم[١] .

ومما لا شك فيه أن المفسرين أخطأوا لأنهم نقلوا هذه الأخبار في كتبهم دون مناقشتها . على الرغم من أن الكثير منها لا يقبله العقل ولا المنطق .

أما طريقة أصحاب الرأي فهي الطريقة التي تعتمد على استنباط المعاني من النصوص عند التفسير ، على أن التفسير حتى في بداية ظهوره كعلم من العلوم لم يتخذ شكلا منظما ، فقد اقتصر على تفسير بعض الآيات غير مرتبة بترتيب السور . ثم انتظم التفسير بعد ذلك ، فقد ذكر ابن النديم أن عمر بن بكير كتب إلى الفراء أن الحسن بن سهل ربما سألني عن الشيء بعد الشيء من القرآن ، فلا يحضرني فيه جواب ، فقال الفراء لأصحابه : اجتمعوا حتى أملي عليكم كتابا في القرآن ، وجعل لهم يوما ، فلما حضروا خرج إليهم ، وكان في المسجد رجل يؤذن ، ويقرأ بالناس في الصلاة ، فاتفق معه الفراء على أن يقرأ القرآن مرتباً ، ويتوقف عند كل آية ، ليفسرها الفراء ، ولم يعمل أحد ذلك قبله . ويتضح لنا مما تقدم أن الفراء أول من فسر القرآن بترتيب سوره وآياته ، وفسره بهذا المنهج الذي وضعه لنفسه في أربعة أجزاء[٢] .

ولقد ظهرت في العصر العباسي الأول مصنفات في التفسير ولكنها فقدت ، نخص بالذكر منها تفسير مقاتل بن سليمان المتوفى سنة ١٥٠هـ وأصله من بلخ ، وانتقل إلى بغداد ، وقدره العلماء في بغداد حتى أن الشافعي قال :

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٣٩ — ٤٤٠

(٢) ابن النديم : الفهرست ص١٠٠

« الناس كلهم عيال على ثلاثة ، على ابن مقاتل فى التفسير ، وعلى زهير بن أبى سلمى فى الشعر ، وعلى أبى حنيفة فى الكلام » .

ومن التفاسير التى فقدت ، تفسير ابن اسحاق ذكر فيه أقوالا لوهب ابن منبه ، وكعب الأحبار وغيرهما من الرواة عن اليهودية والنصرانية[1] .

على أن أول تفسير وصل إلينا . كان تفسير ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ ﻫ والذى يقع فى ثلاثين مجلداً ، وهو يأخذ بالمأثور عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه والصحابة والتابعين ، ويحرص فى ذلك على الأخذ بالرواية الصحيحة ، ولا يوافق المفسرون من أصحاب الرأى لانهم يخطئون كثيراً . وظهر فى تفسيره ثقافته الدينية واللغوية والتاريخية ويتضح من كتاباته معرفته لآراء المتكلمين وخاصة المعتزلة ، وتأثر بمذهب المحدثين فى الكلام عن القدر، وكان يتحرى الدقة فى الإسناد جريا على طريقة العلماء المعاصرين وحرص على الاخذ بروايات رجال موثوق بهم ، ونقد من لم يثق به[2].

أما أصحاب التفسير بالرأى ، فكانوا يحكمون العقل ، ويرفضون الخرافات والتصورات المخالفة لطبيعة الاشياء ، التى تأثر بها كثير من الناس، ومن أشهر هذه التفاسير، تفسير أبى بكر الاصم المتوفى سنة ٢٤٠ﻫ[3]

اشتدت الحاجة إلى الفقه في العصر العباسى الاولى، لانه ينظم المعاملات ويضع التشريعات التى تنظم حياة الافراد وعلاقاتهم بعضهم ببعض من ناحية ، وعلاقاتهم بالدولة من ناحية أخرى ، فضلا عن أنه يوضح التعاليم التى يجب أن يتبعها الناس فى شؤون دينهم ، وعنى الخليفة الرشيد بالفقه ،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج: ص ١ : ٣

(٢) جولد تسيهر . المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن ص ٨٦ — ٨٧

(٣) المصدر السابق ص ٩٩ — ١٠٠

فعهد إلى القاضى أبى يوسف أن يضع له كتابا فى التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية لدولته ، لإزالة ما ساد فى عهد الامويين من الاخذ بالرأى ، فصنف كتاب الخراج ، ويقول أبو يوسف فى مقدمة كتابه أن أمير المؤمنين أيده الله تعالى سألنى أن أضع كتاباً جامعاً يعمل به فى جباية الخراج ، والعشور والصدقات والجوالى وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه ، والعمل به ، وإنما أراد بذلك رفع الظلم عن رعيته والصلاح لامرهم ـ فلا تضيعن ما قلدك الله به من أمر هذه الامة والرعية ، فإن القوة فى العمل بإذن الله إن الرعاة مؤدون إلى ربهم ما يؤدى الراعى إلى ربه فأقم الحق فيما ولاك الله وقلدك ولو ساعة من نهار فإن أسعد الرعاة عند الله يوم القيامة راع سعدت به رعيته(١) .

استمع الرشيد إلى هذه التوجيهات من قاضيه أبى يوسف ، ولما أتم كتابه « الخراج » أمر الرشيد كل عماله أن يضعوا توجيهات أبى يوسف موضع التنفيذ .

وكان من أثر تشجيع الخلفاء العباسيين للفقه والفقهاء واعتمادهم عليهم فى أمور الفقه ، أن وضع الفقهاء قواعد الفقه بدقة وعناية فى الحياة العملية(٢) واختلف الفقهاء فى آرائهم الفقهية ، ومن هنا نشأت المذاهب الفقهية السنية ، وأخذ بعض الفقهاء بالرأى ، وأخذ آخرون بالمأثور ، ويمثل أبو حنيفة النعمان بن ثابت المذهب الاول ، فقد أخذ بالرأى بشكل كبير ، وكان داود يمثل المذهب الثانى ، وعارض الرأى بكل شدة ، وبين هذين الطرفين الشافعى وابن حنبل ، على أن الطبرى لم يضع ابن حنبل فى قائمة الفقهاء ، وإنما عده من المحدثين .

---

(١) أبو يوسف : الخراج ص٢

(٢) على حسن عبد القادر ، نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ج١ ص٢٤

ولم يكن أبو حنيفة أول من أخذ بالرأى . إنما سبقه علماء كثيرون فى القرن الاول الهجرى . على أن أبا حنيفة تطور بالاخذ بالرأى إلى درجة لم تكن معروفة من قبل ، وهو أول من استعمل القياس فى الفقه حتى لقد سمى الإمام الإعظم تقديراً لجهوده . ومما لاشك فيه أن أبا حنيفة قد استفاد من الفقهاء الذين سبقوه فى الاخذ بالرأى وأضاف آراءه إلى آراء أسلافه . وقد عارض بعض الفقهاء التفكير الحر الذى درج عليه أبو حنيفة فى مذهبه ، وقد حمل تلميذه أبو يوسف تعاليمه ، وأدى اختلاف أئمة الفقه فى فهم بعض النصوص الفقهية ، واستنباط الاحكام منها إلى تعدد المذاهب .

ولد أبو حنيفة النعمان بالكوفة سنة ٨٠هـ ، وتوفى فى بغداد سنة ١٥٠هـ وجده من أهل كابل ، وأدرك أربعة من الصحابة . وكان عالماً عابداً زاهداً ورعا تقيا كثير الخشوع دائم التضرع إلى الله سبحانه وتعالى . وكان أبو حنيفة ممن وفق له الفقه . فإذا سئل فيه تفتح وسال كالوادى . وقيل : من أراد أن يتبحر فى الفقه فهو عيال على أبى حنيفة(١)

كان أبو حنيفة إماماً فى القياس ، ويحرص على الدقة فى قبول الحديث ويتحرى عنه وعن رجاله ، فلا يروى الخبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم إلا إذا رواه جماعة ثقات ، وأجمع الفقهاء على الاخذ به (٢)

ولقد اندثرت كتب الفقه التى صنفها أبو حنيفة ، وذكر لنا ابن النديم(٣) أسماء كتبه فى الفقه ،

ومن أبرز تلاميذ ابى حنيفة القاضى ابو يوسف ، كان حافظا للحديث

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ٥ ص ٣٩
(٢) ابن النديم ، الفهرست ص٢٨٥
(٣) المصدر السابق ص٢٨٦

ثم لزم أبا حنيفة ، فغلب عليه الرأى ، وولى منصب قاضى القضاة حتى وفاته سنة ١٨٢ﻫ ، فى خلافة الرشيد ، ولأبى يوسف من الكتب الفقهية ، الزكاة والصيام ، الفرائض الحدود ، الرد على مالك بن انس ؛ رسالته فى الخراج إلى الرشيد ؛ واخيراً كتاب الجامع الذى الفه ليحى بن خالد ؛ وتناول فيه اختلاف الإراء فى الفقه (١)

وجدير بالذكر أن أبا يوسف تتلمذ على ابن أبى ليلى ، ثم انتقل إلى أبى حنيفة ، وأخذ عن مالك بن أنس ، وكان أول قاضى قضاة فى الإسلام، يعين القضاة فى أنحاء الدولة . وساعد على انتشار مذهب أستاذه ، ويقول الجاحظ (٢) : كانت دراسة فقه أبى حنيفة فى بغداد على قدر كبير من الأهمية لمن يريد أن يتولى منصباً هاماً ، « وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لا يعد فقيها ، ولا يجعل قاضياً ، فما هو إلا أن ينظر فى كتب أبى حنيفة وأشباه أبى حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط فى مقدار سنة أو سنتين حتى تمر ببابه ، فتيقن أنه من بعض العمال ، وبالحرى ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار .

ومن أشهر فقهاء بغداد من أصحاب الرأى البشر بن الوليد ، ولى القضاء للمأمون ، ومن تلاميذه محمد بن الحسن ، وله عدة مصنفات فى الفقه ، ترجع أهميتها إلى أنه أول من دون ما أورده الفقهاء من أقوال وآراء ، ومن هنا تفوق على من سبقه من الفقهاء حتى على أبى يوسف نفسه ، الذى حاول إبعاده عن بغداد ، وإليه يرجع الفضل فى تدوين مذهب أبى حنيفة وحفظه فى الكتب ، وجدير بالذكر أن محمد بن الحسن اتصل بالإمام مالك ، وروى

---

(١) المصدر السابق

(٢) كتاب الحيوان ج١ ص٤٣

(٣) ابن النديم ، الفهرست ص٢٨٩

عنه الموطأ ، وروايته للموطأ من أهم الروايات لأنه أوضح فيه الخلاف بين أهل الحجاز وأهل العراق فى الفقه ، وقد قدم الشافعى إلى بغداد ، وأخذ عن محمد بن الحسن ، وكتب عنه وقر جمل كتبا ، وله من الكتب ، كتاب المبسوط فى الفقه ، وكان بينه وبين الشافعى مناظرات ، وقد أثنى عليه الشافعى ، وأبرز مكانته العلمية والخلقية بقوله :

« أنه كان يملأ القلب والعين » وقال : ما رأيت أعلم بكتاب الله من محمد كأنه عليه نزل (١) .

ولقد أدت شهرة بغـــداد بعلمائها وفقهائها إلى قدوم طلاب العلم إليها ، فرحل أسد بن الفرات إلى بغداد ، وتعلم فقه أبى حنيفة من علمائها ، غير أنه لما عاد إلى مصر ، اتصل ببعض فقهاء المالكية وأخذ عنهم أراء الأمام مالك وعاد إلى القيروان ، ونشر اراء الأمام مالك هناك ، فى مقالات سميت بالأسديه وتوفى غازيا فى صقلية

ومن أشهر الأئمة الذين وفدوا على بغـــداد فى العصر العباسى الأول واقاموا بها فتره من الزمن ينشرون معارفهم على الناس والطلاب بصفة خاصة ، أبو عبد الله محمد بن أدريس الشافعى الذى جمع بين أقوال أهل الرأى ، وأراء أهل الحديث ، وهو أول من تكلم فى أصول الفقة ، وأول من وضع أسسه ومبادءه ، كثير المناقب جم المفاخر منقطع القرين ، درس علوم القرآن دراسة وافيه شاملة ، وألم بأقوال الصحابة والتابعين ، وأراء الفقهاء وعلوم العربية . وقال عنه أحمد بن حنبل : ماعرفت ناسخ الحديث من منسوخه حتى جالست الشافعى ، وقال عن الشافعى أنه كالشمس للدنيا والعافية للبدن (٢) .

---

(١) المالكى ، رياض النفوس ص ١٦٠

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ج ٣ ص ٢٧٧ ،

والشافعى هاشمى قرشى ولد بغزة سنة ١٥٠ هـ وتربى فى محيط عربى ؛ لذلك نشأ بارعاً فى اللغة العربية والشعر القديم ، واتصل — كما قلنا — بالشيبانى والأمام مالك وأنتقل إلى بغداد سنة ١٩٥ وأتصل علماؤها ، به ورووا عنه مذهبه القديم ، وفى سنة ١٩٨ هـ طلب منه عبد الرحمن بن المهدى فى بغداد أن يضع له كتابا فيه معانى القرآن الكريم وبيان الناسخ والمنسوخ من القرآن والسنه وحجة الإجماع(١) ، فوضع له كتاب الرسالة وترجع أهميه الرسالة إلى أنها نقطة الأتصال التاريخية للفقه الأسلامى ، إذ أنه كان وسطا بين أهل الرأى وأهل الحديث .

وعلى الرغم من رحيل الشافعى عن بغداد إلا انه ترك فيها تلاميذ فى فقهه ، وأصلوا جهوده ، نخص بالذكر منهم أبو البخترى وهب بن كثير ، كان فقيها أخباريا ، ولاه الرشيد القضاء فى الرصافة ثم عزله،وله من الكتب كتاب الرايات ، كتاب طسم وجد يس ، كتاب فضائل الأنصار (٢) .

وترك الشافعى فى بغداد تلاميذ نشروا فقهه وشرحوه ، نخص بالذكر منهم سليمان بن داود بن على بن خلف ، وينسب إلى عائلة من قاشأن قرب أصفهان وقد درس ببغداد فقه الشافعى ، وهو أول من ألف فى مناقب الشافعى وأقام فى بغداد يعلم التلاميذ فقة الشافعى الذى تعصب له وتوفى فى بغداد سنه ٢٧٠ هـ .

ومن تلاميذ الأمام الشافعى ومريديه أبراهيم بن خالد بن الياس الكلبى نقل أقواله القديمة ، وكان أحد الفقهاء الأعلام والثقات المأمونين فى الفقه له المصنفات القيمة فى الأحكام ، جمع فيها بين الحديث والفقه ، وكان أول اشتغاله بمذهب أهل الرأى حتى قدم الشافعى إلى العراق ، فتردد عليه، واتبع مذهبه ، ولم يزل على ذلك حتى وفاته فى بغداد سنة ٢٤٦ هـ .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٢٦٥

(٢) ابن النديم : الفهرست ص ١٤٦

على أن أحمد بن حنبل يعتبر بحق أبرز تلاميذ الشافعى، ولد ابن حنبل فى بغداد فى سنة ١٦٤ هـ ورحل فى طلب العلم ، ورجع إلى بغداد حيث تتلمذ على الشافعى من سنة ١٩٥ حتى سنة ١٩٧ هـ ، ويعتبر أمام المحدثين، صنف كتابه المسند ، وجمع فيه من الحديث مالم يجمعه غيره ، وقيل أنه كان يحفظ ألف ألف حديث وبلغ من تقدير الشافعى له أن قال : خرجت من بغداد وما خلفت فيها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل ، وقد عارض مذهب المعتزله الذى اعتنقه الخليفة المأمون فلما دعى إلى القول بخلق القرآن ، ولم يجب ، ضرب وحبس ، وأخذ عنه جماعة من العلماء الاجلاء نخص بالذكر منهم محمد بن اسماعيل البخارى ، ومسلم بن الحجاج النيسابورى (١) .

وكان ابن حنبل عالما ورعا تأثر به الناس حتى أن يوم وفاته فى بغداد سنة ٢٤١ هـ أسلم عشرون ألفا من النصارى واليهود (٢) .

ومن فقهاء بغداد فى ذلك العصر داود بن على الاصبهانى المعروف بداود الظاهرى ، درس مذهب الشافعى ، وألف فى مناقبه ثم أستقبل بمذهب يعرف بالظاهرية وهو يناقض المذهب الحنفى ، إذ أنه يرفض القياس رفضا تاماً ، ويرى أن فى القرآن والحديث ما يكفى لاستنباط الأحكام ، بل يجب التقيد بهما وبظاهرهما ، وهاجم داود القياسية وأبرز أخطاءهم فى الأحكام نتيجة أخذهم بالقياس (٣) .

يأتى الحديث فى الأهمية بعد القرآن الكريم كمصدر من مصادر التشريع الإسلامى، والحديث هو ما أثر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو حكم اصدره فى موضوع عرض عليه، ولقد كان جمع الحديث فى هذا

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ١ ص١٧

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ١ ص٤٧

(٣) مقدمة ابن خلدون ص٤٤٦

العصر عاملا هاما عند المشتغلين بالفقه ، وكان هناك طريقتين فى جمـــع الأحاديث : أولها الحديث المسند الذى ليس بالضرورة أن يتصل أسناده بالصحابة أنما يكتفى بنقل أسناده بنقل العدل الضابط عن العدل الضابط إلى منتهاه ، وبعض هذه الأحاديث يتصل أسنادها إلى صحابى بعينه ، والصحابى بالطبع يأخذ عن الرسول ، وأهم مسند وضع فى بغداد هو مسند ابن حنبل[١].

لذلك فأن من أهم فروع علم الحديث النظر فى الاسانيد ، ومعرفة مايجب العمل به من الاحاديث بالوقوف على المسند الكامل ، ومعرفة رواة الحديث بالعدالة والضبط ويثبت ذلك بالنقل عن أعلام الدين بعد تعديلهم وبراءتهم من الجرح والغفلة فيكون ذلك دليلا على القبول أو الترك ، وكذلك مراتب هؤلاء النقلة من الصحابة والتابعين وتفاوتهم فى ذلك ، وتمييزهم فيه ، وكذلك الاسانيد تتفاوت باتصالها وانقطاعها وبسلامتها من العلل الموهنة لها[٢].

تعرض الحديث للتحريف ، لأن العرب كانوا لا يدونونها ، وظهر علماء أجلاء بذلوا جهوداً مضنية فى سبيل جمع الحديث الصحيح ، ومع ذلك فإن الفقهاء ناقشوها ورفضوا كثيراً منها ، فالإمام أبو حنيفة لم يوافق إلا على ستة عشر حديثاً جمعها البخارى[٣].

ظهرت المصنفات فى العصر العباسى الأول فى الحديث، وتتضمن تقسيم الأحاديث وتبويبها حسب الموضوعات من عبادات ومعاملات وأخلاق وغير ذلك ، والمصنفات تختلف عن المسند ، لأن المســـند يبوب حسب الرجال ، أما المصنف فهو - كما قلنا - حسب الموضوعات[٤].

---

(١) المصدر السابق ص ٤٣٦

(٢) مقدمة ابن خلدون ص٣٤٥

(٣) [illegible] فلسفة فى الإسلام ص٤٨

(٤) على حسن [illegible] قادر . نظرة عامة فى تاريخ الفقه الإسلامى ص٤٣

ولقد ظهرت المصنفات فى بغداد فى وقت احتدام الصراع بين أهل الحديث وأهل الرأى الذين لم يعتمدوا على الحديث كثيراً كمصدر من مصادر التشريع ، ومن حرص علماء الحديث على وضع مصنفات يبرزون فيها المسائل الفقهية المختلفة ، بحيث لا يجد أهل الرأى مجالا للادعاء بأن الحديث ليس مصدراً هاما للتشريع الإسلامى .

وجدير بالذكر أن أحمد بن حنبل اعتمد فى فقهه على الحديث ، فإذا وجد حديثاً صحيحا اكتفى به ، وإذا عثر على فتوى من الصحابة أخذ بها ، وأحيانا يروى فى المسألة الواحدة رأيين ، وكان يرفض القياس إلا فى الضرورة القصوى ، ويفضل عليه الحديث حتى ولو كان مرسلا أو ضعيفاً(١) .

ومن أشهر رواة الحديث الذين أقاموا فى بغداد ، محمد بن إسحاق بن يسار ـ صاحب السيرة(٢) وأخذ أصحاب الزهرى عن ابن اسحاق روايته فى الأحاديث التى رواها الزهرى ، وشكوا فى صحتها ، وكان الإمام أحمد ابن حنبل يأخذ برواية ابن إسحاق .

ومن العلوم التى ازدهرت فى بغداد فى العصر العباسى الأول ، علم الكلام ، وهو يتضمن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية ، والرد على المبتدعة والمنحرفين فى الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة ، وأساس هذه العقائد الإيمانية يكمن فى التوحيد ، ويقدم فى برهان عقلى(٣) ، وكان أهل الحديث يرون أن مناقشات المتكلمين وآرائهم بدعة ، لأن الإيمان عندهم هو الطاعة ، وقد غلا خصوم المتكلمين ، فرموهم بالزندقة ، وقالوا : علماء الكلام زنادقة ، والحق أن مناقشات المتكلمين أنعشت الحياة

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ص ١٣٦

Nicholson ; Literary Hist. of Persia. p. 337.

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٤٥٨

الثقافية فى بغداد ، ولكن ظهرت مشكلة ـ كما سنرى ـ أثارت جدلا كبيراً بين المتكلمين وأهل الحديث وهى مسألة القول بخلق القرآن ، هل هو مخلوق أو قديم ؟ لذلك كانت أهمية المتكلمين هو الرد على أهل البدع والضلالات ، فدونوا الأدلة العقلية دفاعاً عن الدين(١) .

لاقى المتكلمون ـ وقوامهم المعتزلة ـ معارضة شديدة فى بغداد ، لأنهم آمنوا بسلطان العقل وتحكيمه فى كل الأمور ، وقد استخدموا ما توصلوا اليه من تقدم علمى ـ خصوصاً فى الفلسفة والمنطق ـ فى آرائهم الدينية ، وهاجموا أهل السنة بشدة وضراوة ، وأثاروا مسائل كبيرة فى الالهيات والطبيعيات والسياسات ، وكان لهم مقدرة كبيرة على الجدال والإقناع والحوار بمهارة فائقة .

أضعف من شأن المتكلمين فى العصر العباسى الأول فى بغداد، معارضة الخلفاء العباسيين الأوائل للاعتزال ، فكان عمرو بن عبيد من أبرز المعتزلة فى عهد المنصور ، يتجنب المنصور ، لأنه يدرك مدى معارضته للمعتزلة(٢) .

كذلك كره الرشيد المعتزلة ، فلما أدرك أن الشاعر العتابى من المعتزلة، عظم عليه ذلك وأنكره ، ولما أدرك أن الرشيد يعتزم التنكيل به غادر بغداد ، ولم يكن للمتكلمين الحرية فى عهد الرشيد فى إبداء آرائهم فقد نهى عن الجدال فى الدين وزج من خالف ذلك فى السجن(٣) .

على أن المعتزلة ارتفع شأنهم وانتعشوا فى عهد المأمون لأنه أيد المعتزلة واعتنق مبادئها ، وسار المعتصم على نهجه ، كما أن الواثق كان يؤمن بآراء المعتزلة .

---

(١) أحمد أمين . ضحى الإسلام جـ ٣ ص ٨٩ — ٩٠
(٢) ابن قتيبة . عيون الاخبار جـ ٢ ص ٢٣٧
(٣) الجهشيارى . الوزراء والكتاب ص ٢٩٠

ويجمع المؤرخون على أن بشر بن المعتمر مؤسس الاعتزال فى بغداد ، غضب الرشيد منه فقال : بلغنى أن بشراً يقول : القرآن مخلوق ، والله ان أظفرنى الله به لأقتلنه ، فأقام بشراً متوارياً أيام الرشيد .

وقد تتلمذ عليه كثيرون مثل أبو موسى المردار وثمامة بن الأشرس وأحمد بن أبى دؤاد وكانت لهم صلات قوية بالمأمون[١] .

أما أبو موسى فيرجع اليه الفضل فى انتشار الاعتزال فى بغداد ، كان ورعا زاهدا فصيح اللسان قوى البيان ، واعظا وقصاصا موفقا وله تلميذان ساهما بنصيب كبير فى نشر آراء المعتزلة فى بغداد ، يقال لهما الجعفران ، وهما جعفر بن مبشر ، وجعفر بن حرب سارا سيرة أستاذهما فى الورع والزهد والتقوى ، فلا غرو أن نرى هؤلاء العلماء الثلاثة يكثر أنصارهم الذين آمنوا بآرائهم بعد أن رأوا حسن سيرتهم .

ومن أشهر المتكلمين فى بغداد أبو الهذيل العلاف ، يرجع اليه الفضل فى إدخال الفلسفة على مبادىء المتكلمين ، كان واسع الاطلاع ، فصيح القول ، قوى البيان ، يستشهد بالشعر العربى فى مناظراته ، درس الفلسفة اليونانية ، واستفاد منها فى مناقشاته وإبداء آرائه ، وقد جادل الزنادقة والمجوس وضعاف العقيدة ، وبلغ من قوة إقناعه وتأثيره أن أسلم على يديه ثلاثة آلاف رجل[٢] .

كما أن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندى ، كان من الفضلاء فى عصره ، وله عدة كتب فى علم الكلام تزيد على المائة ، وقد انفرد بآراء نقلها عنه أهل الكلام فى كتبهم[٣] .

وكان النظام واسع الأفق ، متعدد الثقافات ، قوى الحجة ، مقنعاً ،

(١) الخطيب البغدادى . تاريخ بغداد حـ ٧ ص ١٢٧

(٢) دى بور ، تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ٥١

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ... ص ٢٨

قوى التأثير تتلمذ على ابن هذيل العلاف ، لعب دوراً كبيراً فى مناهضة البدع والخرافات التى تفشت بين الناس فى بغداد ، اتبع الأسلوب العلمى فى إثبات صحة آرائه ، ودافع عن الإسلام بالمنطق والبرهان القاطع ، وأظهر للملحدين والخارجين على الدين خطأ اتجاهاتهم بالأدلة المقنعة .

والنظام أستاذ الجاحظ ، وقد شابه أستاذه فى اعتماده على النقل وسعة اطلاعه ودراسته للفكر اليونانى ، وسعة ثقافته .

ومن المتكلمين فى بغداد ثمامة بن الأشرس - إمام أهل الفكر الحر فى العصر العباسى الأول - وفلسفة ثمامة تقول بأن الله فعل العالم بطباعه أى أوجد العالم بذاته لا بإرادته . ويقول أن كل معارفنا ضرورة لا شأن للصدفة فيها ، ومن لم يضطر إلى معرفة الله عن إقناع ومنطق لم يكن مأموراً بالمعرفة وفى هذا وذاك لبس وغموض يجب أن يزول - أى أن من لم يعرف الله معرفة ضرورية ليس عليه أمر ولا نهى ، أى لا يكون مكلفاً بل مخلوقا للسخرة ، ويكون لهذا الجهل معذوراً لا يستحق ثواباً ولا عقاباً(١) .

وكان الجاحظ كشيخه أبى إسحاق ابراهيم بن سيار النظام من أوائل المعتزلة والذين درسوا فلسفة اليونان ، وكان يستشهد فى أحكامه بالتاريخ وتجاربه ولا يرضى عن الأحكام القائمة لمجرد النظر .

وكان الجاحظ عالما بالطبيعة والإنسان ، وكتابه الحيوان وثيق الصلة بالكلام لأن المؤلف سعى إلى إظهار وحدة الطبيعة وإلى أن الأجزاء المكونة لها متساوية القيمة فى نظر الرائى(٢) .

اشتهل المأمون فى بلاطه عصراً من النقاش المستنير لم يسمع به من قبل ،

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) المصدر السابق .

ذلك أن المأمون كان ليبراليا فى الفكر بمثل ما كان كريماً فى الأخلاق ، ولم يكن يحب شيئاً أكثر من أن يجادل العلماء علنا حول أقوى وأدق المسائل الخلافية فى الدين - هذه المناقشات التى أجريت عمداً مع الفقهاء وعلماء الدين من جميع المدارس الفكرية قادته إلى الاعتقاد بخلق القرآن ، وذلك على خلاف التعليم التقليدى ، أما أن الله سبحانه وتعالى أوحى به وأنزله ، فهذا ما سلم به بسهولة ، ولكنه لم يستطع ولم يكن ليسهم فى الفكرة الخفية التى تذهب إلى أن القرآن كان كلمة الله غير المخلوقة أنزلت من السماء عن طريق جبريل ، وانطلاقا من هذا أعلن المأمون صحة المذهب القائل أن الحياة ليست مقدرة من قبل وأن الإنسان وهب إرادة حرة (١) .

وكان المأمون مثقفاً ثقافة واسعة ، ولقد تأثر بالفكر اليونانى الذى شجع على ترجمة الكثير منه إلى العربية ، لذلك اعتنق مذهب المعتزلة الذى يعتمد على العقل والمنطق ، وقرب المعتزلة إليه مثل أحمد بن أبى دؤاد ، وكان منطقياً راجح العقل وقوى نفوذه فى قصر الخلافة (٢) .

حمل المأمون الناس على القول بخلق القرآن ، وناهض القائلين بأن القرآن قديم قدم الله تعالى ، ففى سنة ٢١٨ هـ أمر المأمون عامله على بغداد بأن يمتحن الناس فى القول بخلق القرآن ، وأمره بأن يعاقب من يعارض القول بخلق القرآن ، « فكتب إليه : « إن من حق الله سبحانه وتعالى وأئمة المسلمين على خلفائهم الاجتهاد فى إقامة دين الله الذى استحفظهم ، ومواريث النبوة التى أورثهم ... وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشو الرعية ، وسفلة العامة ... ساروا بين الله تبارك وتعالى وبين ما أنزل من القرآن فأطبقوا مجتمعين ، واتفقوا غير متعاجين على أنه قديم ، أو لم يخلقه الله ، ويحدثه ويخترعه ... ثم هم الذين جادلوا

---

(١) أنتونى ناتنج : العرب ص ١٢٢

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص : ٢

بالباطل ، فدعوا إلى قولهم ونسبوا أنفسهم إلى السنة ... فاستطالوا بذلك على الناس ، وغروا به الجهال ... فأجمع من بحضرتك من القضاة ، واقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين هـذا إليك ، فابدأ بامتحانهم فيما يقولون وتكشيفهم عما يعتقدون فى خلق الله القرآن وأحداثه[1] .

وعلى الرغم من تشدد المأمون فى حمل الناس على القول بخلق القرآن فإن بعض العلماء رفضوا رأى الخليفة ، وأصروا على أن القرآن قديم وتعرضوا للأذى بسبب إصرارهم وأوصى المأمون قبل وفاته المعتصم بحمل الناس على القول بخلق القرآن ، فلما ولى المعتصم الخلافة سار سيرة المأمون فى القول بخلق القرآن ، على الرغم من ضآلة ثقافته ، وإغفاله مجالس المناظرة ، ومجالسة العلماء ، كما كان الحال فى عهد سلفه .

اشتد المعتصم مع المعارضين للقول بخلق القرآن ، ومن الذين اشتد فى عقوبتهم ، أحمـــد بن حنبل ، فعلى الرغم من أنه تعرض للضرب المؤلم والتعذيب إلا أنه أصر على امتناعه ورفض أن يستجيب لمطلب بعض الذين أشفقوا عليه بأن يقول بخلق القرآن تقية وقال : إذا أجاب العالم تقية ، والجاهل يجهل ، فمتى يتبين الحق؟ وأصر الرجل على امتناعه ، حتى أعجب الناس بقوة عقيدته ، وكان أحمد بن حنبل يقول بأن الله قديم وليس كمثله شىء . ولا يقول بخلق القرآن لأن الله لم يقله ورسوله لم يدع إليه .

وعلى الرغم من أن الذين عارضوا القول بخلق القرآن تعرضوا للقتل بأمر من المعتصم إلا أن هذا الخليفة لم يعاقب ابن حنبل بمثل ما عاقب به غيره ، لأنه خشى أن يحدث قتله فتنة نظراً لالتفاف الناس حوله بعد أن أعجبوا بصلابته ، كما أن المعتصم نفسه أعجب بشجاعته وثباته على ما يعتقد

---

(١) الطبرى : تاريخ الأمم والملوك حوادث سنة ٢١٨ هـ

أنه الحق ، واكتفى بضربه . ثم أمر بالافراج عنه ، ذلك أن المعتصم عقد مجلساً لمناظرة الإمام أحمد بن حنبل ، وقال له :لولا أنك كنت فى يد من كان قبلى لم أتعرض إليك ، ثم بدأت المناظرة وقال ابن حنبل : القرآن من علم الله ، ومن زعم أن علم الله مخلوق فقد كفر بالله وكان صوته يعلو على صوت مناظريه . وتغلب حججه حججهم ، وفى أثناء هذه المناقشة كان الخليفة يتلطف ويقول للإمام أحمد أجبنى إلى هذا حتى أجعلك من خاصتى وممن يطأ بساطى ، ولكن الإمام أصر على وجهة نظره ، واحتج على مناظريه حين أنكروا الآثار بقوله (« يا أبة لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئاً ») وبقوله تعالى(« وكلم الله موسى تكليماً ») ونحو ذلك من الآيات البينات ، فلما لم يقم لهم معه حجة طلبوا من الخليفة عقابه ، فضرب بالسوط ، على أن المعتصم ندم على ضربه ، وأرسل إليه طبيباً فى منزله لعلاجه ، وجعل يسأل النائب عنه ، والنائب يستعلم خبره ؛ فلما عوفى فرح المعتصم والمسلمون بذلك [1] .

بلغ من اهتمام المعتصم بحمل الناس على القول بخلق القرآن ، أن أمر عماله بتعليم الصبيان ما ذهب إليه . وعزل كل من يلى وظيفة يقول بغير مقالته . ولما ولى الواثق الخلافة سار على سياسة أبيه فى حمل الناس على القول بخلق القرآن .

ظل الناس فى بغداد وفى سائر الدولة العباسية يحملون على القول بخلق القرآن حتى ولى المتوكل الخلافة فعارض مذهب المعتزلة ، وأمر بوقف الكلام والمناقشات فى موضوع خلق القرآن ، وفى آراء المعتزلة وأقوالهم أيضاً ، وبذلك انتهى ما أسماه المؤرخون المسلمون محنة القرآن .

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج ١٠ ص ٣٤١-٣٤٢

العلوم الادبية :

لما تأسست بغداد أقبل عليها العلماء والأدباء خصوصاً من البصرة والكوفة ، وأقاموا بها ، وحظوا بتشجيع الخلفاء وكبار رجال الدولة ، وساهموا بنصيب كبير فى ازدهار الحياة الأدبية فى بغداد . ومن أشهر أدباء بغداد ، الأصمعى الذى نشأ بالبصرة ، وتتلمذ على علمائها واستفاد منهم ، ثم إلى الباديه ، وحفظ الكثير من أقوال العرب ونوادرهم وأشعارهم . ورحل إلى بغداد . حيث استقر به المقام هناك ، ونال شهرة كبيرة لمقدرته الفائقة على شغل أوقات الخلفاء وكبار رجال الدولة بالمسامرات الشيقة ، واتصل بالرشيد ونادمه . وأخذ الكثير من الأدباء عنه فى اللغة والأدب . كذلك دخل فى مناظرات كثيرة مع العلماء . وقال عنه الشافعى : « ما عبر أحد عن العرب بأحسن من عبارة الأصمعى[١] . وكان لوجوده فى القصور وبين يدى الخلفاء والأمراء . وقيامه بمهمة منادمتهم وحسن استعداده لذلك أن روى الشىء الكثير عن حياة العرب الاجتماعية فى أسلوب قصصى تناقله أهل العراق وسائر أهل الأمصار[٢]

ووفد على بغداد فى عهد الخليفة المهدى أبازيد الأنصارى الذى تثقف فى مدرسة البصرة ، وكان ثقة فيما يروى عن أخبار العرب. يلتزم الصدق فى الرواية . ولو كانت نادرة ، غريبة ، لذلك فقد أمد النحو بالشواهد الكثيرة التى رواها عن العرب ، وفى عهد المهدى أيضاً نبغ أبو الفضل الضبى الذى صنف كتاب المفضليات ، وأهداه للخليفة المهدى[٣]

ومن أدباء بغداد أبو عبيدة معمر المثنى . وهو من أصل فارسى . وكان يهوديا لذلك تنوعت ثقافته . فكان عالما بأيام العرب وأخبارهم وعلومهم ،

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان ج ١ ص ٣٢٢

(٢) أحمد أمين ، ضحى الإسلام ج٢ ص ٣٠٠

N. Choison ; Literary Hist of Persia p. 286

وبالثقافة الفارسية . فضلا عن معارف اليهود ، واسع الاطلاع ، غير أن شعوبيته ظهرت أحياناً فى مؤلفاته . إذ عاب على العرب أحيانا فى مصنفاته ، وقد قدم إلى بغداد فى عهد الخليفة الرشيد ، ومكنه إسحاق بن إبراهيم الموصلى من التردد على قصر الخليفه ، وقربه إليه ، وكان الفرس فى بغداد يرفعون من شأنه لأنه منهم ، ويفضلونه على الأصمعى العربى الأصل(١)

كذلك قدم إلى بغداد . الكسائى — الذى سبقت الإشارة إليه — وأصله فارسى نشأ بالكوفة . وقدم إلى بغداد فى عهد الرشيد . وأسند إليه مهمة تأديب ولديه الأمين والمأمون وقد نبغ فى اللغة والنحو وبلغ من تقدير الرشيد له أن رفع شأنه . فبعد أن كان من طبقة المؤدبين . ارتفع إلى طبقة الندماء(٢)

ومن أعلام الأدب فى بغداد الفراء تلميذ الكسائى ، وقيل لولا الفراء ما كانت العربية لأنه خلصها وضبطها ، ولولاه لسقطت العربية . لأنها كانت تتنازع ، ويذهبها كل من أراد ، ويتكلم الناس فيها على مقادير عقولهم وقرائحهم . فشرح الفراء النحو بطريقة واضحة مبسطة يستفيد منها الخاص والعام ، وبالإضافة إلى تمكنه من الفقه والنحو فإنه كان عالما بالنجوم والطب وأيام العرب وأشعارها(٣)

اتصل الفراء بالمأمون ، فأمره أن يؤلف ما جمعه من أصول النحو ، وما سمع من العرب ، وأفرد له حجرات فى قصره ليقيم فيها ، وظل سنتين حتى انتهى من مؤلفه(٤)

---

(١) ابن النديم ، الفهرست ص ٩٧
(٢) ياقوت ، معجم الأدباء جـ ٥ ص ١٨٣
(٣) ياقوت ، معجم الأدباء جـ ٧ ص ٢٨٦
(٤) ابن خلكان . وفيات الأعيان جـ ٥ ص ٢٤٥

وليس مجال هذا البحث التاريخي مناقشة الاتجاهات الأدبية لمدرستي الكوفة والبصرة ، إنما يعنينا في هذا المقام إبراز أثر هاتين المدرستين على بغداد ، فالخلفاء والأمراء العباسيون اعتمدوا على الكوفة في تأديب أولادهم ، لذلك وفد الكوفيون بكثرة إلى بغداد وتخيروا ما يناسب مجالس السمر والمنادمة من أقوال ، لذلك نراهم يتجهون باللغة والعلم اتجاها جديداً فيه البساطة والوضوح أكثر مما فعله البصريون ، وانتهى النزاع بين المدرستين - أقصد مدرستي الكوفة والبصرة - إلى اندماجهما في مدرسة واحدة ، وهي مدرسة بغداد(١) .

ظهر في العصر العباسي الأول أدباء مشهورون مثل عبد الله بن المقفع، كان شاعراً في نهاية الفصاحة والبلاغة ، ترجم من الفارسية إلى العربية ، لأنه كان ضليعاً في اللغتين ، وقد ترجم كتباً منها كتاب كليلة ودمنة الذي ترجمه من أقاصيص كتبت باللغة السنسكريتية - وهي اللغة الهندية القديمة ، ويعد هذا الكتاب من أقدم كتب النثر في الأدب العربي ويمتاز بقوة الأسلوب ومتانة العبارة ، وله كتاب مزدك وكتاب التاريخ في سيرة أنو شروان وكتاب الأدب الكبير(٢)

ومن أدباء بغداد المشهورين ابن قتيبة الدينوري ، شب في بغداد منتدى الأدب ومهد العلم يومئذ ، فتفرغ للدرس ، وجد في التحصيل على علماء الحديث وأئمة اللغة والرواية وشيوخ الأدب حتى صار أحد العلماء الأذكياء وحجة في اللغة والأخبار وأيام الناس وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتأليف ، ولقد أجمع العلماء على تقدير قيمة مصنفات ابن قتيبة وأنها عظيمة القدر جليلة النفع ، وأشهر مؤلفاته المطبوعة

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ٢ ص٣١٢

(٢) ابن النديم : الفهرست ص١٧٢

وعيون الأخبار وطبقات الشعراء وتاريخ ابن قتيبـــة وقد توفى سنة ٢٧٦ هـ(١) .

وأما عمرو بن بحر الجاحظ ، فقد عرف بحرية الفكر والميل إلى الاعتزال ولد بالبصرة ، وتثقف فى اللغة والنحو والأدب ، وشغف بالقراءة حتى قيل إنه لم يقع فى يده كتاب إلا استوفى قراءته ، وكان يكترى دكاكين الوراقين ، ويبيت فيها للقراءة ولم تقتصر ثقافته على العربية ، بل تثقف بالثقافة اليونانية والفارسية على يد أربابها(٢) وكان لتنقلاته الكثيرة فى البلدان أثرها بمعرفة أحوال الناس ، لذلك أعطى صورة واضحة عن الحياة الاجتماعية فى عصره ، ومن أشهر كتبه البيان والتبيين ، كتاب « الحيوان » كتاب « التاج فى أخبار الملوك » و « التبصر بالتجارة » . وألف فى علم الكلام كتاب « خلق القرآن » وفى المجالات العلمية ألف كتاب النبات وكتاب الحيوان ...

كذلك وجد الشعر رواجا كبيراً فى بغداد فى العصر العباسى الأول ، وظهر كثير من الشعراء ، ابتكروا منهجاً جديداً فى الشعر يختلف عن منهج الذين سبقوهم ، ومن أشهر شعراء بغداد أبو نواس ، نشأ فى البصرة واختلف إلى بعض شعراء هذه الأيام ودرس نحو سيبويه ، وتعلم غريب الألفاظ ، وأجاد فى جميع أنواع الشعر خصوصاً فى الخمر والغزل والصيد ، وسخر من الأطلال ، وخالف فى ذلك من سبقه من الشعراء الذين يبدأون شعرهم بالإشادة بذكرها ، وقد أثرت طريقته الشعرية وأساليبه وتصرفه فى أبواب النظم ، واستنباطاته للمعانى ، ونال تقدير الخلفاء ، وساعد نفوذه عندهم على نشر طريقته واعتنى بجمع شعره جماعة من الفضلاء(٣) .

---

(١) أنظر مقدمة كتاب عيون الأخبار لابن قتيبة .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ٣٣
(٣) المصدر السابق جـ ٢ ص ٣٠

ومن شعراء بغداد أبو العتاهية الذى نشأ بالكوفة ، وأقام فى بغداد وكان فى أول أمره يعمل بالتجارة ، ثم ظهرت براعته فى الشعر ، وأكثر شعره فى الزهد والأمثال وهو فى طبقة بشار بن برد وأبى نواس ، شعره لطيف المعانى سهل الألفاظ(١) .

أما أبو تمام فهو شامى الأصل ، سار شعره ، وشاع ذكره ، تقرب من المعتصم العباسى فدحه بقصائد أجازه عليها ، وقدمه على شعراء زمانه ، واتصف بالظرف وحسن الأخلاق وكرم النفس ، وعرف بنزعته العقلية والفلسفية ومن تلاميذه البحترى صاحب الأوصاف البديعة والمدائح الخالدة ، وابن الرومى الذى عرف عنه حسن التصوير للمعانى(٢) .

(١) ابن خلكان ؛ وفيات الأعيان حـ١ ص١٩٨

(٢) ابن كثير ؛ البداية والنهاية حـ١٠ ص ٣٠٠ .

حركة الترجمة وأثرها فى ازدهار الحياة الثقافية

ازدهرت ترجمة الكتب العلمية التى يسميها العرب الحكمة فى العصر العباسى الأول ، وبالذات منذ عهد الخليفة المنصور ، وقام بهذا الدور الكبير السريان الذين اقتبسوا الثقافة اليونانية من الاسكندرية وأنطاكية ، ونشروها فى الشرق فى مدارس الرها ونصيبين وحران وجند يسابور بالذات، وقد نشط السريان فى الترجمة عن الفلسفة اليونانية منذ القرن الرابع الميلادى حتى القرن الثامن(١) .

استفاد العرب من السريان الذين اشتغلوا بنقل الكتب من اليونانية إلى العربية، ونقلوا ما نقلوه أما عن التراجم السريانية القديمة ،أومن تراجم نقحوها ، ثم أقدموا على نشرها من جديد(٢) .

والخليفة المنصور أول خليفة ترجمت له الكتب من اللغات الأجنبية إلى العربية ومن بين هذه الكتب ، كتاب كليلة ودمنة ، وكتاب السندهند(٣) وترجمت له مؤلفات لأرسطو فى المنطق وغيره ،وترجم له كتاب المجسطى لبطليموس وكتاب أقليدس وكثير من الكتب القديمة من اليونانية والفهلوية والفارسية والسريانية ، وأخرجت الكتب المترجمة إلى الناس ، ونظروا فيها(٤) :

كانت الكتب الهندية تنقل إلى الفارسية ومنها إلى العربية ،وأما الكتب اليونانية فإنها قبل خلافة الرشيد تنقل عن السريانية أو الفارسية لأنها ترجمت اليهما ، أما الكتب اليونانية فلم يبدأ العرب ترجمتها مباشرة إلا منذ

---

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٢ .

(٢) المصدر السابق

(٣) Hitti ; Hist. of the Arabs. p. 378

(٤) المسعودى : مروج الذهب ج ٢ ص ٥٥٤ .

سنة ١٩١ هـ . ولم يكن العرب فى حاجة إلى ترجمة الآداب اليونانية ، لأن الآداب العربية غنية ، إنما نقلوا العلوم الطبية والفلكية والرياضية والفلسفية وهى العلوم التى كان العرب فى حاجة إليها .

ازدهرت حركة الترجمة فى عهد الخليفة الرشيد ، فكان من بين ما حصل عليه من غزواته المتعددة فى بلاد الروم الكتب النفسية .

ولما كان الرشيد محباً للعلم ، فقد أسند إلى إسحاق بن ماسويه مهمة ترجمة هذه الكتب ، ورتب له كتابا حذاقاً يكتبون بين يديه ، وخلفه أباسهل نوبخت الذى كان منجما للمنصور - وهو من أصل فارسى[١] ، وتولى منصب رئيس بيت الحكمة ، وكان ينقل من الفارسية إلى العربية ما يجده من الكتب الفارسية[٢] .

وثمة ملاحظة هامة ، وهو أن حركة الترجمه بدأت أولا فى نقل الكتب الفارسية إلى العربية ، لأن دولة العباسيين قامت على أكتاف الفرس ، وظهر وزراء فرس فى بغداد كانوا أصحاب نفوذ كبير فى الدولة العباسية . ولما كانت ثقافتهم فارسيه وعربية أيضاً ، فقد شجعوا حركة الترجمه من الفارسية إلى العربية ، وأنفقوا فى ذلك أموالا جمة .

على أن الترجمات التى تمت فى عهد المنصور والرشيد قد فقدت ولم يبق سوى الكتب التى ترجمت فى عهد المأمون .

شغف المأمون بالفلسفة اليونانية وخصوصا فلسفة أرسطو ، ولم يقدم المسلمون حتى أيامه على ترجمة كتب الفلسفة لاتهام أصحابها بالكفر والزندقة فلما قال المأمون بالاعتزال ، أمر بنقل كتب الفلسفة من اليونانية إلى العربية[٣] .

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ٣٨٢

(٢) ابن القفطى : اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٥٥

(٣) المصدر السابق ص ٢٩

نشطت حركة الترجمة فى عهد الخليفة المأمون ، ولم يكتف بترجمة الكتب المتوفرة لديه ، بل أرسل إلى الإمبراطور البيزنطى « تيوفيل » يطلب منه إرسال كتب الحكمة إليه ، فلما وصلته هذه الكتب ، إختار لها مهرة التراجمة وكلفهم بإحكام ترجمتها فترجمت له . ثم حث الناس على قراءتها[1] .

وكان يوحنا بن البطريق أمينا على ترجمة الكتب الحكمية ، حسن التأدية للمعانى ، وكانت الفلسفة أغلب عليه من الطب ، ويذكر ابن النديم[2] أن المأمون أرسل بعثة إلى القسطنطينية لشراء الكتب العلمية المخزونة المدخرة ، وكانت البعثة تتكون من يوحنا بن ماسويه وحنين بن اسحاق ، فجاءوا بطرائف الكتب وغرائب المصنفات فى الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب ، وقد شرع حنين فى نقل الكتب عن اليونانية إلى اللغتين السريانية والعربية ، ولقد أهله تعمقه فى اللغة اليونانية النقل إلى العربية ونقل عن أفلاطون وأرسطو وأبقراط ، وترجم لبطليموس .

أما إسحاق بن حنين فكان أوحد عصره فى علم الطب ، وكاد يلحق بأبيه فى البراعة فى الترجمة ، إلا أنه ترجم لأرسطو وغيره من الفلاسفة وأكثر ما ترجم فى الطب[4] وقد يسر مهمة البعثة تلك العلاقات الودية التى سادت بين الدولتين العباسية والبيزنطية قبل سنه ٢١٢ ﻫ أى قبل أن تناصر الدولة البيزنطية بابك الخرمى الثائر على الدولة العباسية[3] .

ويبدو أن البعثة كانت تتكون من طوائف ثلاثة بعثة الكتب الفلسفية

---

(١) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول ص٢٣٦

(٢) الفهرست ص٣٢٩

(٣) ابن النديم : الفهرست ص٣٣٩

ويرأسها يوحنا بن البطريق ، وكان فليسوفا أكثر منه طبيبا[١] ، وقد تولى ترجمة كتب أرسطو خاصة ، وطائفة للكتب الفلكية والرياضية ويرأسها الحجاج بن مطر ، وكان مختصا فى هذا الفرع وهو الذى نقل المجسطى وأقليدس ، وطائفة للكتب الطبية برئاسة يوحنا بن ماسويه[٢] وبهذا عادت هذه البعثة إلى بغداد محملة بكتب تشمل علوما متنوعة .

ولم يكن الخلفاء وحدهم يباشرون حركة الترجمة ، وينفقون عليها ، بل جاراهم فى ذلك كبار رجال الدولة مثل البرامكة وبنو سهل ، ومن أبرز من عنى بالترجمة فى بغداد محمد وأحمد والحسن أبناء موسى بن شاكر ، وكانت لهم همم عالية فى تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل ، وافنوا أنفسهم فى شأنها ، وأنفذوا إلى بلاد الروم من اشتراها لهم وأحضروا النقلة من الأصقاع الشاسعة والأماكن البعيدة ، بالبذل السنى فأظهروا عجائب الحكمة وأهم العلوم التى عنوا بترجمتها الهندسة والموسيقى والنجوم والفلسفة[٣].

وكان فرع الطب أهم العلوم التى عنى المترجمون بترجمته ، وأكثر ما عنوا به بعد الطب الحكمة ، أى القصص الجميلة ذات المغزى الخلقى أو النوادر ، أو الأقوال الحكيمة وكان يترجم هؤلاء العلماء ما يعجبنا نحن ، إذ كانوا يعجبون بهذه الأقوال ويجمعونها لما تحويه من حكمة أو لجمال أسلوبها وحسن عرضها[٤]

ولقسطا ين لوقا رسالة قصيرة فى الفرق بين النفس والروح ، ولم تؤثر الثقافة اليونانية فى العرب إلا عن طريق الرياضيات والطبيعيات والفلسفة ،

---

(١) القفطى / اخبار العلماء باخبار الحكماء ص٢٧٩

(٢) المصدر السابق ص ٣٨٠

(٣) ابن خلكان وفيات الأعيان ج٤ ص٢٤٧

(٤) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص٣١

وقد عرفوا شيئا عن أطوار الفلسفة اليونانية ، ولكن هذه المعرفة كانت مشوبة بأساطير كثيرة (١) .

على أن العرب استفادوا كثيراً من فلسفة سقراط وأفلاطون وأرسطو فأفلاطون على ما عرف العرب كان يقول بحدوث العالم وبقاء النفس وكونهما جوهراً روحيا ، وهذه آراء لا تتعارض مع عقيدة المسلمين ، أما أرسطو فكان يقول بقدم العالم ، ومذهبه فى أمر النفس وفى الأخلاق أقل روحانية من مذهب أفلاطون ، فكان العرب يرون فيه تعارضا مع تعاليم الإسلام حتى لقد صنف بعض المتكلمين كتبا للرد عليه (٢)

ويروى أن يوحنا ، أو يحى بن بطريق ، أخرج ترجمة قصة طيماوس لأفلاطون وأنه ترجم أيضا كتاب أرسطو فى الآثار العلوية ، وكتاب الحيوان وأجزاء مأخوذة من كتاب النفس ، وترجم كتابه فى العالم .

وكان حنين بن اسحاق وابن أخته حبيش بن الحسن أوفر المترجمين إنتاجا ، ونظراً لأنهم كانوا يشتغلون معا فإننا نجد كتبا كثيرة تنسب للواحد منهم تارة ولواحد آخر منهم تارة أخرى . وشملت ترجمتهم كل علوم ذلك الزمان ، وكانوا يصلحون التراجم الموجودة ويترجمون كتبا جديدة وكان حنين يؤثر ترجمة كتب الطب ، أما ابنه اسحاق فكان أميل إلى ترجمة كتب الحكمة (٣)

على أن حركة الترجمة كانت سلاحا ذا حدين ، أفاد العلم من ناحية وأضر بعقائد بعض الناس من ناحية أخرى ، فقد أدت الترجمة إلى تداول الناس لكتب مانى وابن ديصان التى نقلها ابن المقفع وغيره من الفارسية

---

(١) المصدر السابق ص ٣١

(٢) المصدر السابق ص٣٣

(٣) المصدر السابق ص٣٠ .

John Glubb : The Empire of the Arabs. p. 333

إلى العربية ، فكثر بذلك الزنادقة ، وظهرت آراؤهم فى الناس ، فأمعن المهدى فى تعقبهم والتنكيل بهم . وأمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب للرد على الملحدين من الجاحدين وغيرهم ، وأقاموا البراهين على المعاندين(١) .

ومما لا شك فيه أن حركة الترجمة أوجدت مجالا خصبا للدارسين فى مختلف فروع العلم ، ويسرت لهم الاطلاع على كتب العلماء السابقين ، فاستفادوا منها ، وأضافوا إليها تجاربهم ومعارفهم ، الأمر الذي دفع العلوم الطبيعية دفعة كبيرة إلى الأمام .

العلوم العقلية

يقول ابن خلدون العلوم الطبيعية لازمة للإنسان من حيث أنه ذو فكر وتسمى هذه العلوم عند العرب علوم الفلسفة والحكمة ، وهى مشتملة على أربعة علوم ، الأول علم المنطق ، وهو علم يعصم الذهن عن الخطأ فى اقتناص المطالب المجهولة من الأمور الحاصلة بالمعلومة وفائدته تمييز الخطأ من الصواب فيما يلتمسه الناظر فى الموجودات ليقف على تحقيق الحق فى الكائنات بفكره الحر ، ثم النظر بعد ذلك إما فى المحسوسات من الأجسام العنصرية المكونة عنها من المعدن والنبات والحيوان والأجسام الفلكية والحركات الطبيعية والنفس التى تنبعث عنها الحركات ، ويسمى هذا الفن بالعلم الطبيعى ، والعلم الإلهى هو علم ما وراء الطبيعة ، والعلم الرابع هو الناظر فى المقادير ويشتمل على علم الهندسة وعلم الموسيقى وعلم الهيئة .

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٤٠٥ .

(٢) مقدمة ابن خلدون ص ٥٩٦

١ — علم التاريخ :

بدأ المسلمون يدونون تاريخهم فى أواخر العهد الأموى . وقد قام فى بغداد فى العصر العباسى الأول رجال من طبقات الشعب لم يعيشوا فى كنف الخلفاء ، لذلك جاءت مؤلفاتهم فى التاريخ معبرة تعبيراً صادقاً عن أحوال المجتمع الذين يعيشون فيه ومظاهر تطوره .

اتخذ كتاب التاريخ فى صدر الإسلام من حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وما يتصل بها من غزوات مادة دونوا منها ما سمى كتب السيرة والمغازى ، لذلك فكان أول موضوع يتناول التاريخ الإسلامى سيرة الرسول ، وقد يسر تدوين الأحاديث وتبويبها لكتاب التاريخ أمر جمع مادة غزيرة عن سير ومغازى الرسول ، فكان منها باب يسمى باسم السير والمغازى وسراياه أى الغزوات التى أرسلها دون أن يشترك فيها .

والمؤرخون الذين صنفوا مؤلفاتهم فى بغداد اتسعت دائرة معارفهم عن سبقهم لأن السابقين لهم كانوا يعتمدون على الحديث فقط فى كتاباتهم أما هؤلاء — الذين سنشير إليهم — فقد تكون عندهم مادة غزيرة ترجع إلى اختلاط العرب بالنصارى واليهود الذين دخلوا فى الإسلام ، فضلاً عن ظهور طبقة القصاص الذين يحكون سير الرسول وأبطال المسلمين ، وبذلك لم يعد الحديث هو المصدر الوحيد للتاريخ بل تنوعت وتعددت مصادره ، وكان على مؤرخى بغداد أن يضبطوا الحوادث التاريخية ، ويحسنوا عرضها .

ومن أشهر المؤرخين محمد بن اسحاق بن يسار ، وهو من أصل فارسى نشأ فى المدينة ، وأخذ الحديث عن علمائها ، وعنى بصفة خاصة بجمع الأحاديث التى تتناول سير الرسول ومغازيه ، قال الشافعى عنه : من أراد أن يتبحر فى المغازى فهو عيال على ابن اسحق(١) . وبلغ من ثقة الخليفة

(١) ابن خلكان وفيات الأعيان ج٣ ص ٤٠٥ .

المنصور به أن عهد إليه بتصنيف كتاب فى التاريخ لابنه المهدى يبدأ منذ بداية الخليقة إلى يومه ، وقام ابن اسحاق بهذا العمل الجليل ، وقدم الكتاب للمنصور مرفقا بموجز له(١) .

اعتمد ابن اسحاق فى كتابه المغازى على الأحاديث النبوية التى أخذها من الرواة فى مصر والمدينة المنورة ، والأخبار التى رددها الثقاة ، وترجع أهمية هذا الكتاب فى أن عبد الملك بن هشام اعتمد عليه فى كتابه عن السيرة ، لذلك يمكن الإلمام بكتاب ابن اسحاق بصورة مختصرة فى كتاب ابن هشام ، واعتمد على ابن اسحاق كذلك كل من تكلم فى السير والمغازى « فعليه اعتماده وإليه إسناده » (٢)

ينقسم كتاب ابن اسحاق فى المغازى إلى ثلاثة أقسام : المبتدأ والمبعث والمغازى ، والمبتدأ يشمل تاريخ العرب قبل الإسلام واعتمد على القصص والأساطير ، وخصوصا ما رواه العلماء اليهود والنصارى ، وأشار إلى قبائل العرب البائدة مثل عاد وثمود والرسل التى بعثت إلى تلك القبائل ، ونقل عن التوراة والإنجيل نقلا حرفياً ، وينقل بصفة خاصة عن وهب ابن منبه ، وذكر أيضاً عبادة الأصنام عند العرب فى الجاهلية ، وقبيلة قريش وشيوخها قبل الرسول (٣).

ويتضمن المبعث بعثة الرسول ، واعتمد على أخبار أهل المدينة ، وأضاف فى كتاباته معلومات دقيقة ، ووثائق على جانب كبير من الأهمية مثل الوثيقة التى منحها الرسول لأهل المدينة واليهود بها ، وتنظيم المجتمع الجديد بالمدينة ، أما المغازى فتتضمن غزوات الرسول والسرايا وجهاد

(١) الخطيب البغدادى : تاريخ بغداد جـ١ ص٢٢١
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٣ ص٤٠٥
(٣) ابن النديم : الفهرست ص٩٢

المسلمين فى سبيل الدفاع عن الإسلام ونشره ، غير أن المحدثين أخذوا عليه أنه كان لا يتقيد بإسناد الحديث لأنهم يشددون فى نسبة كل جزء من الحديث إلى قائله . ولقد عاب ابن حنبل على ابن اسحاق توسعه فى نقل الأخبار ، وقال : إنه يجمع كتب الناس ، ويضعها فى كتبه .

يأتى بعد ابن اسحق فى الأهمية فى بحثنا عن مؤرخى بغداد ، محمد ابن عمر الواقدى ، كان من أهل المدينة انتقل إلى بغداد ، وولى القضاء بها فى عهد الخليفة المأمون بالرصافة ، وكان عالما بالمغازى والسير والفتوح واختلاف الناس فى الحديث والفقه والأحكام والأخبار ، وتوفى سنة ٢٠٧ هـ ، وله من الكتب كتاب التاريخ والمغازى ، وأخبار مكة ، وكتاب الطبقات . وفتوح الشام ، فتوح العراق ، مقتل الحسين عليه السلام ، كتاب السيرة .. الخ(١) ، وقد روى أخباره عن علماء المدينة مثل مالك ابن أنس ، وقد استدعاه المهدى إلى بغداد وأمره بأن يفقه الناس ، وأجزل له العطاء ، ويقول عنه البغدادى(٢) : « ولم يخف على أحد عرف أخبار الناس أثره وسار الركبان بكتبه فى فنون العلم من المغازى والسير والطبقات وأخبار النبى والأحداث التى كانت فى وقته وبعد وفاته.

وقد نبغ الواقدى — كما يتضح مما سبق — فى التاريخ ، فكان لا يدع رجلا من أبناء الصحابة أو أبناء الشهداء ولا مولى لهم إلا وسألهم عما يعلمونه من أحداث التاريخ وأطلع على جميع المدونات والروايات التى جمعها من سبقه من مؤرخى سيرة الرسول ومغازيه ، وكان لا يقتصر على النقل من الرواة ، وإنما ينتقل بنفسه إلى أماكن مغازى الرسول فالواقدى أول من رتب التاريخ حسب السنين ، ولقد استفاد الطبرى فى تاريخه من

---

(١) ابن النديم : الفهرست ص ١٤٤

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٣ ص ٤١٠

مؤلفات الواقدى ، وكان ابن اسحاق لا يذكر تواريخ الأحداث الأمر الذى يعقد من قراءتها .

ولقد استفاد كاتبه ابن سعد من كتابه فى طبقات الصحابة والتابعين ، وسار على منواله ، وحرص على الوصول إلى المصدر الصحيح . ولم يبق من كتب الواقدى سوى كتاب المغازى .

ويذكر فى أول كتابه شيوخه الذين أخذ عنهم مغازيه بعد مقدمة حدد فيها اليوم الذى هاجر فيه الرسول إلى المدينة ، ثم أورد فصلا عن مغازى الرسول وسراياه، ثم انتهى إلى إيجاز غزوات الرسول ، وبعد هذه المقدمة تحدث عن كل غزوة من الغزوات التى أجملها . تفصيلا ، والواقدى من أعلم الناس فى عصره بالمغازى والسير ،حجة فى التفسير والفقه والحديث، وقد اعتمد عليه الطبرى فى تاريخه(١) .

أما محمد بن سعد — كاتب الواقدى — فقد روى عن أستاذه ، واعتمد فى كتبه على تصنيفات الواقدى ، وكان ثقة عالما بأخبار الصحابة والتابعين، وتوفى سنة ٢٣٠ هـ(٢) ، واشترك مع أستاذ الواقدى فى بعض مؤلفاته ، ومن أحسن كتبه كتاب الطبقات ، وقد قدم له بالحديث عن العصر الجاهلى الأمر الذى تخطاه الواقدى ، وكان الواقدى يبدأ — كما قلنا — بهجرة الرسول ، وتضمن فى الجزء الأول والثانى من كتاب الطبقات لابن سعد موضوع سيرة الرسول ومغازيه ، وأفرد الأجزاء الستة الأخرى للصحابة والتابعين ، وترجع أهمية كتابه إلى أنه تحرى الدقة فى كثير من مؤلفاته(٣) .

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام جـ٢ ص٣٣٧

(٢) ابن النديم : الفهرست ص١٤٥

(٣) البغدادى : تاريخ بغداد جـ٥ ص٣٢١

ومن مؤرخي بغداد الهيثم بن عدى كان عالمـــا بالشعر والأخبار والأنساب والمناقب والمآثر ، وتوفى بفم الصلح سنة ٢٠٧هـ عند الحسن بن سهل ، وله من التصانيف كتاب بيوتات قريش ، كتاب الدولة ، بيوتات العرب ، نزول العرب بخراسان والسواد ، تاريخ العجم وبنى أمية(١) .

ومن الرواة المشهورين على بن محمد المدائنى ، وكان من رفاق اسحاق ابن ابراهيم الموصلى ، وله كتب فى أخبار قريش وأخبار الخلفاء والفتوح وكتب فى أخبار العرب وكتب فى الشعراء . وقد اندثرت كتبه ، ولم يعد منها إلا ما رواه الطبرى أو البلاذرى والمسعودى وابن عبد ربه عنها . وبالجملة فقد كان عالماً بأيام الناس وأخبار العرب وأنسابهم ، وبالفتوح والمغازى ورواية الشعر (٢) .

ومن مؤرخى بغداد أحمد بن يحيى بن جابر المعروف بالبلاذرى ، اشتغل منذ نعومة أظفاره بتأليف كتاب جامع لتاريخ الدولة الإسلامية أتى فيه على الحقائق التاريخية ونجح فى هذا الموقف الحرج نجاحا تاما لأنه لم يتعصب لخليفة ، ومن مصنفاته ترجمة عهد أردشير من اللغة الفارسية إلى العربية ، ولم يقتصر على مجرد الترجمة بل وضعه فى قالب علمى يفيد القارىء وله كتاب أنســاب الأشراف ، ووضع كتابين تحت عنوان الفتوحات أحدهما كبير والآخر مختصر ، ولم يصلنا سوى المختصر ، ومن تلاميذه ابن النديم صاحب كتاب الفهرست .

علم الجغرافيا :

يعزو تقدم علم الجغرافيا فى بغداد إلى الاهتمام بالأراضى الأجنبية الذى أثاره التجار والملاحون العرب ، وإلى عظم مساحة الامبراطورية

---

(١) ابن النديم . الفهرست ص٥٤٥

(٢) البغدادى . تاريخ بغداد ج١٢ ص٥٥

Hitti : Hist. of the Arabs. p. 384.

العربية ، وكانت كتب بطليموس من أهم المصادر التى حرص العباسيون على الإستفادة منها ، وترجمها الكندى وغيره إلى العربية ، واستخدم الخوارزمى هذه المادة لإجراء أبحاثه ، وأخرج بدوره مؤلفه الجغرافى «وجه الأرض[١] ».

وفى أواخر العصر العباسى الأول ظهر الرحالة ، ومن أبرزهم ابن خرداذبه الذى عاش فى النصف الأول من القرن الثالث الهجرى ، كتب كتابه المسالك والممالك ، ويعتبر من أقدم الكتب العربية فى الجغرافيا ، وهو عبارة عن دليل يستفيد منه المسافرون فى الاهتداء إلى الطريق البحرى الذى يبدأ من مصب دجلة عند الأبله ويصل إلى الهند والصين[٢] .

ومما يدل على عناية المأمون بالبحث الجغرافى أنه جمع علماء عصره وأمرهم بوضع خريطة للعالم ، فوضعوا له خريطة دقيقة كانت أفضل مما تقدمها من دراسات فى جغرافية العالم على عهد بطليموس وغيره من علماء اليونان ، ولقد سميت بالمأمونية . كذلك أمر المأمون سبعين رجلا من علماء الجغرافيا بوضع كتاب فى الجغرافيا ، فصنفوا كتاباً أفاد منه ولاة الأقاليم فى الدولة العباسية إذ كان أشبه بدليل يرشدهم إلى مختلف البلاد والأمم[٣] ،

ومن الأبحاث الجغرافية التى أنجزت فى عهد المأمون، قياس محيط الأرض وقد قام به علماء بغداد ، وقدروه بنحو أربعة وعشرين ألف ميل ، وقد اختاروا لإجراء تجاربهم ، مكانين منبسطين فى صحراء سنجار وأرض الكوفة ، ونصبوا الآلات وقاسوا الارتفاعات والميل والأفق . وعلموا

---

(١) أنتونى ناتنج . العرب ص١٧٨

(٢) مقدمة كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبه .

(٣) ناتنج ، العرب ص١٧٨

أن كل درجة من درجات الفلك يقابلها ٢/٣ ٦٦ ميل ، وقياس العرب هذا هو أول قياس حقيقي أجرى كله مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة ، وخلص العلماء إلى أن الأرض مستديرة(١)

وتضمنت مجالس مناظرات الخليفة الواثق مناقشات جغرافية على جانب كبير من الأهمية تضمنت نظريات خاصة بالرياح ، وأنواعها واتجاهاتها والحرارة والبرودة ، وتأثرهما بالتضاريس من حيث الارتفاع والانخفاض والقرب أو البعد من البحر ، وفصول السنة(٢) .

علم الفلك :

هو علم ينظر فى حركات الكواكب الثابتة أو المتحركة ، ويستدل من تلك الحركات على أشكال وأوضاع للأفلاك لزمت عنها الحركات المحسوسة بطرق هندسية ، وكان اليونانيون يعنون بالرصد كثيراً ، ويتخذون له الآلات التى توضع ليرصد بها حركة الكواكب المعينة ، بقصد معرفة عللها والبرهنة على مطابقة حركتها بحركة الفلك(٣) .

عنى العباسيون فى بغداد برصد الكواكب والنجوم ، والخليفة المنصور - كما ذكرنا - وضع أساس مدينته فى الوقت الذى اختاره له المنجمون ، وبشروه بطول بقائها وازدياد عمرانها(٤) .

والمنصور أول خليفة قرب المنجمين ، وعمل بأحكام النجوم ، ومن منجميه نوبخت الذى أسلم على يديه ، وإبراهيم الفزارى صاحب القصيدة فى النجوم وغيرها من علوم الفلك وعلى بن عيسى الاسطرلابى المنجم(٥) .

---

(١) ابن خلكان ، وفيات الأعيان جـ٤ ص٢٤٧
(٢) عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم ص١٠٨
(٣) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٥٥٤
(٤) مقدمة ابن خلدون ص٤٨٧
(٥) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٥٥٥

وبلغ من شغف المنصور بعلم الفلك أن عهد إلى علماء الفلك بترجمة أعمال الإغريق والسريان والفرس والهنود، فترجم له كتاب «السند هند الكبير»، وظل هذا الكتاب فى بغداد أهم مرجع فى هذا العلم حتى عهد المأمون، فاختصره الخوارزمى وأضاف إليه إضافات من مراجع فارسية ويونانية، وضم إليه أبواباً مفيدة، واعتمد العرب على زيجه(١) وأخذوا منه فى وضع أزياجهم، وألف فى الفلك(٢) كما نقل يحيى بن البطريق فى عهد المنصور كتاب الأربع مقالات لبطليموس فى أحكام النجوم(٣).

وكان اهتمام المهدى بالنجوم لا يقل عن اهتمام أبيه المنصور فكان تيوفيل بن توما رئيس منجميه عالماً بالنجوم، وصنف فيها كتباً، وترجم كتاباً فى الفلك من اليونانية إلى السريانية وفى عهده تم تصحيح بعض أخطاء كتاب المجسطى لبطلميوس(٤).

وكان الفضل بن سهل - وزير المأمون - حجة فى علم الفلك ويقال أن النجوم دلته على أن الأمر سيصير للمأمون، لذلك تقرب إليه، وأخلص له، ولما ولى المأمون الخلافة قدر جهود الفضل بن سهل فى بلوغه الخلافة فاستوزره، وكان الفضل بن سهل أيضاً على علم بالنجوم، وقد علم بمؤامرة لاغتيال أخيه الفضل من خلال إلمامه بالنجوم. ولا يمكن قبول الروايات التى ترددت عن أن النجوم أنبأت الملمين بها عن الحوادث المستقبلة ولكن الناس كانوا فى ذلك العصر شغوفين باستطلاع الأخبار عن طريق النجوم.

---

(١) زيج، جدول فلكى.
(٢) ابن العبرى، تاريخ مختصر الدول ص ٢٢٠
(٣) المصدر السابق ص ٢٢٣
(٤) ابن القفطى. اخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٢١ — ٢٢٣

ومهما يكن من أمر فقد انتقلت علوم الإغريق فى النجوم إلى العرب وخاصة ماكتبه بطليموس عن الأرض والكواكب والشمس ، فقد نقلوا ـ كما قلنا ـ كتاب المجسطى ، وزادوا عليه ووافقوه فى بعض آرائه ! وخالفوه فى بعضها . قالوا : إن الأرض مركز الكون ، وأنها قائمة فى الفضاء ، وقالوا بدوران الشمس والقمر والنجوم حول الأرض، وأن القمر أقرب الأجرام السماوية إلى الأرض ويليه الكواكب الأخرى ، وأنها جميعاً تدور حول الأرض دورة كاملة كل يوم ، كما قاسوا أجرام الشمس والقمر والنجوم بطرق هندسية حسابية بما يقرب من الحقيقة . وقاسوا أبعادها عن الأرض . وقد أنشأ المأمون مرصداً فى الشماسية ببغداد وكان أساس تقدم العرب فى النجوم يرجع إلى المراصد التى أقاموها ، والأجهزة التى ابتكروها . على أن معظم المعدات الفلكية التى استخدموها مثل الاسطرلاب كانت فى الغالب مبنية على النماذج اليونانية ، وأجريت حسابات دقيقة فى الفلك . وعلى فروض تفرض لتعليل ما يرى من الظواهر الفلكية(١) .

وجدير بالذكر أن المراصد تضمنت آلات الاسطرلاب الذى يقيس ارتفاعات الكواكب من الأفق ، وتعيين الزمن ، وحل كثير من المسائل الفلكية . كما وضعوا الازياج ، وهى جداول فلكية تتضمن قوانين رياضية فيما يختص بكل كوكب عن طريق حركته ، مثل زيج البلخى وزيج الخوارزمى .

وكانت أبحاث يعقوب الكندى فى الفلك تسير على أساس علمى ، ولم يؤمن بالتنجيم وقد لاحظ أوضاع النجوم والكواكب وخاصة الشمس والقمر بالنسبة للأرض ، وما ينشأ عنها من ظواهر يمكن تقديرها من حيث

(١) منتصر ، تاريخ العلم عند العرب ص٢٠٨

الكم والكيف والزمان والمكان ، وربط بين ذلك ونشأة الحياة على الأرض في آراء توضح مقدرته العلمية الفائقة وله كتاب في البصريات ، وآخر في الموسيقى ووضع رسالة في زرقة السماء أوضح فيها أن منشأ هذا الكون الأضواء الناتجة عن ذرات الغبار وبخار الماء الموجود في الجو ، وله رسالة في المد والجزر وضعها على أساس تجريبي (١) .

ولقد صنف الكندي في الفلك رسائل علمية على جانب كبير من الأهمية حتى اعتبره بعض المؤرخين واحداً من ثمانية هم رواد العلوم الفلكية في العصور الوسطى (٢) .

ولم يكن الكندي عالماً في الفلك فحسب بل عالماً أيضاً في الطب والفلسفة والمنطق والرياضيات ، وكان مهندساً وطبيباً وفيلسوفاً ، وقد عهد إليه المأمون بترجمة كتب أرسطو .

وكان الكندي منصرفاً إلى الحياة العلمية عاكفاً على طلب الحكمة ينظر فيها التماساً لكمال نفسه . ويقول العاقل من يظن أن فوق علمه علما ، فهو أبداً يتواضع لتلك الزيادة ، والجاهل يظن أنه قد تناهى فتمقته النفوس (٣) .

وللكندي مؤلفات تزيد على المائتين في الفلسفة والفلك والحساب والهندسة والطب والطبيعيات والموسيقى والنفس والمنطق والصيدلة والمد والجزر وعلم المعادن والجواهر (٤) .

كذلك اهتم جابر بن حيان بدراسة علم الفلك ، وتوصل إلى أن الكواكب السبعة تختلف في مقدار الحرارة التي تستمدها من الشمس باختلاف قربها منها أو بعدها عنها فالشمس هي التي تمد الكواكب كلها

---

(١) المصدر السابق

(٢) ابن النديم : الفهرست ص٣٨٣

(٣) ابن النديم : الفهرست ص٣١٠

(٤) Hitti, Hist. of the Arabs. p. 370

بالحرارة والنور . والشمس وسط بين الكواكب فتصل حرارتها إلى الكواكب كلها ، وعلى قدر القرب أو البعد من الشمس تكون حرارة الكوكب : ودرس كل كوكب من حيث ظواهره الطبيعية وخصائصه ، كما درس خصائص البروج .

ومن أبرز من تصدى لعلم الفلك فى بغداد جعفر بن محمد بن محمد بن عمر البلخى ، وكان أمام وقته فى فنه . وله التصانيف المفيدة فى علم الفلك .

ولم يكن الخوارزمى عالماً فى الرياضة فقط بل كان من المهتمين بعلم الفلك وكان أحد منجمى المأمون ، ولعله اشترك فى حساب ميل الشمس فى عهده وجرى على المكوف فى مكتبة المأمون للاطلاع ، وكان من المنجمين الذين استدعاهم الواثق فى مرضه الأخير لينبؤه بما يكون من أمره ، وقد انصرف إلى دراسة الجغرافيا والفلك والتاريخ بالإضافة إلى الفلك ، وألف كتاب التاريخ الذى اعتمد عليه المسعودى فى بعض كتاباته ، وألف كتبه قبل عصر ازدهار الثقافة اليونانية واعتمد على الهندوس والسريان والفرس فى دراساته ، أما المصادر اليونانية فكانت تأتى فى المرتبة الثانية من مصادره ، وقد ألف كتابين فى الاسطرلاب ، وتناول فيه مسائل فى التنجيم من الناحية العملية ، وأعد مجموعة من صور السماوات والعالم نزولا على طلب المأمون(١) ، ومن هذه الصور كتاب صورة الأرض .

الرياضيات :

أخذ العرب عناصر فلسفتهم الطبيعية من مؤلفات أقليدس وبطليموس وبقراط ، وجالينوس ، ومن بعض كتب أرسطو بالإضافة إلى كتب ترجع إلى المذهبين الفيثاغورى والأفلاطونى(٢) .

---

(١) Hitti: Hist. of the Arabs. p. 379.

(٢) دي بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص ١٢٠

أما الرياضيات بالذات - موضوع بحثنا - فقد أخذه العرب عن فيثاغورث حقيقة استفاد العرب من الهنود فى هذا المضمار ، لكن من الثابت أن المسلمين تأثروا بالدرجة الاولى بفيثاغورث الذى يعتبر استاذهم بحق(١) .

أخذ العرب عن الهنود نظام الترقيم ، وكان العرب يكثرون الأمثلة والتمارين فى مؤلفاتهم ، ويأتون بمسائل علمية تتناول ما يقتضيه العصر من معاملات مالية وتجارية وكان محمد بن موسى الخوارزمى أول من اقتبس الارقام الهندية فى مؤلفاته وكتبه فى الحساب ، وكان بحثه فى الحساب الأول من نوعه فى غزارة مادته ودقته ، كذلك كان محمد بن موسى الخوارزمى أول من ألف في علم الجبر فى عهد الخليفة المأمون(٢) ، وعلى ذلك يمكن القول بأن الخوارزمى واضع علم الجبر وعلم الحساب ، ومما لاشك فيه أن الخوارزمى أطلع على ما عند الإغريق والهنود من علم رياضى، ويغلب على الظن أنه لم يكن يوجد علم الجبر قبل الخوارزمى(٣) .

امتازت خلافة المأمون بالتقدم فى الرياضة ، ولعل أبقى وأهم ما أسهم به العرب فى العلم الغربى كان إدخال الارقام والاعداد الافرنجية الشائعة الآن ، فحتى القرن الثالث عشر الميلادى ، كان علماء الرياضيات فى أوربا ما يزالون يستخدمون الأرقام الرومانية القديمة المعقدة ، ولكن بمجرد إدخال الأرقام الإفرنجية حدث التقدم فى العلم الرياضى(٤) .

كان أبو يعقوب بن اسحاق الكندى من قبيلة كنده من أصل عربى ، لذلك لقب فليسوف العرب ، تمييزاً له عن أقرانه من المتوفرين على دراسة الحكمة العقليةمن غيرالعرب ، ولقد درس الكندىالثقافة الفارسية واليونانية

(١) المصدر السابق ص١١١
(٢) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم عند العرب ص٩٢ — ٩٣
(٣) مقدمة ابن خلدون ص٤٨
(٤) [illegible] تاريخ العرب ص١٢٧ — ١٢٨
١٩٠ — [illegible]

فى البصرة وبغداد وبعض مدن العراق ، واشتغل بترجمة الكتب اليونانية إلى العربية ، وتهذيب ماترجمه غيره ، وكان له تلاميذ يترجمون تحت إشرافه واشتغل فى قصر الخلافة منجماً ، وكان الكندى واسع الاطلاع على جميع العلوم لذلك صنف فى عدة علوم مثل الجغرافيا وتاريخ التمدن والطب ، وعلم الكلام الذى يظهر فيه ميله إلى المعتزلة ، وكان ملماً بالمذاهب والملل المختلفة لذلك برع فى المقارنة بعضها ببعض(١) .

على أن الكندى قد نبغ فى المرتبة الأولى فى الرياضيات والفلسفة الطبيعية ويرى أن الإنسان لا يكون فيلسوفاً إلا إذا درس الرياضيات المركبة ، وللكندى نظريات فلسفية تتعلق بالله والنفس والعقل والعالم . فيرى أن كل ما يقع فى الكون يرتبط بعضه ببعض ارتباط علة بمعلول ، وإلى العقل مرد كل شىء والمادة تتخذ الصورة التى يشاء العقل إفاضتها عليها (٢) .

ولقد كان للكندى الكثير من التلاميذ الذين استفادوا من مصنفاته فى الرياضيات وأحكام النجوم والجغرافية والطب .

عنى الخلفاء العباسيون بعلم الهندسة عنايتهم بغيره من العلوم ، ففى عهد الخليفة المنصور ، ترجم كتاب أقليدس المسمى الأصول وكتاب الأركان ويشتمل على خمس عشرة مقالة منها أربعة فى السطح وثلاثة فى العدد وخمسة فى المجسمات ، وقد ألف العرب كتباً على نسقه ، وأدخلوا تمارين جديدة لم يعرفها القدماء . ومما شجع العرب على الاهتمام بالهندسة أنها على حد قول ابن خلدون تفيد صاحبها إضاءة فى عقله ، واستقامة فى فكره ، ولأن براهينها كلها بينة الانتظام ، جلية الترتيب ، لا يكاد يدخل الغلط أقيستها

(١) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص١٣٨ — ١٤٢

(٢) دى بور : تاريخ الفلسفة فى الإسلام ص١٤٣

لترتيبها وانتظامها[١] على كل حال وضع العرب أسس الهندسة التحليلية ، ومهدوا لنشأة علم التفاضل والتكامل[٢] .

ومن أبرز علماء الرياضة فى بغداد أبناء موسى بن شاكر ، وقد شجعهم المأمون وقربهم إليه ، ولهم أبحاث فى الميكانيكا ، كما ألفوا فى مراكز الثقل وكتبوا فى الآلات[٣] .

علم الطب :

يعتبر أبقراط المعلم الإنسانى الأول لمهنة الطب ، وهو أول من رتب الطب وبوبه ، وذلك فى القرن الخامس قبل الميلاد ، ولقد بنى الطب على أسس علمية صحيحة ورفع من آداب المهنة ، وأرسى تقاليدها وطهر الطب من الخرافات ، وجعل التجربة الصحيحة أساساً له ، وخلف سبعا وثمانين كتابا ورسالة فى شئون الطب ، ونقل العرب عدداً من كتبه ، ونبغ فى الطب عدداً من أساتذة جامعة الإسكندرية القديمة وكان جالينوس أشهرهم ويمثل المكان الثانى بعد أبقراط وترجم العرب كتبه أيضاً .

نخلص من ذلك إلى أن بغداد أصبح لدى علمائها مادة غزيرة فى الطب ولقد شجع الخلفاء العباسيون الأطباء على تأدية رسالتهم الإنسانية ، فمنحوهم الرواتب الكثيرة وكافأوهم أحسن مكافأة ، كما شجعوهم على الترجمة والتصنيف وأسسوا المدارس الطبية والبيمارستانات من بينها بيمارستان لعلاج مكفوفى البصر ، ومصحة للمصابين بأمراض عقلية ، وكان بيت الحكمة مزوداً بالكتب الطبية القيمة .

اعتمد العباسيون على أطباء جند يسابور فى العلاج ، فلما مرض الخليفة

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص٤٨٦

(٢) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم عند العرب ص٩٢ — ٩٣

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج٤ ص٢٤٨

المنصور ، بعث فى طلب جورجيس بن جبريل ، وكان له خبرة بالطب ، ومعرفة أنواع العلاج وقد قدره المنصور لأنه أحسن علاجه، ووجد راحة عظيمة فى جسمه ، وتخلص من الأمراض وجدير بالذكر أن جورجيس نهى المنصور عن الإسراف فى الطعام ، وطلب منه تخفيف الغذاء وترجم هذا الطبيب للمنصور بعض الكتب الطبية ، واعتمد على أطباء غيره من السريان[١] .

على أن أسرة بختيشوع قد نبغ أفرادها فى علم الطب ، واعتمدت عليهم بغداد اعتمادا كبيراً لسعة ثقافتهم وإخلاصهم ، فلما مرض الخليفة الهادى أرسل إلى جند يسابور باستدعاء بختيشوع ، لكن الهادى توفى قبل مقدم هذا الطبيب ، على أنه عالج الرشيد ولاحظ دقته وبراعته ، وخلع عليه خلعة حسنة جليلة ، ووهب له مالا وافرا ، وعين بختيشوع رئيساً للأطباء ، وله كتب منها « التذكرة »[٢] .

أما جبريل بن بختيشوع فكان مشهوراً بالفضل جيد المداواة عالى الهمة ، حظياً لدى الخلفاء ، حصل من الخلفاء من الأموال مالم يحصله غيره من الأطباء وجعله الرشيد رئيساً للأطباء فى بغداد ، وبلغ من تقديره له أن قال : كل من كانت له حاجة فليخاطب بها جبريل لأنى أفعل كل مايشاء ، وكان رجال الدولة يقصدونه فى كل أمورهم[٣] لأنه أحسن علاج الرشيد ، ووزراءه،وخاصته ، وكان الأمين لا يأكل ولا يشرب إلا بأذنه ، وأجزل له العطاء ، ولما ولى المأمون الخلافة غضب عليه وقبض عليه ، لكن المأمون مرض ، وعجز الأطباء عن علاجه ولما سمح لجبريل بعلاج المأمون شخص مرضه ،ووصف له دواءا شفى به،ورد إليه الأموال

(١) ابن أبى اصيبعه : طبقات الأطباء جـ٢ ص١٢٥
(٢) المصدر السابق ص١٢٤
(٣) المصدر السابق ص١٢٦

التى صادرها منه ، وبالغ فى إكرامه ، ولما مرض جبريل طلب منه المأمون أن ينفذ إليه ابنه بختيشوع لعلاجه ولما قدم على المأمون والتمس فيه سعة العلم بالغ فى إكرامه ، ورفع منزلته(١) .

والخلاصة أن آل جورجيس من الأطباء أجل أهل زمانهم بما خصهم الله من ترف النفوس ونبل الهمم ومن البر والمعروف والأفضال والصدقات، وتفقد المرضى من الفقراء والمساكين والأخذ بيد المنكوبين(٢) .

ونبغ فى الطب فى بغداد أطباء من أصل سريانى نخص بالذكر منهم يوحنا بن ماسويه ، ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبيه القديمة ، وله تصانيف قيمة ، وكان يجتمع إليه تلاميذ كثيرون(٣) ومن أطباء بغداد سهل بن سابور ، وجبريل الكحال ، ومن أطباء المعتصم سلمويه وكان على حد قول المعتصم « يمسك حياته ويدبر جسمه »(٤) .

وكان المعتصم ذا بأس وشدة فى جسمه وشجاعة فى قلبه فلاحظ طبيب المعتصم أنه — أى المعتصم - قد تغير لونه ، وتضاءلت قوته وكان قد خالف رأى طبيبه فى الطعام ، إذ كان ينصحه بتجنب الأطعمة العسيرة الهضم ، وكان فى أكثر أموره يستمع إلى نصائح طبيبه ، ويكثر مشورته ، ثم عاد فخالف مشورة طبيبه ، حتى أنه كان يأكل ويقول « أكل هذا على رغم أنف ابن ماسويه »(٥) .

وكان على الطبيب أن يلم بالكواكب فى كل مايعرض له من حالات ،

---

(١) ابن أبى اصيبعة : طبقات الأطباء جـ٢ ص٢١٣

(٢) المصدر السابق

(٣) ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول ص٢٢٦

(٤) المصدر السابق ص٢٤٣

(٥) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٢٦٢

فالطبيب أخو المنجم . فكانت أم جعفر بنت أبى الفضل فى قصر عيسى بن على الذى كانت تسكنه تعقد مجلساً لا يجلس فيه إلا الأطباء والمنجمون ، وكانت لا تعرض نفسها للعلاج إلا إذا حضر أهل المهنتين ، وتشكو علتها ، فيتناظر الأطباء فيما بينهم حتى يجتمعوا على العلة والعلاج فإذا كان بينهم اختلاف ، دخل الفلكيون بينهم ، ووجدوا كفة من يروه مصيباً ، ثم تسأل المنجمين عن اختيار وقت مناسب للعلاج ، فإن اجتمعوا على وقت وإلا نظر الأطباء فيما بين المنجمين من اختلاف وحكموا ، وإلا لزمهم القياس(١) .

ولم يكن الخليفة الواثق أقل اهتماما من أسلافه بعلم الطب ، بل كان يكرم أهل العلم عموماً ، وكان يعقد مجالس مناظراته فى فروع العلم المختلفة ، ومن بينها الطب ، ومن مناظرات أطبائه يتضح لنا أن الأطباء فى بغداد كانوا يعتمدون على التجربة ، وقسموا التجربة إلى قسمين ، قسم طبيعى وهو ما تفعله الطبيعة فى الصحيح والمريض ، وقسم عرضى وهو ما يعرض للحيوان من الحوادث والنوازل ، وقسم إرادى ، وهو ما يقع من قبل النفس الناطقة — أى النواحى النفسية والعصبية التى قد تصيب الإنسان . وحرصوا على تشخيص المرض بدقة ، واستعمال الدواء المناسب من مرض إلى مرض يشبهه ، ومن عضو إلى عضو يشبهه ومن دواء إلى دواء يشبهه ، وكل ذلك لا يمكن استعماله إلا بالتجربة ، كذلك حددوا وظائف الأعضاء ، وعرفوا أن الضدين لا يجوز اجتماعهما فى حال ، وأن وجود إحداهما ينفى وجود الآخر ، وعرفوا أن السبيل إلى معرفة الطب مأخوذ من مقدمات أولية ، منها معرفة طبائع الأبدان والأعضاء وأفعالها . ومنها معرفة الأبدان فى الصحة والمرض ومعرفة الاهوية واختلافها والأعمال والصنائع والعادات والأطعمة والأشربة ، ومعرفة قوى الأمراض .

وكما تختلف الحيوانات فى صورها وطباعها ، كذلك أعضاء الحيوان

(١) ابن أبى أصيبعة : طبقات الأطباء جـ ٢ ص ١٣٠ .

مختلفة فى صورها وطباعها ، وأن الأحياء الحيوانية تتغير بالاهوية المحيطة بها ، وبالحركة والسكون والأغذية والنوم واليقظة وسهولة الهضم والأعراض النفسية من الغضب والحزن وأثبتوا أن خير دواء هو الذى يظهر تأثيره الصحيح فى الجسم(١) .

كذلك حذق الأطباء فى بغداد فى طب الأسنان ، فقسموا الأسنان إلى ٣٢ سناً منها فى اللحى الأعلى ستة عشر سناً وفى اللحى الأسفل كذلك، وتوجد قواطع أربع فى كل واحد من اللحيين عراض محددة الأطراف ، وعن جنبي هذه الأربع فى كل واحد من اللحيين سنان رءوسها حادة ، وأصولها عريضة وهى الأنياب ، وبها يكسر كل مايحتاج إلى تكسيره من الأشياء الصلبة مما يؤكل ، وعن جانبى النابين فى كل واحد من اللحيين خمس أسنان ، وهى الأضراس ، وتسمى الطواحين لأنها تطحن كل مايؤكل . وكان فى بغداد أطباء للعيون(٢) .

كذلك برع أهل بغداد فى علم الصيدلة، ومن أبرز علماء الصيدلة كوهين العطار اليهودى الذى وضع كثيرا من المؤلفات منها كتاب الصيدلة ، شرح فيه العقاقير شرحاً وافياً وأوضح طريقة عمل المشروبات والجرعات والمساحيق والحبوب وغيرها .

الكيمياء :

كذلك نشط أهل بغداد فى دراسة علم الكيمياء ، وأخرجوا فيه أبحاثاً قيمة ، ومن أشهر علماء الكيمياء جابر بن حيان ، ولد بخراسان سنة ١٢٠ھ درس الكيمياء على يد أستاذه جعفر الصادق ، وأقام فى بغداد ، واتصل بالبرامكة ، ونال حظوة عندهم ، وغادر بغداد بعد نكبة البرامكة ، ويعتبر

---

(١) المسعودى : مروج الذهب جـ٢ ص٣٨٤

(٢) المصدر السابق جـ٢ ص٣٨٦

جابر بحق واضع علم الكيمياء ، اعتمد على التجربة في وضع نظرياته ، وتحقيق ما كتب ، وألف كتباً في الرياضة والفلسفة والفلك بالإضافة إلى ذلك(١) .

ولقد توصل من خلال أبحاثه إلى تكوين الزئبق والكبريت وله أبحاث في التفاعلات الكيماوية والمعادلات ، فمثلا حدد العناصر التي تكون الذهب وكان جابر ينصح تلاميذه دائماً بالتجربة وعدم الاعتماد في الابحاث العلمية إلا عليها مع التدقيق في الملاحظة والاحتياط والتأني في الاستنتاج ، لأن التجربة طريق المعرفة ، ولقد عرف جابر الكثير من النظريات الكيمياوية كالتبخير والتقطير والترشيح والتبلور والتصعيد والإذابة ، وحضر كثيراً من المواد الكيماوية ، وعرف خواصها مثـــل نترات الفضة وحامض الأزوتيك وهو أول من لاحظ أن محلول نترات الفضة يكون مع محلول ملح الطعام راسباً أبيض ، وأن النحاس يكسب اللهب لونا أخضر ولقد ميز بين التقطير والترشيح(٢) .

ونظرية جابر في طبيعة المعادن تشير إلى أنه كان أكثر تقدما عن نظريات اليونان العلمية ، وعن نظريات مدرسة الإسكندرية ، فللمعادن عنده مقومان دخان أرضي وبخار مائي وتكثيف هذه الأبخرة في جوف الأرض ينتج الكبريت والزئبق ، واجتماع هذين يكون المعادن والفروق بين المعادن الأساسية يرجع إلى فروق في النسب التي يدخل فيها الكبريت والزئبق في تكوينها ، ففي الذهب تكون نسبة الكبريت إلى الزئبق نسبة تعادل بين هذين العنصرين وفي الفضة يكون العنصران متساويين في الوزن ، أما النحاس ففيه من العنصر الأرضي أكثر مما في الفضة والحديد والرصاص والقصدير فيها من ذلك العنصر أقل مما في الفضة . ولما كانت المعادن مكونة من مقومات

---

(١) عبد الحليم منتصر : تاريخ العلم عند العرب ص ١٦٢

(٢) Hitti : Hist of the Arabs pp. 380-30:

مشتركة ، فإن تحويل بعضها إلى بعض يصبح أمراً مستطاعاً وعند ما يقوم الكيميائى بهذا التحويل فإنه يؤدى فى وقت قصير ما تؤديه الطبيعة فى وقت طويل[١] .

ولقد توصل جابر إلى نظريات تثبت عبقريته ، منها النظرية التى تقول بأن الاتحاد الكيميائى يكون باتصال ذرات العناصر المتفاعلة بعضها ببعض ونظرية جابر هذه لاتختلف كثيراً عن النظرية الذرية التى وضعت بعد ذلك بألف عام .

لقد ترجمت كتب جابر إلى اللاتينية ، وظلت أهم مرجع فى علم الكيمياء زهاء ألف عام ، وكانت مصنفاته موضع دراسة مشاهير علماء الغرب ، ومنهم من أنصف جابر وأشاد بأعماله ومنهم من أثار الشك والريبة حول جهوده بل أنكر وجوده ، وقالوا لا يمكن أن تكون كتب جابر وما تحويه من معلومات قيمة من وضع رجل عاش فى القرن الثانى الهجرى[٢] .

والحق أن جابر كيمائى العرب الأول ، فهو أول من بحث فى علم الكيمياء . ولقد أصاب من ارتفاع المكانة وفخامة الثراء وبعد الصيت ما جعله موضع التقدير وقال عنه القفطى[٣] ، كان متقدما فى العلوم الطبيعية بارعا منها فى صناعة الكيمياء ، وله فيهـــا تآليف كثيرة ، ومصنفات مشهورة ، وكان لا يقبل تعليم أحد الكيمياء إلا إذا اطمأن إليه اطمئناناً كاملا على مقدرته العلمية وحسن استعداده وعلى حد قوله : أعلم أن من المفترض علينا كتمان هذا العلم وتحريم إذاعته لغير المستحق من بنى نوعنا ، وألا نكتمه عن أهله[٤]

---

(١) زكى نجيب محمود / جابر بن حيان : ص٢٤٧

(٢) دائرة المعارف الإسلامية (جابر بن حيان) .

(٣) عبد الحليم منتصر ، تاريخ العلم عند العرب ص١٦٣ — ١٦٤

(٤) القفطى : أخبار العلماء ص ٢٢٠

لأن وضع الأشياء في مجالها من الأمور الواجبة ، ولأن في إذاعته خراب العالم وفي كتمانه تضييعاً لهم ، ويذكرون أن الكيمياء عناء الدهر(١)

وينسب إلى جابر بن حيان عدد كبير جداً من الكتب والرسائل يدور كثير منها حول الكيمياء والوسائل التي يستطيع بها الكيمياوى أن يبدل طبائع الأشياء تبديلا يحولها بعضها إلى بعض ، وذلك إما بحذف بعض خصائصها أو بإضافة خصائص جديدة إليها ، لأنه إن كانت الاشياء كلها ترتد إلى أصل واحد ، كان تنوعها راجعاً إلى اختلاط في نسب المقادير التي دخلت في تكوينها ، فليس الذهب — مثلا — يختلف عن الفضة في الاساس والجوهر ، بل هما مختلفان في نسبة المزج ، فإما زيادة هنا أو نقصان هناك ، وواجب الكيميائى تحليل كل منهما تحليلا يهديه إلى تلك النسبة ، كما هي قائمة في كل منهما (٢)

وكان ابن حيان يرى أن العالم في استطاعته أن يجاوز الطبيعة إلى ما وراءها بالبحث العلمي المجرد ، وهذا ييسر له استخراج كوامن الطبيعة ، ففي وسع الباحث العلمي أن يلتمس طريقه إلى تحقيق غايته في الوصول إلى الحقيقة العلمية(٣) .

والواقع أن جابر ينفرد أو يسبق غيره في المنهج العلمي ، فهو حريص على أن يقصر نفسه على مشاهداته المستندة إلى التجربة التي تثبت صحتها ، وكان لا يعتمد على أقوال الغير ما لم تؤيدها التجربة التي يجريها هو ، ولا يعتمد على ما توصل إليه غيره من نتائج علمية إلا إذا كانوا ثقات مشهود لهم بأمانتهم العلمية .

---

(١) زكى نجيب محمود : جابر بن حيان ص ٤٥ — ٤٦
(٢) دائرة المعارف الإسلامية
(٣) زكى نجيب محمود : جابر بن حيان ، ص ٥٢ وما بعدها .
وهذا كتاب فيه معلومات قيمة وتفاصيل كثيرة عن جابر بن حيان.

ومذهب ابن حيان العلمي يسير في ثلاث خطوات ، الاولى أن يفترض العالم فرضاً لتفسير الظاهرة المراد تفسيرها ، والثانية أن يستنبط من هذا الفرض نتائج تترتب عليه ، والثالثة أن يطابق هذه النتائج على الواقع فإن صدقت تحول الفرض إلى قانون علمي(١) .

ويرى ابن حيان أن العالم يجب أن يكون مثابراً في جهوده العلمية التي تهدف إلى الكشف عن الحقيقة مهما كلفه هذا البحث من عناء وجهد ، ويؤكد ابن حيان أنه لا نجاح في عمل علمي إلا إذا كان مسبوقاً بعلم يتبعه التجربة ثم التطبيق(٢) .

ويرى جابر بن حيان أن أول ما كان في الازل هو العناصر الاولية الاربعة الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة ، فهذه هي أوائل الامهات البسائط كما يسميها ، ثم طرأت على هذه البسائط حركة وسكون فتكون منها تركيبات متنوعة ، ولولا الحركة والسكون لظلت تلك الاصول الاولى مستقلا بعضها عن بعض كل منها خالص لنفسه .

ومن هذه الاصول الاربعة الأولى الحرارة والبرودة واليبوسة والرطوبة نشأت أربعة عناصر ، وذلك باجتماع تلك الاصول بعضها ببعض إثنين إثنين ، فقد اجتمع الحار واليابس فنشأت النار واجتمع الحار والرطب فنشأ الهواء ، واجتمع البارد واليابس فنشأت الارض ، واجتمع البارد والرطب فنشأ الماء ، وفصول السنة أربعة تقابل تلك العناصر الاربعة فالصيف يقابل النار ، والربيع يقابل الهواء ، والشتاء يقابل الماء ، والخريف يقابل الارض(٣) .

---

(١) زكي نجيب محمود ، جابر بن حيان ص٦٤

(٢) القفطي : أخبار العلماء ص ٢٢٣

(٣) دائرة المعارف الإسلامية (جابر بن حيان) .

وجابر بن حيان تلميذ الإمام الشيعى جعفر الصادق المتوفى سنة ١٤٨ﻫ وأول ما تشير إليه مؤلفاته مسائل تتعلق بتاريخ الدين ، فكما أن أصحاب الكيمياء القدامى من اليونانيين مزجوا تعاليمهم بمذاهب العرفان وغيرها من آراء المسيحية ، فقد ظهرت شيعية جابر فى كتاباته فى تاريخ الدين فيشير إلى أن مفاتيح العلم اليونانى فى أيدى الأئمة المعصومين من ذرية على بن أبى طالب .

وبعد دراساته لتاريخ الدين يتناول الكيمياء ثم الطب ثم الفلك والسحر (الطلسمات) وعلم الخواص أى القوى الباطنة فى بطون الاشياء الطبيعية وعلم التكوين أى تكوين الاحياء بطرق صناعية وترجع أهمية مصنفات جابر بن حيان إلى أنها تمكننا من التعرف على جوانب كبيرة من العلوم اليونانية التى فقد الكثير منها ، ويروى عن كتب أفلاطون وأرسطو وجالينوس ، وأقليدس وبطليموس وأرشميدس وغيرهم ، ويأخذ عن ترجمات حنين بن اسحاق ، وابنه اسحاق وتلاميذهما(١)

* * *

كذلك شهدت بغداد دراسات مستفيضة فى علم الحيوان وعلم النبات وممن عكفوا على دراسة الحيوان ، الجاحظ فى كتابه (الحيوان) وصف فيه الكثير من أنواع الحيوان من طير ووحش وأسماك وحشرات وزواحف وثدييات وما إليها . ولقد اهتم هؤلاء العلماء بالشكل العـــام للحيوان وما نسميه الآن سلوك الحيوان .

أما علم النبات فقد شغف العرب بدراسته لأن معظم العقاقير التى كانت

(١) انظر دائرة المعارف الإسلامية

تستخدم فى العلاج من النبات أو خلاصات نباتية حتى أن الأطباء كانوا يعرفون بالعشابين .

ولقد درس جابر بن حيان الحيوان والنبات وقسم الحيوان إلى أربعة أقسام ، وكل من هذه الأقسام مؤلف من نفس وجوهر وحرارة وبرودة ويبوسة ورطوبة محصورة كلها فى مكان وفى زمان ، والإنسان يزيد عن أنواع الحيوانات الأخرى بما خصه الله من العقل(١) .

ويقول جابر عن النبات أنه يختلف عن الحيوان فى شيئين : وهما النفس والعقل ويقارن بين الحيوان والنبات من حيث تركيب كل منهما ، وكذلك يوازن بين الحيوان والنبات من حيث الطبائع ويجد هنا تشابها بينهما ، فى أن كلا منهما ينقسم ثلاثة أقسام فى مراحله التطورية ، وهى الأول والبليد والزكى المرحلة التى تتمثل فى النبات ، ومرحلة الشعور تتمثل فى الحيوان الذى يشعر ويكون على وعى بأنه شاعر(٢)

أما كتاب الحيوان للجاحظ لم يكتف فيه بدراسة الحيوانات فحسب ، بل أظهر ميلا نحو دراسة الحشرات والمخلوقات المتناهية فى الصغر ، وفى هذا الكتاب نظريات علمية وأدب ونقد ، فهو لذلك من كتب علم الأخلاق وهو العلم الذى أوجده الجاحظ .

علم الموسيقى :

تقدم فن الموسيقى فى بغداد فى العصر العباسى الأول ، فازدحمت قصور الخلفاء والامراء وكبار رجال الدولة بالموسيقيين والقيان ، وأنعم عليهم ، وحصلوا على الجوائز السنية والصلات الكبيرة .

---

(١) زكى نجيب محمود ، جابر بن حيان ص١٧٨

(٢) [illegible] ص ٢٢٥

وكان الفنانون الكبار يساعدهم فى الغناء الآلاتى والقينة والقيان يتعلمن على الفنانين الكبار ورأينا أن اسحاق الموصلى كان يدرب القيان على الغناء بأثمان باهظة .

ذكرنا أن من أبرز الموسيقيين فى بغداد اسحاق الموصلى ، ويبدو أن الخليل بن أحمد — وهو من أشهر علماء عصره — أول من كتب الرسائل العلمية الحقة في علم الموسيقى فى كتابيه « النغم » و « الإيقاع » ، ولكن أهم كتب الموسيقى فى الفترة التى نكتب عنها رسائل الكندى ، وينسب إليه ما لايقل عن سبع رسائل ، وتوضح رسائل الكندى دقة فنانى العصر النظرية والعملية فى الموسيقى كما نحصل فيها على نظريات مأخوذة من الموسيقيين اليونانيين وكتب جامعوا الأغانى مثل يحيى المكى وأحمد بن يحيى المكى واسحاق الموصلى كتباً عديدة فى الموسيقى ، وجمع اسحاق ما يقرب من ١٢ من سير الموسيقيين المشهورين (١) .

وكثرت المناقشات بين كبار الفنانين وعلماء الموسيقى فى الموسيقى العلمية حتى أمام الخلفاء حول الإيقاعات واستعمال الآلات والأصابع على الآلات وابتداع الألحان وتطبيقها ، وشاعت الأعواد فى ذلك العصر والطنبور والمزامير والطبل والدف . وكان فى المرتبة الثانية بعد العود .

وأصبح ابراهيم بن المهدى زعيم الحركة الموسيقية الإبداعية (الرومانتيكية)، الفارسية ، فبدأ بذلك صراع بين هذه المدرسة ومدرسة اسحاق الموصلى الذى مثل المدرسة التقليدية العربية القديمة . وكان صوت ابراهيم بن المهدى رائعاً ذا قوة هائلة ، وكان عالماً موسيقياً وعازفاً على الآلات من أعلم الناس بالوتر والنغم والإيقاعات .

على أن اسحاق الموصلى كان أعظم الموسيقيين فى الإسلام من

---

(١) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ص ١٢٧ — ١٢٨ — ١٤٢
(٢) انظر كتاب الأغانى .
(٣) انظر الحياة الاجتماعية فى بغداد بالكتاب .

معلومات ، كان عازفاً رائعاً ، أخضع نظريات الفن الموسيقى المتضاربة لنظام واضح .

ويحتمل أن حنين بن اسحاق قد ترجم بعض الكتب الإغريقية فى الموسيقى إلى العربية ، وكان الكندى كثير التأليف ومن كتبه رسالته الكبرى فى الموسيقى وكتاب رسالته فى الإيقاع وكتاب رسالته فى المدخل إلى صناعة الموسيقى ، ومختصر الموسيقى فى تأليف النغم وصفة العود(١).

وكان أبناء موسى بن شاكر من أشهر علماء عصرهم وألفوا كتبا عن الموسيقى منها ، كتاب الآلات الموسيقية الآلية .

* * *

وصفوة القول أن الحركة الفكرية فى بغداد فى العصر العباسى الأول يمكن أن نعتبرها بحق خلاصة للثقافة العالمية فى ذلك العصر ، فأضافت إلى أصالتها العربية ثقافة الفرس والهنود والإغريق وأهل الذمة .

تأثرت الثقافة العربية فى بغداد بالأدب الفارسى فى مجالات شتى ، ومن أدب التوقيعات ، حيث دأب ملوك الفرس على التوقيع على شكاوى الناس بأسلوب يتجلى فيه البلاغة ودقة التعبير والحكمة المفيدة ، وقد أخذ العباسيون ذلك عن الفرس ، ولا سيما أن أكثر كتاب بغداد كانوا فرسا ، ونشأ فيما بعد ديوان التوقيع(٢) .

ولما كان الفرس الذين انتقلوا إلى بغداد بعد تأسيسها شغوفين بالثقافة والادب ، فقد أقبلوا على التدوين والتأليف مستندين إلى تراثهم الفارسى الزاخر ، وكانت تصنيفاتهم بالعربية لأنهم نشأوا فى البيئة العربية ، وتأثروا بها ، وأصبحوا عرباً بيئة ومربى ، ويرجع إلى كثير منهم فضل السبق فى تصنيف الكتب وتدوين العلوم المختلفة ، منهم أبو حنيفة النعمان وحماد الراوية والكسائى والفراء وأبو العتاهية وابن قتيبة .

---

(١) فارمر ، تاريخ الموسيقى العربية ٢٠٥ — ٢٠٦

(٢) حسن أحمد محمود : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ص ٢٤٧ .

وعلى ذلك فقد أثرت الثقافة الفارسية فى بغداد ، وتجلى ذلك فى الشعر والأدب والحكم والقصص والموسيقى والغناء والكلام والعقائد(١) كما كان لها أثر بالغ فى اللغة العربية فقد دخلت ألفاظ فارسية إلى العربية ، كما ترجمت كتب فارسية فى علوم النجوم والهندسة والجغرافيا والتاريخ والسير فترجم عبد الله بن المقفع كتاب خداينامه وسماه تاريخ ملوك الفرس وترجم كتاب آيين نامه ، وهو وصف نظم الفرس وتقاليدهم وعرفهم كما ترجم كتاب مزدك وكتاب التاج فى سيرة أنو شروان وكتاب الأدب الكبير والأدب الصغير وكتاب اليتيمة وكتاب كليله ودمنة كما ترجمت من الفارسية إلى العربية كتاب سير ملوك الفرس ترجمه محمد بن الجهم البرمكى ، وترجم جبلة بن سالم كتاب رستم واسفنديار وكتاب بهرام جور إلى غير ذلك من الكتب الدينية والقصصية(٢) .

كذلك تأثرت بغداد بالثقافة الهندية ، وذلك بانضمام السند إلى الدولة الإسلامية منذ العهد الأموى . كما أن الفرس ساهموا فى نقل الثقافة الهندية إلى العربية لقوة أواصر الصلة التى كانت تربطهم بالهنود منذ وقت طويل ، فترجمت إلى العربية كتب هندية فى الإلهيات والرياضيات والأدب ، وقد تأثرت قصص ألف وليلة بأفكار الهنود من تناسخ الأرواح ، على أن الثقافة العربية قد أفادت من الهنود فائدة كبيرة فى مجالات الفلك والرياضة ، فقد وفد بعض علماء الرياضيات الهنود إلى بغداد فى عهد المنصور ، وترجموا بعض كتب الهند فى الفلك ، وقد أخذ العرب بعض الاصطلاحات الهندية فى الرياضة من الهنود ، واقتبسوا الكثير من نظريات الهنود فى الحساب والهندسة ، كما وفد إلى بغداد بعض الأطباء الهنود ، واعتمد عليهم الخلفاء ورجال الدولة وتأثر الأدب العربى بالآداب الهندية وأدخلت بعض الالفاظ

(١) المصدر السابق ص٢٤٨

(٢) ابن النديم ، الفهرست ص٣٤١ — ٣٤٢

الهندية فى الادب العربى . كما شغف العرب بالقصص الهندية ، وكان أصل كليلة ودمنة — كما هو معروف — هندى ترجم إلى الفارسية ، ومن الفارسية إلى العربية وكانت حكمة الهند أقرب إلى روح العرب وأحب إلى أذواقهم ، وامتلأت الكتب العربية بالكثير من الحكم الهندية لعمق فكرتها كما ترجمت إلى العربية كتب هندية فى الاسحار والاحاديث والقصص الخيالية(١) .

ومما لاشك فيه أن العرب تأثروا بالثقافة الإغريقية فى مجالات شتى فقد أفاد العرب من مراكز الثقافة الإغريقية فى جنـــد يسابور وحران والإسكندرية فأخذ المفكرون العرب المنطق عن اليونان ، واعتمدوا عليه اعتماداً كبيراً فى البحث والدراسة والمناقشة والجدل وتوضيح البرهان ومنطق أرسطو هو الذى اعتمد عليه العرب دون غيره ، واتضح ذلك فى التبويب والترتيب وتقسيم الموضوعات وذكر الامثلة والاحكام ، واستخدام القياس فى النحو ، والفقه والفلسفة معتمداً بالدرجة الاولى على المنطق . كذلك تأثرت الثقافة العربية بالفكر اليونانى فى علوم الطب والفلك والجغرافيا والكلام والموسيقى ، وأثرت الافلاطونية فى التصوف(٢) .

وكان للثقافة اليونانية أثر كبير فى بغداد ، ذلك لأن اتصال المسلمين بها صاحب عصر تدوين العلوم العربية . فتسربت الثقافة اليونانية إليها ، وصبغتها بصبغة خاصة ، على أن العرب استفادوا من الثقافة اليونانية فى المجالات التى تهمهم فقط ، فأخذوا ما أخذوا عنهم ثم بنوا عليه وزادوا فيه وابتكروا واقتصر اقتباسهم من الثقافة اليونانية على ما يلائم الحياة الإسلامية ولا يتعارض معها ، وأهملوا وتركوا كل ما يتعارض مع الدين الإسلامى والتقاليد العربية(٣)

(١) حسن أحمد محمود ، العالم الإسلامى فى العصر العباسى ص٢٧٨

(٢) أحمد أمين ، ضحى الإسلام جـ١ ص٢٧٥

(٣) أحمد أمين ، ضحى الإسلام جـ١ ص٢٧٨

عنى المسلمون بنقل تاريخ بنى إسرائيل وأنبيائهم ، كما فعل ابن قتيبة فى كتابه المعارف ، وقد ثبت بما لا يدع مجالا للشك أن كثيرا مما نقل عن تاريخ بنى إسرائيل ينقصه الدقة ، وتظهر فيه الأساطير والمبالغات ، ذلك أن الروايات التى نقلت عنهم ، كثيراً من رواتها من العوام ، وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن بعض قصص ألف ليلة وليلة من أصل يهودى ، ومهما يكن من أمر فقد تسربت بعض جوانب الثقافة اليهودية إلى الفكر العربى ، بعضها أخذ عن أهل العلم بالكتاب ، وبعضها عن العوام[1] .

كذلك ظهر أثر الثقافة المسيحية فى بغداد ، وقد أوردت الكتب العربية شيئاً كثيراً منها كرسالة الجاحظ فى الرد على النصارى حول بعض عقائدهم

وأدى دخول الكثير من اليهود والنصارى ، ودراستهم للغة العربية والدين واندماجهم فى الحياة العربية ، إلى إدخال بعض آرائهم وأفكارهم فى الفكر العربى ، وتجلى ذلك فى التفسير والحديث والمذاهب الدينية ، والعادات والتقاليد ، وأنهما كانا عنصرين من عناصر الثقافة العامة فى ذلك العصر[2] .

(تم بحمد الله)

---

(١) المصدر السابق ج١ ص٣٣٨

(٢) المصدر السابق ج١ ص٣٠٢

الخلفاء الأمويون

معاوية بن أبى سفيان ٤١ هـ - ٦٦١ م
يزيد الأول بن معاوية ٦٠هـ - ٦٨٠م
معاوية الثانى بن يزيد ٦٤ هـ - ٦٨٣ م
مروان بن الحكم ٦٤هـ ٦٨٣ م
عبد الملك بن مروان - ٦٥هـ - ٦٨٥م
الوليد بن عبد الملك ٨٦هـ - ٧٠٥ م
سليمان بن عبد الملك ٩٦ هـ - ٧١٥م
عمر بن عبد العزيز ٩٩ هـ - ٧١٧ م
يزيد الثانى بن عبد الملك ١٠١هـ - ٧٢٠م
هشام بن عبد الملك ١٠٥هـ - ٧٢٤ م
الوليد الثانى بن يزيد بن عبد الملك ١٢٥ هـ - ٧٤٣ م
يزيد الثالث بن الوليد ١٢٦هـ - ٧٤٤ م
إبراهيم بن الوليد ١٢٦هـ - ٧٤٤ م
مروان بن محمد ١٢٧هـ - ٧٤٤ م
نهاية العهد الاموى ١٣٢هـ - ٧٥٠ م

خلفاء العصر العباسي الأول

أبو العباس السفاح	١٣٢ هـ - ٧٥٠ م
أبو جعفر المنصور	١٣٦ هـ - ٧٥٤ م
محمد المهدي	١٥٨ هـ - ٧٧٥ م
موسى الهادي	١٦٩ هـ - ٧٨٥ م
هارون الرشيد	١٧٠ هـ - ٧٨٦ م
محمد الأمين	١٩٣ هـ - ٨٠٩ م
عبدالله المأمون	١٩٨ هـ - ٨١٣ م
المعتصم	٢١٨ هـ - ٨٣٣ م
الواثق	٢٢٧ هـ - ٨٤٢ م
نهاية العصر العباسي الأول	٢٣٢ هـ - ٨٤٧ م

مصادر البحث

١ - ابن الأثير : (ت ٦٣٠ هـ ، ١٢٣٨ م) على بن أحمد بن أبى الكرم.
« الكامل فى التاريخ » ، ١٣ جزءا - القاهرة ١٩٥٢) .

٢ - أحمد أمين : « فجر الإسلام » (القاهرة ١٩٢٨) .

٣ - أرنولد : Arnold. Thomas W.

(ا) « The Caliphate »

(ب) « The preaching of Islam »

نقله إلى العربية الأساتذة : حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين واسماعيل النحراوى باسم « الدعوة إلى الإسلام » .

٤ - أسد رستم : « الروم وصلاتهم بالعرب » (بيروت ١٩٥٥) .

٦ - الاصبهانى : (ت ٣٥٦ هـ ٩٦٧ م) أبو الفرج .
« كتاب الأغانى » (١٦ جزءاً - القاهرة ١٩٦٣) .

٧ - الاصطخرى : (توفى فى النصف الأول من القرن الرابع الهجرى)
أبو إسحق ابراهيم بن محمد الفارسى الاصطخرى المعروف بالكرخى.
« المسالك والممالك » .
(تحقيق دكتور محمد جابر عبد العال — القاهرة ١٩٦١) .

٨ - ابن أبى أصيبعة : (ت ٦٦٧ هـ ، ١٢٧٠ م) أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة موفق الدين .

« عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » (جزءان - القاهرة ١٢٩٩-١٣٠٠هـ)

٩ - الألوسى : السيد محمود شكرى البغدادى :

« بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب » ثلاثة أجزاء - القاهرة ١٩٢٤).

١٠ ـ أمير علي : سيد Ameer Ali Sayed

« A Short History of The Saracens »

نقله إلى العربية رياض رأفت باسم « مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى » (القاهرة ١٩٣٨) .

أنتونى نتنج : العرب انتصاراتهم وأمجاد الإسلام : ترجمة راشد البراوى (القاهرة ١٩٧٤) .

١١ ــ أوليرى : دى لوسى ـ O, Leary, De Lucy

« Arabia Before Muhemmad » (London, 1977)

١٢ ـ بارتولد : ف Barthold; F

« تاريخ الحضارة الإسلامية » .

نقله إلى العربية حمزة طاهر ـ (القاهرة ١٩٤٢ م).

١٣ ـ بروكلمان : كارل Brokelman Carl

« Geschichte der Islamischen Uolker and Statem. »

نقله إلى العربية الدكتور نبيه فارس والأستاذ منير البعلبكى باسم : « تاريخ الشعوب الإسلامية » دار العلم للملايين ـ بيروت ١٩٤٨) .

١٤ ـ البكرى : (ت ٤٨٧ هـ ، ١٠٩٧) أبو عبيدالله بن عبد العزيز ، « معجم ما استعجم » حققه الأستاذ مصطفى السقا (القاهرة ١٩٤٠) .

١٥ ـ البلاذرى : (ت ٢٧٩ هـ ، ٨٩٢ م) أحمد بن يحيى بن جابر

(ا) فتوح البلدان (القاهرة ١٣١٨) .

١٦ ـ (ب) أنساب الأشراف الجزء السابع ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٣٠٤ ، وجـ ١١ (القدس ١٩٣٦) .

١٧ - ترتون : أ - س .
« أهل الذمة فى الإسلام » .
نقله إلى العربية حسن حبشى (القاهرة ١٩٤٩) .

١٨ - الثعالبى : (ت ٤٢٩) ، ١٠٣٧ م) أبو منصور عبد الملك الثعالبى ، « لطائف المعارف » .

١٩ - الجاحظ : (ت ٢٥٦ هـ ، ٨٦٩ م) أبو عثمان عمرو بن بحر .
(ا) كتاب « التاج فى أخلاق الملوك » حققه المرحوم أحمد زكى .
القاهرة ١٩١٤ م) .

٢٠ - (ب) كتاب « البيان والتبيين » (٤ أجزاء - القاهرة ١٩٣٨) .

٢١ - كتاب التبصر بالتجارة » (القاهرة ١٩٣٥) .

٢٢ - جب : هاملتون . ا . ر . Gibb: Hamilton A. R.
" The Arab Conquests in central Asia " (London, 1923)

٢٣ - ابن جبير : (ت ٦١٤ هـ) محمد بن أحمد بن جبير .
« رحلة ابن جبير » تحقيق الدكتور حسين نصار (القاهرة ١٩٥٥) .

٢٤ - الجهشيارى : (ت ٣٣١ هـ، ١٩٤٣ م) أبو عبد الله محمد بن عبدوس « الوزراء والكتاب » حققه ونشره الأساتذة : مصطفى السقا وابراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبى . (القاهرة ١٩٣٨) .

٢٥ - ابن الجوزى (ت ٥٩٧ هـ) أبو الفرج عبد الرحمن على بن الجوزى « مناقب عمر بن عبد العزيز » (القاهرة ١٣٣١ هـ) .

٢٦ - حتى : فيليب . Hitti, Philip .
(أ) "History of the Arabs" (London, 1945)

٢٧ - (ب) History of syria. (London, 1959)

« حياة الحيوان الكبرى » جزءان - القاهرة ١٣٠٩ م) .

٣٧ - دوزى ر.ب.أ Dozy R.P.A

"Essai sur l'Histoire de l'Islamisme (Paris, 1879)

٣٨ - دى بور : « تاريخ الفلسفة فى الإسلام » De Boer

٣٩ - الدينورى : (ت ٢٨٢ هـ ، ٨٩٥ م) أبو حنيفة أحمد بن داود .

« الأخبار الطوال » (جزءان - ليدن ١٨٨٨) .

٤٠ - الذهبى : (ت ٧٨٤ هـ ، ١٢٤٧ م - ١٣٤٨ م) الحافظ شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد .

« تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام » .

(٥ أجزاء - القاهرة ١٠٥٩ م) .

٤١ - ابن رسته :

« الأعلاق النفيسه » .

(مجموعة الكتب الجغرافية العربية - ليدن ١٨٩١ - ١٨٩٢ م) .

٤٢ - روفائيل بابو اسحاق : تاريخ نصارى العراق (بغداد ١٩٤٨) .

٤٣ - زكى محمد حسن .

فنون الإسلام (القاهرة ١٩٤٨) .

٤٤ - زكى نجيب محمود . جابر بن حيان (القاهرة ١٩٧٥) .

٤٥ - زيدان . جرجى .

« تاريخ التمدن الإسلامى » (٥ أجزاء - القاهرة ١٩٠٢ - ١٩٠٦) .

٤٦ - ابن الساعى . نساء الخلفاء . تحقيق مصطفى جواد

٤٧ - ابن سعد (ت ٢٣٠ هـ ، ٨٣٥ م) محمد .

« كتاب الطبقات الكبير » ، ٨ أجزاء ، ليدن ١٣٢٢ هـ) .

٤٨ - سعيد بن بطريق المعروف باسم أوتيخا (ت ٣٢٨ ﻫ ، ٩٤٠ م)
كتاب « التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق » .
(جزءان بيروت ١٩٠٥ ، ١٩٠٩) .

٤٩ - ابن سيده (ت ٤٥٨ ﻫ ، ١٠٦٦ م) أبو الحسن على ابن اسماعيل الأندلسى .
« كتاب المخصص » (٢٠ جزءاً - بولاق ١٣٢١ ﻫ) .

٥٠ - سيده اسماعيل الكاشف .
« مصر فى فجر الاسلام » (القاهرة ١٩٤٧ م) ا

٥١ - سيديو ل.ب. Sédillot, L.B.
"Histoire Générale des Arabs" (Paris, 1877)

٥٢ - السيوطى (ت ٩١١ ﻫ ، ١٠٥٠٥ م) عبد الرحمن بن أبى بكر جلال الدين .
« تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة » .
(القاهرة - ١٣٥١ ﻫ) .

٥٣ - شكرى فيصل
« المجتمعات الاسلامية فى القرن الأول الهجرى » . (القاهرة ١٩٥٢)

٥٤ — شوقى ضيف :
« التطور والتجديد فى الشعر الأموى » القاهرة ١٩٥٢) .

٥٥ — صالح أحمد العلى :
« التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية فى البصرة فى القرن الأول الهجرى (بغداد ١٩٥٣) .

٥٦ — صلاح الدين المنجد : (أ) « دمشق القديمة » (دمشق ١٩٤٨)

٥٧ — (ب) « خطط دمشق » (بيروت ١٩٤٩) .

٥٨ — ابن طباطبا : (ت ٧١٠ هـ) محمد بن علي بن طباطبا المعروف بابن الطقطقى .

« الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الإسلامية » القاهرة ١٩٢٢) .

٥٩ — الطبرى : (ت ٣١٠ ، ٩٢٢ م) أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى .

« تاريخ الأمم والملوك » (دار المعارف بمصر ١٩٦٠) .

ابن طيفور : (ت ٢٨٠ هـ) أحمد بن طاهر الكاتب (مناقب بغداد) تحقيق محمد الكوثرى بغداد ١٣٦٨ .

٦٠ - ابن طولون : شمس الدين محمد .

« قيد الشريد من أخبار يزيد (مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢١٣٢) »

٦١ - ابن عبد ربه : (ت ٣٤٩ هـ ، ٩٤٠ م) شهاب الدين أحمد « العقد الفريد » (٤ أجزاء - القاهرة ١٩٢٨) .

٦٢ - عبد العزيز الدورى :

« مقدمة فى صدر الإسلام (بغداد - ١٩٤٩) .

٦٣ - عبد المنعم الماجد : الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٧٢) .

٦٤ - ابن العبرى : (ت ٦٨٥ هـ ١٢٨٦ م) أبو الفرج بن هارون « تاريخ مختصر الدول » (بيروت ١٨٩٠ م) .

٦٥ - ابن عساكر : (ت ٥٧١ هـ) أبو القاسم على بن الحسين .

(ا) « التاريخ الكبير » تحقيق عبد القادر بدران (دمشق ١٣٢٩هـ)

٦٦ - (ب) « تاريخ دمشق » ، « صلاح الدين المنجد » (دمشق [illegible]

٦٧ - على حسنى الخربطلى :

« تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى » القاهرة ١٩٥٩) .

٦٨ - العمرى : « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » حققه أحمدزكى (القاهرة - ١٩٢٩) .

٦٩ - العينى : (ت ٨٥٥ هـ ، ١٥٤١ م) بدر الدين محمود بن أحمد ابن موسى . « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » مخطوط مصور بدار الكتب المصرية رقم ١٥٨٤ .

٧٠ - أبو الفدا (ت ٧٣٢ هـ ١٣٣١ م) اسماعيل بن على عماد الدين « المختصر فى أخبار البشر » (القاهرة - ١٣٢٥ هـ) .

٧١ - فلهازون Julius Wellhausen

Des Arbische Reich Uad Sein

نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريده باسم « تاريخ الدولة العربية من ظهور الإسلام إلى نهاية الدولة الأموية (القاهرة ١٩٥٨) .

٧٢ - ابن قتيبة : (ت ٢٧٦ هـ ٨٨٩ م) أبو محمد عبدالله بن مسلم .

(ا) « كتاب المعارف » (القاهرة ١٩٣٤)

٧٣ - (ب) « الإمامة والسياسة » (القاهرة ١٣٢٢ هـ) .

٧٤ - (ج) « عيون الأخبار » (القاهرة ١٩٦٤) .

٧٥ - القفطى : (ت ٦٤٦ هـ ، ١٢٤٨ م) جمال الدين على بن يوسف ابن ابراهيم بن عبد الوهاب .

« إخبار العلماء بأخبار الحكماء » (القاهرة - ١٢٣٦ هـ) .

٧٦ - القلقشندى : (ت ٨٣١ هـ ، ١٤١٨ م) أبو العباس أحمد « صبح الأعشى فى صناعة الإنشا » ١٤ جزءاً - القاهرة ١٩١٣) .

٧٧ - ابن كثير : (ت ٧٧٤ هـ ، ١٣٧٢ م) عمادالدين أبو الفداء اسماعيل

ابن عمر بن كثير القرشي الدمشق .

« البداية والنهاية » (١٤ جزءاً - القاهرة ١٩٣٢) .

٧٨ - كرد على محمد :

(ا) « الإسلام والحضارة العربية » (القاهرة ١٣٤٩) .

٧٩ - (ب) خطط الشام (مصر ١٩٢٧) .

٨٠ - الكرملي : « النقود العربية وعلم النميات » (القاهرة ١٩٣٩) .

٨١- كريزويل : ك . ا . ك . Greswell k, A, C.

"Early Muslim Architecture Part 1,"

Oxford- 1 930, 1938

٨٢ - كريمر : الفرد فون Kremer' Alfred Uon

"Orient under the Gallphs"

Trans by Khuda Bukhsh

Galcutta, 1900

٨٣ - لامانس هنري Lammens : Henri

"Etudes sur le régne du Calife omaiyade Mo· Awia"
(Leipzig 1920)

٨٤ - (ب) "Le Califat de yazid" (Bairut, 1921)

٨٥ - لى بون جوستاف Le Bon, Jostave

"La Civilisation des Arabes" (Paris, 1884)

Le Srange; Baghdad dutiny The Abbasid

Galiph ate. Oxford, 8942

٨٦ - الماوردى (ت ٤٥٠ هـ ١٠٥٧ م) أبو الحسن على بن حبيب البصرى . « الأحكام السلطانية » (القاهرة ١٢٩٧ هـ) .

٨٧ - المبرد (ت ٢٨٥ هـ ، ٩٩٥ م) أبو العباس محمد بن يزيد « كتاب الكامل » (جزءان - القاهرة ١٣٢٣ هـ) .

٨٨ - متز آدم Mez : Adam.
"Die Renaissance des Islams"

٨٩ - نقله إلى العربية محمد عبد الهادى أبو ريده باسم « الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى (جزءان - القاهرة ١٩٤٠-١٩٤١) .

٩٠ - محمد جمال الدين سرور .

(أ) « قيام الدولة العربية الاسلامية » (١٩٥٢) .

٩١ - (ب) « الحياة السياسية فى الدولة العربية الاسلامية » (القاهرة ١٩٦٥) .

٩٢ - (ج) « تاريخ الحضارة الاسلامية فى الشرق » (القاهرة ١٩٦٥) .

٩٣ - محمد ضياء الدين الريس .

« الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية » (القاهرة ١٩٥٧) .

٩٤ - محمد الطيب النجار :

« الموالى فى العصر الأموى » (القاهره ١٩٤٩) .

٩٥ - المدور : جميل نخلة .

« حضارة الإسلام فى دار السلام » (القاهرة ١٩٢٢)

٩٦ - المسعودى (ت ٣٤٦ هـ ، ٩٥٦م) أبو الحسن على بن الحسين بن على

(أ) « مروج الذهب ومعادن الجوهر » (الجزء الثانى القاهرة ١٣٤٦هـ)

٩٧ - (ب) « التنبيه والإشراف » (ليدن ٨٩٧ م) .

٩٨ - المقدسى (ت ٣٨٨ هـ ، ٩٩٧ م) شمس الدين أبو عبد الله محمد .
« أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » (طبعة دغويه - ليدن ١٩٠٦)

٩٩ - المقريزى : (ت ٨٤٥ ﻫ ، ١٤٤١ م) تقى الدين أحمد بن على .

(أ) « إغاثة الأمة بكشف الغمة » تحقيق الدكتور مصطفى زيادة والدكتور جمال الدين الشيال (القاهرة ١٩٤٠) .

١٠٠- (ب) المواعظ والاعتبار فى ذكر الخطط والآثار » (جزءان . — بولاق ١٢٧٩ ﻫ) .

١٠١ - (ﺟ) إمتاع الاسماع بما للرسول من الأنباء والأموال والحفدة والمتاع » صححه وشرحه الأستاذ محمود محمد شاكر — القاهرة ١٩٤١ م)

١٠٢ - ميور : وليم تمبل Muir william Temple

The Caliphate ; Its Rise, Decline and Fall .
London. 19g4

١٠٣ - ابن النديم . ت ٣٨٣ ﻫ ٩٩٣ م) محمد بن اسحق .

« كتاب الفهرست » (القاهرة ١٣٤٨ ﻫ) .

١٠٤ - نعمان القساطلى .

« الروضة الغناء فى دمشق الفيحاء » (دمشق ١٨٨٢م)

١٠٥ - نلدكه . تيودور Noeldeke, Theodödor

« أمراء غسان » ترجمة بندلى جوزى ؛ وقسطنطنين زريق . (بيروت ١٩٥٣) .

١٠٦ - نيكلسون .(أ) Nicholson : A. Reynold

"Literary Hisoty of the Arabs" [Cambridge-1930]

١٠٧ - هل يوسف Hell; Joseph

"The Arab Civilisation
H

ترجمة الدكتور إبراهيم العدوى القاهرة ١٩٥٦)

١٠٨ - هيد ، و . 				1 eyd w

"Histoire du commerce du Levant au Moyen Age"

[S. vold Leipzig-1925

١٠٩ - الواقدى . (ت ٢٠٨ هـ ، ٨٢٢ م) أبو عبد الله محمد بن عمر
« فتوح الشام » (القاهرة ١٣٠٢ هـ)

١١٠ - ياقوت . (ت ٦٢٦ هـ ، ١٢٢٩م) شهاب الدين أبو عبد الله الحموى الرومى « معجم البلدان » (بيروت ١٩٥٥)

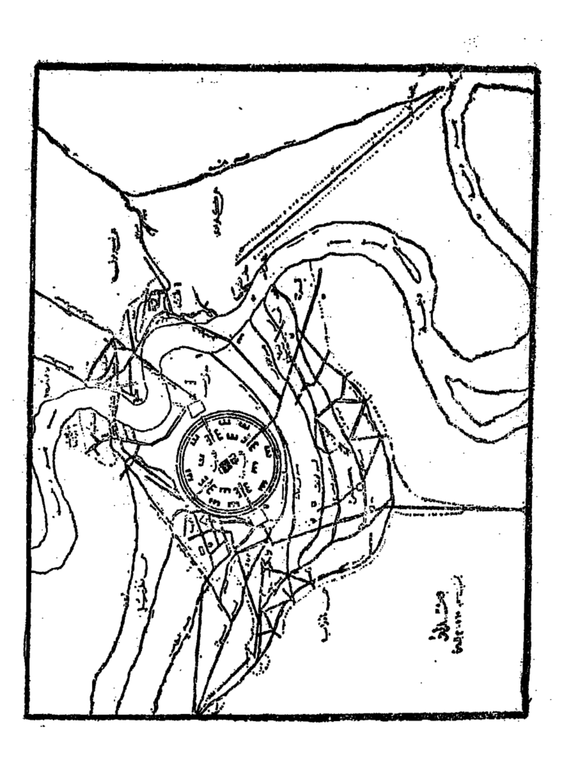
١١١ - يحيي بن آدم القرشى . (ت ٢٠٣ هـ)
« كتاب الخراج » صححه وشرحه أحمد محمد شاكر » (القاهرة١٣٤٧هـ)

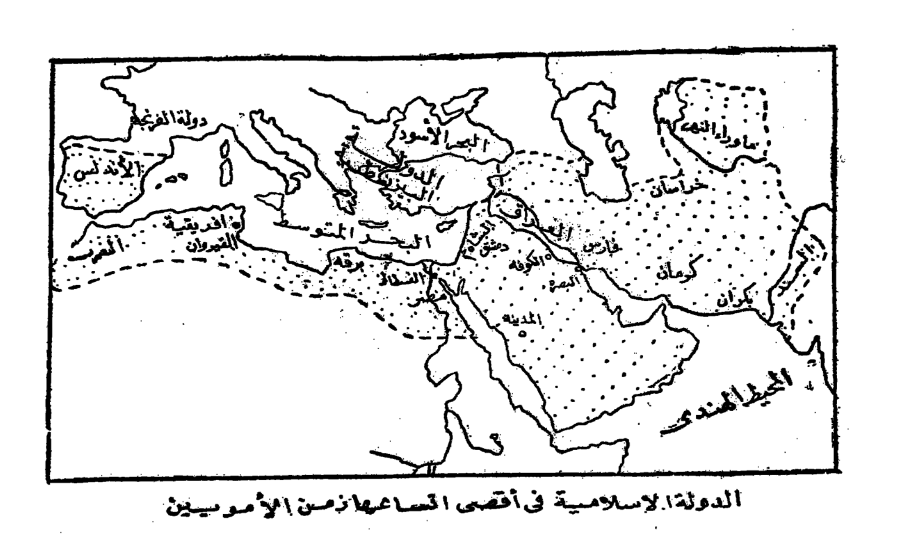
١١٢ - اليعقوبى (ت ٢٨٢ هـ ، ٨٩٥م) أحمد ن أبى يعقوب بن جعفر
(أ) « تاريخ العقوبى » (٣ أجزاء - مكتبة النجف١٣٥٨ هـ)

١١٣ - (ب) «البلدان » (طبعه دى غويه - ليدن ١٨٩٢)

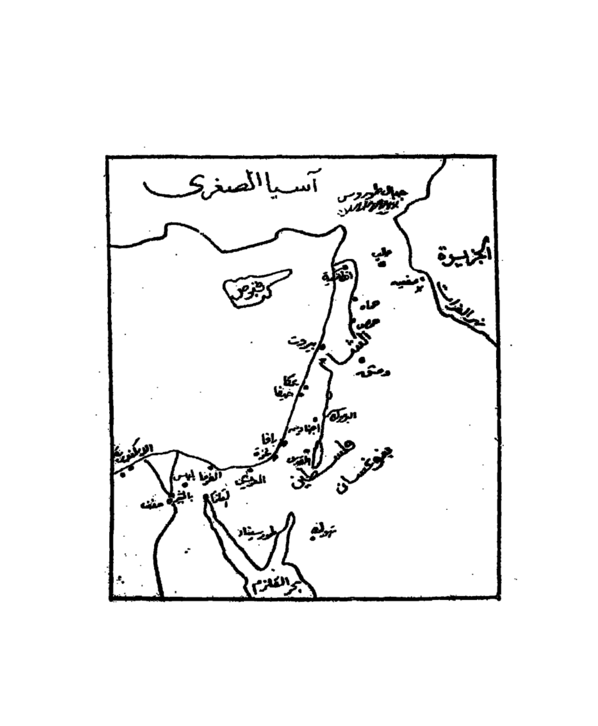
١١٤ - أبو يوسف (ت ١٩٢ هـ ، ٨٠٧ - ٨٠٨ م)
يعقوب بن إبراهيم .
« كتاب الخراج » (القاهرة، ١٣٠٢)

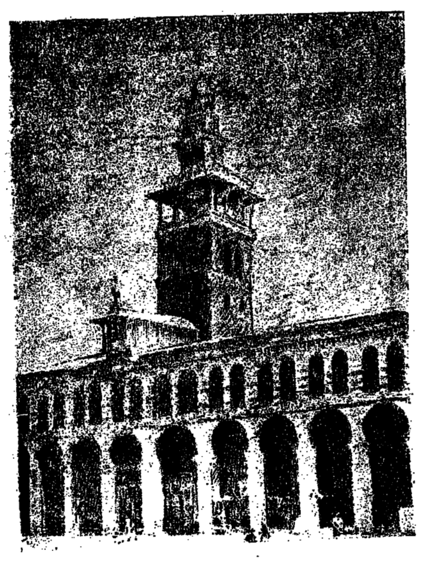
١١٥ - كتاب العيون والحدائق فى أخبار الحقائق » لمؤلف مجهول
(الجزء الثالث — ليدن ١٨٥٢) .





الدولة الإسلامية فى أقصى اتساعها زمن الأمويين


آسيا الصغرى
جبال طوروس
الجزيرة
حلب
نهر الفرات
قبرص
حماه
الشام
بيروت
دمشق
عكا
حيفا
اليرموك
يافا
غزة
فلسطين
الإسكندرية
الفرما
بحر القلزم



المسجد الأموى بدمشق

محتويات الكتاب

الموضوع — الصفحة

الموضوع — الصفحة

الموضوع	الصفحة